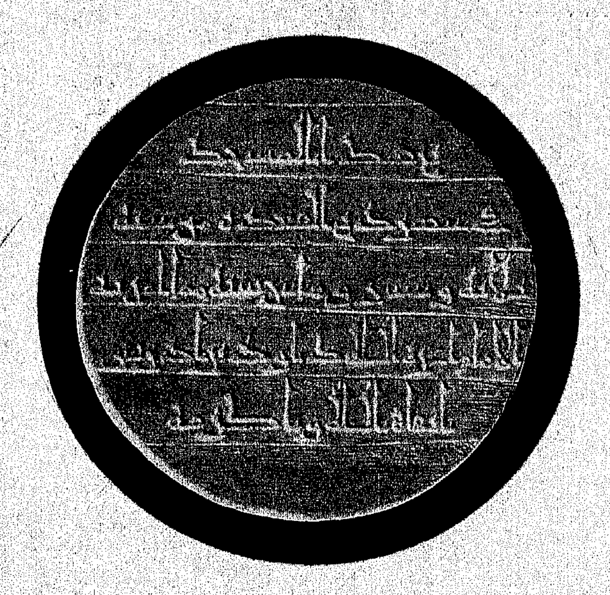
التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الثاني

المقدمة

2

تأليف

عبد الهادي التازي

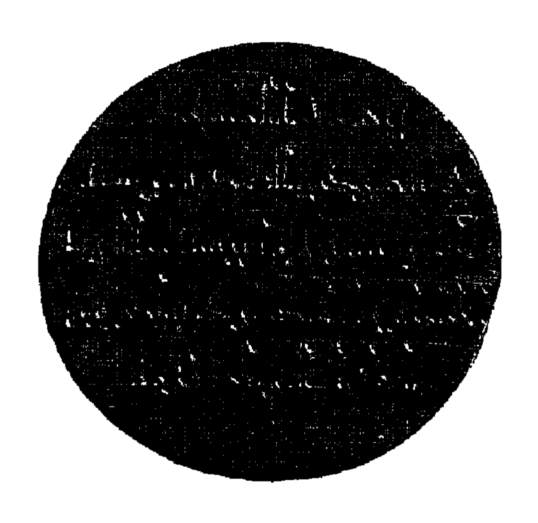
عضو أكاديمية المملكة المغربية

1406 - 1986



التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الثاني

تأليف

د. عبد الهادي التازي

سفير سابق

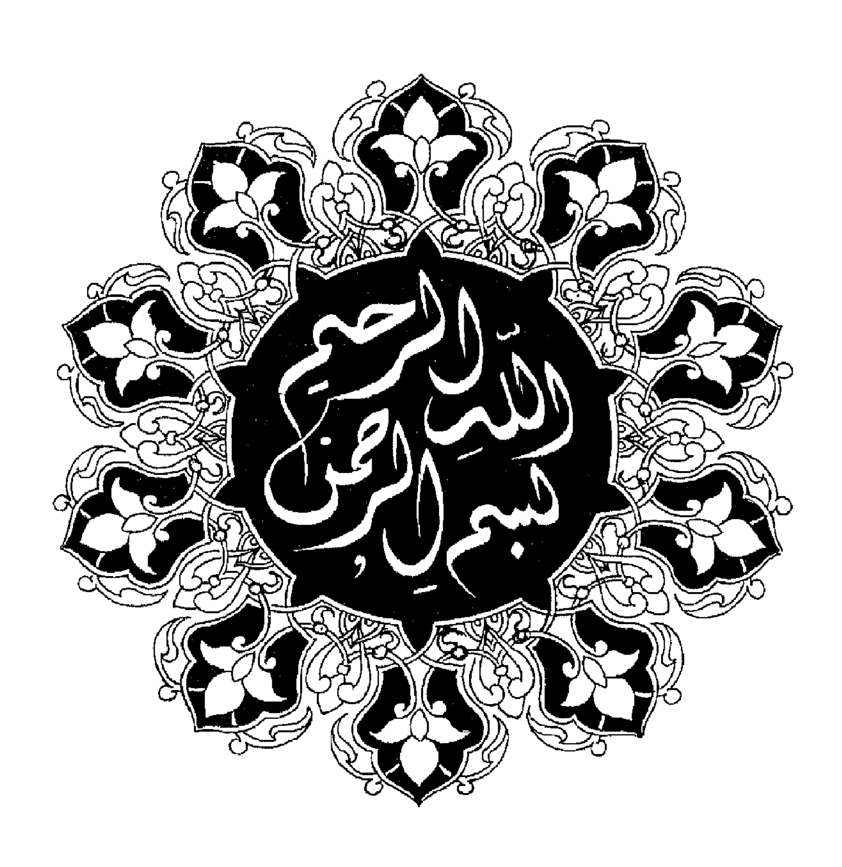
وعضو أكاديمية المملكة المغربية

1406 - 1986

صورة الغلاف

أقدم خط كوفي عثر عليه في جايزةٍ من خشب الأرز مدفونةٍ بناصية البلاط الذي كان يقع فيه المحراب الأول لجامع القرويين، وقد نقش عليها : «بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثٍ وستين ومائتي سنة مما أمر به الإمام داود بن إدريس أبقاه الله وأكرمه وكلأه ونصره نصراً عزيزا».

د. التازي : جامع القرويين بيروت 1972 1. ص 47


بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق

وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق

صدق الله العظيم
سورة الأنفال - الآية 72

الصّادرات والواردات

- □ دور الصادرات في التعريف بالمغرب.
- □ السكّر المغربي وسمعته العالمية منذ العصر الوسيط.
- □ معامل السكر في عهد الموحدين - عهد السعديين.
- □ عهد العلويين - زيارة المصافي من طرف الزوار الأجانب.
- □ الذهب والتّبر - ملح البارود - العلَق الطبي - الثروة الحيوانية - الحبوب.
- □ المعادن - الأخشاب - الفواكه المجففة - القطن - الشموع.
- □ الأرز - الأفاوية - وسائل التجميل - الحرير - الأحذية.
- □ التبادل التجاري مع ممالك إفريقيا - مصانع النسيج بفاس - والصابون - والدباغة - والصباغة - والزجاج - الورق.
- □ الوارِدات : الأعتدة الحربية.
- □ قطع الغيار - التوابل - الشاي - القهوة - آلات الموسيقي.

الصّادرات والواردات

وقد كان للتبادل التجاري بين المغرب وغيره من الدول، أثر جدّ قوي في ترديد اسم المملكة منذ القدم، فإن المغرب بما يتوفر عليه من مواد، يكاد يختص ببعضها دون غيره إن لم يكن فعلاً الوحيد الذي ينتجها. وان المغرب الذي يوجد على مرمى حجرة من أوربا بحاجة أيضا إلى بعض ما يصدر عن هذه القارة. ومن ثمت لاحظنا كما أشرنا من خلال السفارات والمعاهدات والمراسلات حديثاً مسهباً عن صادراتنا للخارج وعن الواردات إليه من ذلك الخارج.

وهكذا احتل السكر المغربي الدرجة الأولى في السمعة العالمية، وكان بما يتوفر عليه من جودة وطيب نكهة ونصاعة يتمتّع في البلاطات الأوربية بذكرٍ لا يعرف لنوع آخر من السكر في أطراف الدنيا...

ومن الأخطاء التاريخية أن نرجع تاريخ زارعة السكر بالمغرب إلى أيام السعديين فقط على ما يزعمه بعض الكتاب، فإن المغرب عرف هذه المادة وعرف مزارعها منذ العصور الوسطى سنة 548 = 1154 على ما يذكره ابن حوقل 367 هـ = 978، والبكري (487 = 1094)، والإدريسي وابن الوردي، والعُمَري، والقلقشندي وابن الوزّان (ليون الإفريقي)، بيد أن الصناعة لم تبرز دقّتها وجودتها إلاّ في العصر السعدي الذي كان يستورد الرخام من إيطاليا في مقابلة السكر وزناً بوزن على ما يقول اليفرني في نزهة الحادي، هذا العصر هو الذي عرف وزارةً خاصة تهتم فقط بصناعة السكر...

(واما غراسة قصب السكر ويعرف بالقصب الحلو ففي كتاب ابن حجاج رحمه الله تعالى تغرس أصوله في عشرين من اذار : توافقه الارض المتطامنة الشمسية بمقربةٍ من الماء... ويزبل بزبل كثير طيب دقيق معفن... ثم تسقى بالماء كل رابع يوم فإذا ارتفع لقحها قدر شبر فتنبش نبشا جيداً وتزبل بزبل كثير من زبل الغنم وتوالي سقيها في كل ثمانية أيام مرة إلى أول شهر اكتوبر... يقطع القصب المذكور إذا كمل وطاب في الوقت المذكور وهو يناير، ثم يقطع قطعا صغارا... ويعصر ويرفع عصيره على النار في مرجل نظيف ويغلى ثم يترك ويصفى ثم يعاد إلى الطبخ حتى يبقى منه الربع ثم تملى منه قوالب الجامات معمولة من فخار على هيأتها ويجعل للظل حتى ينعقد ثم يخرج منها ويجفف في الظل وترفع وتقلب الباقي بعد تعصيره تأكله الخيل ويستلذه ويسمن عليه).

عن الفصل السابع من كتاب الفلاحة لابن العوام.

وقد أثر عن الملكة اليزابيث الأولى أنها لم تستهلك في بلاطها غير السكر المغربي حيث بلغ استهلاك القصر سنوياً حوالي عشرين ألف رطل !! ونحن نعلم أن الشريف الإدريسي نعت قصب السكر المغربي بأنه (ليس على قرار الأرض مثله) ! ولم تكن أنجلترا وحدها من ممالك أوربا المستوردة لهذه المادة، فقد لاحظ (ماس لاطري) أن سمعة السكر المغربي كانت تحلق في سائر أجواء أوربا، عبر أنجلترا، الأمر الذي فصَّله المستشرق البولوني A. Dzinbinoki).

وبهذا يتأكد أيضا خطأ الرأي في أن المغرب كان يقتصر على الاستهلاك والاستيراد، وان إنتاجه كان يقتصر على الحبوب وتربية المواشي وزراعة الأشجار، ويتأكد من جهة أخرى النشاط الاقتصادي القديم الذي كان وراء النفوذ السياسي في بعض مراحل تاريخ المملكة.

وبفضل البحوث العلمية الجارية أصبحنا نتوفر اليوم على مواقع أهمّ المزارع وكذا أهمّ المصانع التي كانت تنتشر في الجنوب المغربي والتي تناهز الأربعين على ما ذكره صاحب صبح الأَعشى... تلك المصانع التي كانت تعتمد على قوة محركة صادرة عن الطاقة المائية التي تزود السواقي بها، كما تعتمد على آلات التعصير وعلى المواقد والأفران والجفان والقوالب على ما يشير إليه الفشتالي في مناهل الصفا...

وأن التقارير الاجنبية على العهد القديم لتتحدث بإطراء عن نوعية السكر المغربي الذي كان يصدر منه أكبر جزء إلى الخارج، وقد نُعتت دبلوماسيتنا في وقتٍ من الأوقات بأنها (دبلوماسية السكّر) !

وقد احتفظت تلك المزارع والمصافي بحيويتها عدة قرون، حيث كان الهكتار الواحد ينتج تسعة آلاف رطل من السكر !! وقد استمر ذلك إلى عهد الاكتشافات الكبرى ومنافسة أقطار (الأطلانتيك) حيث تعرضت لبعض الفتور، وعوضت زراعة بعض المناطق بغراسة شجر (أركَان) التي ورد وصفها بدقة من لدن الشريف الإدريسي وخاصة بعد أن توالت التامرات ضد الاقتصاد المغربي... ومع ذلك فإننا سنلاحظ أن فكرة إحياء تلك المزارع والمعامل عادت على عهد العلويين وبخاصة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الذي نراه يستقدم الخبراء والعمال من الخارج للمساعدة. كان منهم من قدم من أوربا ومن مصر المعروفة بزراعة قصب السكر، على نحو ما نقرأه في الرسائل التي كان يبعث بها وليّ العهد الأمير حسن الذي أصبح فيما بعد (الملك الحسن الأول).

وقد كانت تلك المعامل تدخل ضمن برامج الزيارة التي يقوم بها الواردون على المغرب من شتى الجهات، على أنها مظهر من مظاهر



إن معظم المصادر التي تتبعت دور السكّر المغربي في بناء الاقتصاد المغربي غفلت عن دوره كذلك في تحرير أكَادير نفسها من الاستعمار البرتغالي عام 1541، ودوره في انتصارنا بمعركة وادي المخازن 1578 ودوره في الإجهاز على امبراطورية سنغاي عام 1591 / 92.

د. التازي : أكَادير إيغير من خلال التاريخ
الدولي للمغرب
كلية الآداب، أكادير ـ المغرب
10 ـ 4 ـ 1986

التقدّم والرقي. وقد سمعنا عن أصداء الزيارة التي قام بها لتارودانت إمام الدين المقدسي لمّا ورد على المنصور السعدي من بلاد العجم.

ومن الطريف أن نجد المغرب لا يقصر تعامله على الحكومات الرسمية، ولكنه يتعداها إلى الشركات الكبرى التي كانت تمثل آنئذ شبه امبراطوريات داخل تلك الحكومات على نحو ما رأيناه يفعل مع شركة (باري باري كامباني) التي عاصرت سفارة (طوماس سوميرفيل) والتي عادت بدورها من المغرب بثلاثمائة صندوق من السكّر...

وقد لاحظ الذين علّقوا على وفرة السكر بالمغرب، أن المغاربة - وقد بلغت وفرته لديهم درجةً أصبحوا معها يملّونه ! فكانوا لا يهتمون به مفضلين عسل النحل، حتى ليقال عندهم : «إنما يستعمل السكر الغرباء والمرضى» !!

وعلى ذكر العسل لا ننسى أن نذكّر بما أوردته الوثائق التاريخية عن إشادة بعض دول أمريكا اللاتينية بعسل آسفي وآزمور على نحو ما نفصله في العلاقات المغربية مع القارة الأمريكية...

ولم تكن مادة السكر والعسل وحدها التي كانت تحرك شهية الدول الأجنبية نحو بلادنا، فقد كانت هناك أصناف أخرى من الصادرات التي كانوا يعتمدون عليها لتدبير شؤونهم...

وهكذا نجد أن الذهب من أهم المواد التجارية التي تجلب من جنوب المغرب.. وقد استقر في ذهن الخبراء أن ذهب سوس أخلص ذهب على وجه الأرض فعياره يبلغ 24 كَارة (Garat)، وهم يقولون في طريقة استخراجه، إن الأفاعي تعيش في بطن الأرض اتقاء الشمس والحرارة، وحتى تجلب لنفسها البرودة تملأ أفواهها من تحت الأرض برمال الذهب (التبر) وعندما تخرج بالليل إلى ظهر الأرض ترمي ذلك التبر من

أفواهها في الأَمكنة التي تختارها للرعي، على ما يذكر تقرير فرنسي أورده دوكاستري !

وقد تعددت مصانع الذهب بالمغرب وخاصة ببعض العواصم، وقد سمعنا عن المعامل التي أنشأها السلطان المنصور الذّهبي على أبواب قصره البديع. وقد ذكر أن (تنبكتو) كانت تؤدي للمغرب سنوياً كضريبة، ستين قنطاراً من التبر، مما جعل المنصور أثرى ملكٍ في العالم الأَمر الذي كان يثير غيرة بعض الدول الأُوربية المعروفة بثرائها...

وقد أغرت جلجلة الذهب عدداً من المضاربين والمهربين، وسمعنا عن إخفاء قطع الذهب في صناديق السكر ! وعن مزج التبر بالسكر الأَمر الذي كان يكتشف أحيانا عندما يطغى ماء البحر على السفن !

وإلى جانب «الذهب» نجد ملح البارود الذي كان مهْوَى أفئدة الأوساط الحربية لدى ممالك أُوربا، ولهذا نجد أنها تتبارى للحصول على إذن المغرب باقتنائه وتصديره بالرغم من أن المغرب كان بخيلاً جدّاً بالسماح بخروج هذه المادة الاستراتيجية احتراماً لفتاوي العلماء التي كانت تحظر مثل هذه التجارة مع الخارج.

هناك طائفة من المراسلات بل والسفارات التي تتحدث عن ملح البارود التي تعتبر المادة الثانية بعد الذهب.

وقد تحدث الشريف العمراني الفزكاري عن عمليات تقطير (ملح البارود) في المغرب مبيّناً الفرق بين الصنع المغربي والصنع الرومي، ومن هنا نكشف السر الذي يكمن وراء الطلبْ المتوالي من الدول الأُوربية والامبراطورية العثمانية على (ملح البارود المغربي) : «لقد كان بارود الروم يخزن في براميل العود لبضع سنوات، فإذا أخرجوه

وجدوه مثل رملة البحر وليس كذلك بارود المسلمين» على ما يقول الفزكاري[1]...

وبعد (ملح البارود) نجد الصادرات الأخرى التي تتمثل في الحيوانات والجُلُود والصوف وأنواع الحبوب والزيوت بما فيها زيت أركَان والعسل كما قلنا، والتمور والصمغ العربي والنحاس والفضة والكبريت والرصاص والزئبق وأخشاب الأرز والجوز واللوز، وريش النعام... يضاف إلى هذا القطنُ الذي كان يزرع في الأقاليم المغربية المنخفضة، وقد بلغ إنتاج القطن في دكالة أربعمائة قنطاراً أواسط القرن التاسع عشر، وكان فيه نوعان مطلوبان في أوربا وأورْليان الجديدة، كان فيهما سدىً حريري لا يوجد في قطن البلاد الأخرى، وقد كان يصدر لفرنسا وأنجلترا وإيطاليا... إضافة إلى المنسوجات من زرابي وأقمشة، وإضافة إلى الصناعات الجلدية التي اشتهرت بها بلاد المغرب...

وقد تجاوزت شموع المغرب القارة الأوربية لتنتقل إلى القارة الأمريكية، إلى المكسيك حيث سجلنا على نحو ما قلنا في العسل الحديث عن شموع مدينة آسفي منذ تاريخ قديم.. وحيث سجلنا أن أولئك المستهلكين كانوا يعجبون ليس فقط بقوة النور التي تنبعث من السراج ولكن أيضا بالرّائحة التي يستنشقونها عند احتراق الشمع وكأنه مزج بمادة عطرية !

هذا وقد ذكر من صادرات المغرب أيضا الأرز أو (الرّز) كما يسمى في المغرب وكان يزرع في الغرب طوال القرن التاسع عشر، وقد كان المغرب يصدره إلى بعض الدول الأوربية، علاوةً على السمك الطّريّ والمصبّر...

---

1) د. عبد الهادي التازي : مقدمة كتاب «الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد» لأبي القاسم الفچيچي - نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1983 صفحة 26 - 27 - 28.

وأن من أغرب ما كان يصدره المغرب في القرن الماضي ما عرف في الاصطلاح بالعَلق الطبي الذي كانت بعض الدول الاروبية تستعمله لأغراض طبّية والذي كانت الحكومة تسند احتكار التجارة فيه لبعض التجار ممن لها فيهم ثقة...

هذا إلى أنواع الأفاويه من الزعفران والزعتر والكروية والمسك والعنبر الأشهب ووسائل التجميل مثل الحناء والصابون والغاسول والكحل وأنواع من الاصباغ، كالنّيلة التي كانت تزرع في درعة، ويستخرج الصحراويون مادتها بمهارة تكشف عنها الألوان الزرقاء الزاهية التي يرتديها «الرجال الزُّرق» في الجنوب المغربي إلى الآن... وبالرغم من سمعة (الحرير) الهندي، فقد عرفنا أن الحرير المصنوع بالمغرب كان يجد نفس السمعة على نحو ما حكاه البكري، وإن وفرة أشجار التوت في كلّ جهات المغرب ليفسر حجم إنتاج الحرير بديارنا... وقد سمعنا عن الحذاء المغربي (البَلْغة) الذي انتقل عبر المتوسط إلى المشرق وعبر الصحراء إلى السودان...

وقد أبرز الرحّالة والجغرافيون أهمية المبادلات التجارية مع باقي الممالك الإفريقية، فذكروا أن أهل أغمات كانوا يدخلون بلاد السودان بأعداد ضخمة من الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الملون والأكسية وصنوف الزجاج. وقد تحدثت كتب التاريخ عن المصانع العديدة التي كانت منتشرة بقواعد المغرب شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً، وقد تحدثوا عن معامل فاس التي تجاوزت ثلاثة آلاف معمل، فيما يختص بالنسج وحوالي الخمسين فيما يتعلق بصناعة الصابون، وزهاء الثمانين فيما يتعلق بدباغة الجلد، وفوق المائة دار من دور الصّباغة، واثنى عشر معملاً لسبك النحاس، وأحد عشر معملاً لصنع الزجاج، وأربعمائة معمل لصناعة الورق..!

☆ ☆ ☆

وفي مقابلة الصادرات، نجد أن المغرب كما أشرنا كان يستورد بعض المواد التي لم يكن له غنى عنها، وقد كان في أبرز هذه الواردات المعدات الحربية للدفاع عن حوزته واستقلاله، وقد حاول بشتى الوسائل أن يحتفظ بمصانعه وأن يكتفي ذاتياً في هذا الصدد، لكنه مع مرور الأيام وتوالي الحروب أمسى مضطراً للاتجاه نحو بعض المصانع الأوربية التي كانت تبخل عليه بإرسال مختصيها لإنشاء مثل تلك المصانع بالمغرب. لقد كانت سياستها مع المَغرب على نحو ما تذكره الحكمة المشهورة : (إذا أعطيت سمكة لإنسان، فإنه سيتقوّت بها لمرة واحدة، أما إذا علّمته أن يقتنص، فإنه سيتقوّت مدة حياته..).

وقد كان يجلب المدافع التي تجر على العجلات، وقطع الغيار للسفن البحرية، إلى الآتاي والقهوة وبعض أنواع التوابل والنسيج مما لا يتوفر في المغرب علاوة على الآلات التي جدّ ظهورها مما يتصل بفنّ الموسيقى أو علم الفلك...



تبادل المواد الصيدلية

إن مجرد إلقاء نظرة على الاتفاقيات التجارية التي تربط المغرب بمختلف دول البحر المتوسط، يعطي فكرة على المواد الصيدلية التي كان المغرب يستوردها أو يصدرها إلى تلك الدول منذ العصر الوسيط... وهكذا فهناك مما يستورده الصمغ العربي (GOMME) والنيطرون (BORAX) والميعة (STORAX) والكافور (CAMPHRE) والعنبر (LADANUM) والصبر (ALOES) والتخت (TARTRE) والزعفران (SAFRAN) هذا إلى ما يصدره المغرب من الشبث (ANETH) والكمون (CUMIN) والزعتر (THYN) والعَلَق الطبي (SANGSUS)...

عن محاضرة د. التازي في الأيام الصيدلية الخامسة للمغرب العربي ـ طنجة، 2 مايه 1986.

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما



يتعرف من يقف على مسطورنا هذا يتحفون بالخير والإقبال الطالع في سماء معالي التحكيم ومن في
الإجلال من القضاة والنظار وأهل المعرفة بالأحباس ومن يمارسها ومن يقفها أنــــا أبقينا عنزلنا
أن من المهم الكبير والصلاح الحكيم بحجة وسنة سيدي كلا تعالى الله وما نهى جلب الماء الخارج عن سورنا
من العين التي هنالك إلى مسجد تعالى الأكبر الذي باغ علا تعالى بقاه وشرفه وأن ذلك يتوقف على التعاهد بالبناء
والعلاج والإتقان اقتضى نظرنا الشريف أن حبسنا على ذلك كله جميع مستفاد المشارع التي بوادي
مهدي بلاد البلامل بين عدوتي العرائش لاصطياد الحوت في جميع الأماكن المعروفة هنالك بالوادي المذكور
على أن يكون جميع ذلك قبالة الماء المذكور للمسجد المذكور بالربع الذي كان قبل هذا لإصلاح الساقية التي هنالك
ويكون للثلاثة أرباع الباقية للماء المذكور ويصرف الجميع في الماء المذكور خاصة في إيصاله وإصلاحه مما
بالبناء وغيره من جملة أوقاف المسجد المذكور يحق في ذلك حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يبدل عن حاله
ولا يغير عن سبيله ومن بدله أو غيره فالله حسيبه ومطالبه وولي الانتقام منه وما كان من إصلاح الساقية
من ربع المشارع المذكورة يصرف الآن من أوقاف المسجد المذكور حيثما أضفناه للأربعة الباقية وجعلناها
مصرفا واحدا وسكنا الناظر الأحباس العامة والخاصة بثغر العرائش السعيدة الأمين العارف الفقيه
السيد محمد الكاتب الأندلسي يد الحوز والتصرف فيما ذكر حبسناه يصرف فيما عيناه له تصرفا كليا
من غير منازع ولا معارض وحسب الواقف عليه من القضاة والعدول وأمثالهم الإشهاد بما فيه وتنزيله
تسجيله بديوان الأحباس وحيازته بتلاميذه والسلام في بلغ جمادى الأولى من عام ثلاثة عشر ومائة وألف

اشتهر المغرب من قديم بتصدير ثروته السمكية المتنوّعة سواء منها التي تختص بالبحار أو التي توجد بالأنهار وقد حفلت الوثائق والاتفاقيات بالحديث عن هذه الثروة، ولكي نأخذ فكرة عن غزارة السمك النهري المعروف باسم «الشابل» الذي يكثر في الأنهار الكبيرة، ينبغي أن نذكر :

أولا : أن الحاكم البرتغالي لمدينة الجديدة أبرم مع قائد أزمور اتفاقية عام 969 = 1562 تقضي بتقديم عشرين ألف شابلة من وادي أم الربيع.

ثانيا : أن السلطان مولاي اسماعيل بمقتضى ظهيره هذا بتاريخ أول جمادى الأولى 1113 = 4 اكتوبر 1701 خصّص مستفاد «الشابل» الذي يصطاد بوادي أبي رقراق وهو مبلغ كبير من المال ليصرف على جلب الماء للمسجد الأعظم لمدينة سلا وصيانة قنواته وتعهدها على مر الزمن..

إبرام الاتفاقيات وتقاليدها

- □ وفرة الاتفاقيات والمعاهدات مع الدول الأُخرى ـ كيف يتم تحرير الفصول وتتم المصادقة.
- □ جهاز الدولة ـ اللغة العربية كوسيلة وحيدةٍ للتعامل في الداخل والخارج.
- □ ترحيب دولة الموحدين بالعرب.
- □ مقولة ابن خلدون عن العرب لم تؤثر في مركز اللغة العربية التي ظلت مقدسة.
- □ أبرز أسباب الصراع المغربي مع دول أُوربا كان ناشئاً عن مناصرته للإسلام والعروبة.
- □ المغرب يرفض تسلم الرسائل الغير المحررة بالعربية.
- □ حرص الدبلوماسية على مخاطبة الأَجانب باللغة العربية.
- □ قلم الترجمة في البلاط المغربي.
- □ اقتناع الحكومة بضرورة تعلم اللغات الأَجنبية.
- □ أبرز اللغات الأَجنبية السائدة.
- □ هفوات التراجمة.
- □ اعتماد التاريخ الهجري القمري في المعاهدات والرسائل الرسمية من غير مجافاة التقويم الشمسي.
- □ استعمال الأَرقام العربية.
- □ القلم الرُّومي ـ التَّرتيب المغربي للحروف الأَبجدية والهجائية.
- □ التاريخ الشعري.

إبرام الاتفاقيات وتقاليدها

علينـــا أن نستعرض مئـــات المعـــاهــــدات (TRAITÉS) والأوفـــاق (ACCORDS) والاتفـــاقيـــات (CONVENTIONS) والعقـــود (ACTES)، والتصريحـات (DECLARATIONS) والتكميلات (PROTOCOLS) التي كـانت تبرم بين المغرب وغيره لنتبين الحاسّة الفقهية والروح القـانونيـة التي كان المفـاوض المغربي يتوفّر عليهـا عنـد تحرير تلـك الوثـائق منـذ مـا يسمّى بفترة العصور الوسطى إلى اليوم، وهكذا شاهدنـا عـدم التنـازل عن أي حقٍّ من حقوق المغرب كما شاهـدنـا من خلالهـا الحرص على أن تكون واضحة المعالم مواكبةً مدركةً لما يجري في تلك العصور...

يخيل إليّ أن المفاوض المغربيّ كان يقوم بمهمته وهو يجعل أمامـه هذا البيت من الذي احفظه للشاعر العراقي الجواهري :

فاوضْ وخلّ وراء سمعِك مُغريا ☆ وأَمامَ عينـك شامِتاً وعَذُولاً !

لقـد فـاق الحصرَ عـددُ تلـك المعـاهـدات التي يسمـح البعض لنفسـه بتحديد رقْم لها يصل إلى مائتين وثلاثين... إنهـا ـ مع مـا كـان يصحبهـا من تعـديلات وتوضيحـات ورسـائل كـانت تتجـاوز عشرات المئـات بغض النظر عن «الاتفاقيات الشفوية» التي كانت تبرم بين الطرفين وكـان لهـا نفس القيمة...

ولقد كانت المعاهدات تناقش طويلا ثم يقرر نصها النهائي ثم يصادق عليها بتشبيك الأيدي أو بالقسم. وتسلم في الغالب للسفراء رسالة تنص على انعقاد المعاهدة وتلخص فيها الضمانات الأساسية المكفولة للمسيحيين كضمان حياة الأفراد وحرية معاملاتهم وممارستهم لشعائرهم الدينية على نحو ما نرى في بعض المعاهدات التي انعقدت في العصور الوسطى وما بعدها.

وينص في المعاهدات على أسماء السفراء من المفاوضين ويذكر فيها أن الله خير ضامن وخير شهيد... هذا علاوةً على حضور المترجمين والعدول والأمناء... وما فتئت هذه الشكليات تتطوّر تدريجيّاً عبر العصور... وقد روى (المؤرخون) عن سيْر المفاوضات فقالوا : إن السفير المسيحي يأتي إلى إفريقيا حاملاً أوراق الاعتماد التي تخوله التفاوض، وقبل مقابلة السلطان يمهد بمقابلة الوزراء والحاشية، وفي اليوم المحدد يقدم السفير نسخة من بنود الاتفاق المقترح فصلاً فصلاً.

وغالباً ما يغتنم السفير الفرصة لطلب تحرير بعض الأسرى، وغالباً ما يستجيب المغرب لذلك، وكانت المفاوضات تجري بالقصر أو في منزل أحد كبار الدولة...

وعندما تتم المفاوضات يحرر مشروع الاتفاقية بالعربية أولا في أغلب الأحيان، ثم يترجم للغة الأخرى ثم تُمضَى النسخ وتطبع بالخاتم الملكي... وغالباً ما تكون هناك حفلة كبرى في الختام يحضرها قناصل الدول المعتمدة وطائفة من التجار وكبار رجال الدين والشهود وحتى بعض اللفيف الأجنبي ممن يعملون بالمغرب كخبراء، هذا إذا تم الأمر في المغرب اما إذا تمّ خارجه، باسبانيا مثلا، فإنّ المراحل تختصر كثيراً نظراً لأن الكلّ يعرف اللغتين العربية والإسبانية...

فإذا ما تم الاتفاق بين السفير ووزراء الأطراف الأُخرى فإن هذه الأطراف تتكفل بتحرير نسختين للمعاهدات تتضمنان النص الأجنبي والعربي معاً ويوقع المفاوض الأجنبي باسم رئيسه، ثم ترسل الوثيقتان إلى المغرب ليذيّلهما السلطان بخاتمه وإمضائه، فيحتفظ بنسخة ويعيد أُخرى ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين ويحتفظ كلٌّ بتوقيع الآخر... على نحو ما نراه في اتفاقية (673 = 1274) بين أبي يوسف يعقوب وبين جاك الثاني.

وهناك طريقة أُخرى : تحرير المعاهدة على ورقتين تطويان على طولهما ويسجّل النص القشتالي أو الكاطالاني على اليسار بمحضر السفير المغربي ويذيل الطّرف الأجنبي كلا النصين بخاتمه ثم تسلم الوثيقتان : إحداهما إلى السفير المغربي والأُخرى إلى مبعوث الطرف الآخر ويتوجهان معا إلى المغرب لتحرير النّص العربي على العمود اليمين ثم تذييلِه بخاتم السلطان...

وهناك طراز آخر : ترقيم فصول المعاهدة، وقد تركز هذا في القرن السادس عشر. وفي كل هذا نتأكد كما قلنا من الحاسة القانونية الدولية التي كان ملوك المغرب. يتوفرون عليها عندما يؤكدون على ضمان احترام السيادة المغربية...

اللغة العربية في جهاز الدَّولة

وقد ظلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد منذ أن احتضن المغاربة الدين الإسلامي... وكما كان عندما أمر الحجّاج صالح بن عبد الرحمان بنقل الدواوين من الرومية إلى العربية، وعندما أمر عبد الملك بن مروان أبا ثابت بعدما عاين من تلاعب سرجون ابن

منصور النصراني... فقد كان البدء بالتّعريب يُعطى الأَولوية، حيث وجدنا أن الدول الحاكمة في المغرب تعتمد اللغة العربية في دواوينها ومراسلاتها وفي سائر الأَجهزة التابعة للإدارة المركزية.

وهكذا حافظ المغرب بضراوة على الحرف العربي ولم يرض بديلاً به عبر التاريخ. ومن المغالطات التاريخية، الزعم بأن دولة المرابطين كانت ترمي من «اشتراط معرفة اللغة البربرية فيمن يتصدى للخطبة بجامع القَرويين» إلى فرض تلك اللغة على المواطنين ! فكلنا يعلم أن الهدف الحقيقي لذلك التدبير القصير العُمر، هو تعجيل وتعميم فائدة ما يقال على المنبر الرسمي للدولة بالنسبة للذين يستفسرون أو يستزيدون... وإلا فكيف نفسر اعتماد جهاز الدولة على قلم عربي كان آيةً في البلاغة والفصاحة، وكيف نفسر هيام يوسف بن تاشفين باللسان العربي وتطلعه للتحدُّثِ به على أنه اللسان الذي نزل به القرآن، وعلى أنه الوسيلة العملية الوحيدة التي كانت بين يديه لتوحيد أمبراطوريته الشاسعة الواسعة، وإلا فبماذا نفسر تنافس المرابطين على امتلاك أنفس المخطوطات العربية...

ولمْ يكن العهد الموحدي ـ وهو الذي جعل من شعاراته القوية لانتزاع الحكم من المرابطين أن هؤلاء كانوا مقصِّرين في حق العربية ـ لم يكن أقل اهتماماً من الدولة المرابطية ـ وقد سمعنا عن مجالس العلم التي كانت تعطى بالأَندلس للفئات الإسلامية والمسيحية واليهودية باللغة العربية، وعرفنا عن الأَثر الذي تركه العرب الواردون على بلاد المغرب أيام الموحدين فيما يتصل بانتشار اللغة وتعريب سائر أطراف الامبراطورية.

هناك قولة تنسب للمنصور الموحدي : إنه ندم على ثلاثة أُمور كان في صدرها استقدامه العرب ثم بناؤه لمدينة الرباط وتسريحه أسرى الروم... وهذه قولة في نظري بعيدة عن الحقيقة، فقد ظل المنصور

متعلقاً بالعرب يقدمهم ويؤثرهم إلى أن أدركته وفاته، وقد أوصى أصفياءه قبل مماته أن يدفن في الرباط تعبيراً عن تعلقه بالمدينة وهو الأمر الذي كان حيث نجد قبره في شالة. وأخيراً فقد استمر مرتاحا من صنيعه إزاء الأسرى لأن تصرفه كان متفقا مع تعاليم الدين الحنيف.

☆ ☆ ☆

لقد ظل العرب يتمتعون في هذه الديار بمركز مرمُوقٍ يدل عليه، في صدر ما يدل عليه، سلطان اللغة العربية واحتلالها مركز الصدارة بالنسبة للتعامل الرسمي في الداخل والخارج.

بل إن الاعتزاز بالعروبة والإسلام، كان موضوع عددٍ من الرسائل التي راحت من المغرب إلى دول أُوربا، على ما نجده في خطاب بعث به السلطان المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا : «فنحن معشر العرب لا نعرف إلا الصحيح ولا يسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين».

ولا شك أنها تزكية جميلة تخفف من فداحة الأُطروحة التي أُثرت عن ابن خلدون والتي كانت تنطلق من قولته : «إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب... يهدمون المباني من أجل الحصول على أثافي القدور ! ويكسرون السقوف لنصب أوتاد الخيام ! وقلّ أن يرضى أحد منهم بتسليم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه !!».

لسنا هنا بصدد تحليل قولة ابن خلدون ومعرفة القصد منها، ولكن قصدنا إلى القول إنها نظرية من ابن خلدون لم تترك لها أثرا على الالتحام الذي يلاحظ بين العرب والبربر؛ بل إن هؤلاء أو أولئك لا يشعرون بأي فارق يحول بين المواطنين في أُمور المعاملات وقضايا المصاهرات وكثيرا ما نجد أن المدافعين الصناديد عن لغة العرب هم من الذين لاينتمون للعروبة ! إنها لغة القرآن الجامعة...

ولعل ما يكشف عن الصدى الواسع الذي كان للغة العربية في مختلف جهات المملكة أن زعماء اليهود كانوا ينظمون الشعر بتلك اللغة منذ العصور الوسطى... وكانوا ينتقدون ما يريدون انتقاده بواسطة الحرف العربي، الأمر الذي يترجم عما رددناه من اكتساح اللغة العربية لسائر مرافق الحياة...

وهكذا كان الحال في الدول التي تولت الحكم بعد الموحدين، فإن أحداً من الملوك السابقين واللاّحقين، كيفما كان مصدره ومورده، لم يسمح إطلاقاً بالإخلال بهذه اللغة التي كانوا، وما يزالون، يعتبرونها ضمن مقدساتهم الأمر الذي فرض هذه اللغة أيضا على الممالك التي كانت تجاور المغرب على حوض البحر المتوسط، حيث نكتشف بكل سهولة مئات الكلمات العربية التي انسابت عبر البحر لتدخل في لسان القوم من إسبان وبرتغال وطليان وفرنسيس، ثم لتتحول من القارة الأوربية إلى أمريكا اللاتينية حيث يشتغل الباحثون اليوم بجرد الكلمات العربية التي رحلت إلى أمريكا من المغرب عبْر إسبانيا والبرتغال...!

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن من أبرز أسباب الاشتباكات التي كانت تشب بين المغرب وبين جيرانه في الشرق، بعد أن انفصل المغرب الأوسط عن الحكم المغربي، وبعد أن وقع تحت حكم الأتراك، كانت ترجع إلى حِفاظ المغرب على عروبته وعلى لغته، ونحن نعلم أن «الكراغل»[1] كانوا يتمالأون على العرب الخلّص في الجزائر، الأمر الذي كان يدفع بالمغرب إلى الاستجابة لاستصراخ هؤلاء على أُولئك حتى لا يطغى الوجود التركي على الجنس العربي... ومن أجل كلّ ذلك فليس من الغريب أن نجد أن اللغة التي كان يخاطب بها المغربُ الدولَ التي كان

---

1) الكراغل جمع كرغل : من أبوه تركيّ وأُمّه عربية.

يتعامل معها، كانت تعتمد أساسا على اللغة العربية، ومن أجل ذلك أيضا نرى أن المغرب لم يكن بمستعدٍّ لقبول المراسلات والمفاوضات إذا لم تكن بلسان عربي ! وليس معنى هذا أن المغرب كان غير قدير على أن يتوفر على جهازٍ للترجمة يساعده على ما يرد عليه، كما يساعده على ما يصدر منه، ولكن القضية قضية ((مبدأ)) كان يعتمده للتنويه بلغته الأُولى...

ومن هنا وجدنا أن الرسائل التي كان يرفعها المغرب إلى الدول، كانت في أكثر الأَحيان مشفوعة بترجمة اسبانية أو برتغالية وربما بالإنجليزية كذلك.... ومن هنا أيضا وجدناه يرفض الرسائل الواردة عليه من أروبا بل ومن تركيا إذا لم تكن مصحوبة بترجمة لمضمونها ومحتواها، وهكذا وجدنا سفيراً مغربيا بفرنسا يرفض عام 1777 = 1191 أن يقبل ترجمةً بالعربية لرسالة بالفرنسية من لويس الرابع عشر دون ما أن تكون موقعة من طرف وزير الحربية على ما هو الحال في الأَصل الفرنسي، حتى تكون النسخة المعتمدة هي المكتوبة باللغة العربية ! وهكذا أيضا وجدنا أن الملك محمد الثالث يأمر وزيره محمد بن أحمد الدكالي بإرجاع رسالة محررة بالتركية إلى الوزير العثماني محمد سِلاحْدَار باشا، حتى يكتبها هذا باللغة العربية، مع العلم أن البلاط الملكي بالمغرب كان، كما أشرنا، يتوفر على قلمٍ للترجمة... وقد كانت الرسالة التركية تتعلق بتهديد الأُسطول المغربي لأُسطول جمهورية (دُوبْرُڤنيك) الذي غدر ببعض الحجاج المغاربة فأنزلهم في ميناء غير الميناء الذي اتُّفق عليه «... فإن كنت، أبقاك الله إلينا ـ موجِّهاً بعدُ مسطوراً فلتجعلْ مضمونه كله تركيباً عربياً مشهوراً لنقف إذ ذاك منه على المرام ونتلقى كل ما في ضمنه بجميل الإسعاف والإكرام...» على حد تعبير العاهل في رسالته بتاريخ 24 جمادى الأُولى 1194 = 28 ـ 5 ـ 1780.

وابْرزد نِيت الدّون البِنصوتَه السّلام على كل من يقف على هذا فلما ظهر لنا تكون منبعث الجانبين يكثر لديهم البيع والشرا بين دولة بنصوتة العظيمة ودولة فرانسة الشهيرة عينا السنيور ليس بيه ابن اسم الكوندي بلون فنصول لدولتنا العظيمة بطنجة لمعرفته بذلك وسمّناه بهذا الكتاب ثم انا نطلب من الحضرة الشريفة العالية بالله ان تلقفه بالقبول وتعرف به ولاتنا ليستقيم على كل الامور والخدمة الفانونية ونشهد بذلك هذا الكتاب خُتم وطبع كما هي العادة بخط يدنا وبخط وزير الامور البرانية وفيه بدّ كتبه 30 إبناير عام 1884 ختم ابرزد نيت اخوان برتوغقوه ووزير الامور البرانية رفايل سيتشر

نعم والآن نرفع تبديل حكم بهم س
الجمهور الاتحادي بغدير التبديل المذكور الوزير للامور البرانية فاتح الحكم الجديد
على اسم العزة الثانية الان على السلطان هنالك لوزير الامور البرانية لدى حضرته
الشريفة مولى الحسن بالرسالة الصاحبة التي اطلب منكم انا ان تقصروها مقصودها
الواجب بالرفع الى عالي مقام سلطانكم خبار هذا الواقع والمطلوب معوان يتعرب
الحكم الرسمي الجديد الذي يريد يراعي مخالطات محبة مع هذه الايالة، فلما رتب
حضرته الشريفة ستساعد بهذا المطلوب والتمس منكم ان تستلم لي بالاجابة من حكم
الدولة الشريفة لكي اوجه بها الى دولة البرازيل وعلى المحبة والسلام وبتاريخ ثم بين
سنة 1890/8 الموافق 8 جمادى الاولى سنة 1307
النائب عن دولة برسيل
... انسل كلام

السوال عنكم رطب الله تكونوا بخير وعافية وبعد نجعل في علم جنابكم ان حضرة وزير الامور البرانية أخبرنا بان دول الربوبليكات الثلاثة المكسيكية والكواتمالية والارخنطينية اتفقت مع دولة إصبانية على ان النواب الصبنيولية يحمون رعيتها واغي اضعهم بهذه الايالة وعلى المحبة والسلام في 30 ابريل سنة 1890 15 رمضان 1307
المنشط المفوض لحضرة سلطان إصبانيا قرب الحضرة الشريفة
افرنسيسكو دي ابيل فيكيرة

في إطار احترام السلك الدبلوماسي للُّغة الرسمية بالبلاد : العربية نجد طـائفـة مهمـة من المراسلات المرفوعة للمخزن محررة باللسان العربي... وفي هذا الرسم نجد :

أولا : رسـالـة من الرئيس الفينـزويلي حُررت بكـاركـاس بتـاريـخ 30 ينـاير 1884 (1 ربيع الثاني 1301) يُعْرب عن الرغبَة في عقد تجـاري «بين بلاده بِنُصولـه الفخيمـة ودَولـة مراكشة السعيدة» ويقترح على الحضرة الشريفة العالية باللّه. الموافقة على اسم القنصل المعين من لدن الرئيس الفنزولي وتخبر الرسالة بأن الرئيس وضع خاتمه على هذه الرسالة، وكـذلـك وزير خارجيته.

ثانيا : خطـاب من قنصل دولـة **البرازيل** بطنجـة كُلاَص إلى النـائب السيـد محمـد بركاش، وهو يحمل تاريخ 18 جمادى الأُولى 1307 = 10 يناير 1890 يطلب إليـه أن يرفع للسلطان مولاي الحسن خبر تغيير النظام في البرازيل إلى «الحكم الجمهوري الاتحادي» وهو يلتمس من العاهل المغربي الاعتراف بالنظام الجديـد والإبقـاء على «مخـالطـات المحبـة مع هذه الإيالة»...

ثالثا : رسالة من نائب الجمهوريات الثلاثة : **المكسيك وكَواتيمالا والأرجنتين**، (وكان هو الوزير المفوض لملك اسبانيـا لـدى الحضرة الشريفـة افرانسيسكو رفـايبل فيكَيرة) إلى الحاج محمد الطريس، والرسالة بتاريخ 10 رمضان 1307 = 30 أبريل 1890 وهي تخبر نائب جلالة الملك بطنجة بأن «الربوبليكات الثلاثة : المكسيكية والكَواتيمالية والأرخنطينية اتفقت مع دولة اسبانيا على أن النواب الإسبانيين يحمون رعيتها...

ومن المعلوم أن الأمر بالنسبة إلى ولاية الجزائر وتونس - وطرابلس، وهي تابعةٌ لاسطامبول - كان على العكس من ذلك، إن المكاتيب كانت تروح جيئةً وذهاباً باللغة التركية إلى أن حلت سنة 1254 = 1838 عندما وجه أبو العباس أحمد باي السفير الرياحي بالمكاتيب العربية، رافضاً أن يجعل خاتمه إلا على ما يفهم خصائص تركيبه !!

وقد حرصت الدبلوماسية المغربية بالخارج على اعتماد اللغة العربية في مخاطباتها، وفي الكلمات التي كانت تلقيها أمام رؤساء الممالك والدول، وقد قرأنا منذ أيام المرابطين عن خطابات يوسف بن تاشفين لملك قشتالة باللغة العربية على ما أشرنا سالفاً... كما سمعنا أيام الموحدين عن السفير (ابن وزير) الذي كان يتحدث إلى المفاوض الإسباني باللغة العربية بالرغم من أنه على علم باللغة القشتالية..! وحتى في أحلك الظروف التي كانت تعيشها بعض الثغور، رأينا أن المراسلات كانت تعتمد على اللغة العربية كأصل ومرجع... وهكذا تكتظ الأرشيفات داخل المغرب وخارجه بآلاف الرسائل الموجهة من أعضاء السلك القنصلي والسياسي إلى النائب السلطاني، وكلها مكتوبة باللغة الرسمية للدولة، بالرغم مما يلاحظ على بعض الرسائل والمنشورات من أُسلوب ركيكٍ سقيم، ولقد كانوا مرغمين أمام الدولة على احترام لغة البلاد، ومن هنا نجد أن الممثليات الأجنبية في العاصمة الدبلوماسية بما فيها بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وأمريكا... كانت لا تخلو من ترجمان معد لكتاب الرسائل بالعربية...

وكما أشرنا سابقا فإن تمسك المغرب بلغته وعدم خضوعه لفرض لغة أجنبية عليه لم يكن يعني أنه عاجز عن التلقي، ولكن ذلك يعني رفضه لأن يذوب ضمن لغات أُخرى طارئة عليه.



تلتزم الاتفاقية المعقودة بين جمهورية بيزة وبين السلطان أبي عنان ملك فاس ومكناسة وسلا ومراكش وبلاد السوس وسجلماسة وبلاد القبلة وتازة وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبلد العناب وبسكرة وبلاد الزاب وبلاد افريقية وقابس وبلاد الجريد وطرابلس وطنجة وسبتة وجبل الفتح ورندة وما إلى ذلك من البلاد الغربية والشرقية والأندلسية. تلتزم بالسلام بين الجهتين فيما يتصل بالسفن البحرية سواء منها السفن التجارية أو الحربية ضمن خمسة عشر فصلا، وذلك لمدة عشرة أعوام... «ولأن يكون ذلك صحيحا ختمنا عليه بخاتمنا المعهود عنا وكتبنا عليه علامتنا التي هي بخط يدنا في يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الآخر بموافقه السابع من شهر أبريل في عام تسعة وخمس وسبعمائة.

☆ ☆ ☆

ومع هذا فقد كان المغرب ـ كما أَشرنا ـ يتوفر طوال مراحل تاريخه على هيئةٍ للترجمة تلازم البلاط انطلاقاً أولَ من تعاليم الإسلام التي تتحدث عن وجود تراجمة إلى جانب الرسول عليه السلام، وشعورا من ناحية ثانية بما لتعلم اللغات من فائدةٍ جلّى على مصلحة البلاد. وقد عرفنا أن كل لسان بإنسان على ما يقول المثل التركي : «هرْديل بير إنسان» :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الملمات أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

ولم يكن الدافع لتعلم اللغات الأُخرى فقط الغرض السياسي، ولكنه أيضا الدافع الثقافي الذي كان يحثهم على أن يترجموا مؤلفات العلماء من اللغات الأُخرى إلى العربية... ومن ثمت شاهدنا أن حركة الترجمة على العهد الموحدي كانت من أهم الحركات التي عرفتها الامبراطورية المغربية، وقد عرفنا عن عدد من أسماء الشخصيات التي كانت تهتم بالتعريب من أمثال حسن بن أبي علي، وعثمان ابن أبي بكر، وأَحمد بن تميم... ومن الطريف أن نجد أن الترجمان لا يوظف من قبل الموحدين إلا إذا زكي من قبل الجهة الأُخرى التي يتكلم لغتها، على نحو ما نعرفه اليوم من شهادات الامتحان ! هذا إلى لائحة التراجمة الذين عرفوا كذلك بأعيانهم وأسمائهم في عهد بني مرين من أمثال عبد الحق الترجماني وأبي العباس بن الكماد، ومسعود ترجمان أبي الحسن وعمر ابن العجوز على ما سنرى...

وقد علمنا عن بعض الملوك ممن كانوا أنفسهم يتكلمون لغات أجنبية من أَمثال السلطان محمد البرتغالي الذي كان يتقن اللغة البرتغالية ويشيعها في حاشيته، وأمثال السلطان عبد المالك السعدي الذي كان يتقن الإسبانية ويكتبها بسلاسة كما يتقن الإيطالية والتركية

والارمينية... إلى جانب التراجمة المتخصصين في المهنة وعددهم كثير في البلاط المغربي وفيهم من يحسن العربية من الأَجانب.... ولابد أن نذكر بهذا الصدد تشجيع البلاط السعدي للكتب التي تعالج قضايا الترجمة على نحو ما نرى في (الشذور الذهبية والقطاع الأَحمدية في اللغة التركية) المؤلّف بأمر الحكومة المغربية...

ورأينا على العهد العلوي طائفةً من السفراء الذين كانوا يقضون الشهور الطوال في البلاد الأُوربية مفاوضين محاورين، كما سمعنا عن أسماء عدد من التراجمة سواء منهم الذين تمكنوا من اللغات الأُوربية بوسائلهم وطرقهم، أو الذين درسوها في أُوربا نفسها وعادوا يعملون في جهاز الدولة، بل إننا سجلنا نطق الملوك أنفسهم بكلمات أجنبية، عندما كانوا يستقبلون بعض السفراء الأَجانب... وجميع ذلك يعبر عن إدراك الدولة لضرورة التفتح على اللغات الأُخرى والاستفادة من الخبرة الأَجنبية بالقدر الذي تدعو إليه الحاجة.... وهل نغفل أن السلطان مولاي إسماعيل اتخذ من بعض الأسرى بيرنار يوسي (Bernard Youssi) معلّما لأَبنائه للغة الإسبانية، كما وهل نغفل أن جل سفراء الدولة العلوية إلى الخارج كانوا يعرفون لغة البلاد التي اعتمدوا فيها كلا أو بعضا، وكانوا يصحبون في أكثر الأَحيان بترجمان من أجل التثبت والتأكد حتى لا تتعرض المحادثات لهفوات أو أخطاء قد تضر بمصالح البلاد على نحو ما رأينا أيام السعديين وفي العهد العلوي الأَول...

وقد كانت الإسبانية في أبرز اللغات الشائعة بالقطر المغربي تليها البرتغالية والإنجليزية علاوة على وجود عدد ممن كانوا يحسنون اللغة التركية والفرنسية والفلامنكية. وقد كنا نلاحظ في بعض الأَحيان أن الرسالة العربية المرفوعة من المغرب لدولةٍ ما تصحب بما يوضحها للتسهيل على الطرف الثاني على ما أسلفنا...

وان من طريف ما اهتمت به دار النيابة في طنجة إصدار شهادات تزكية تثبت أن المعْني «يعرف القواعد النحوية واللغة ويلم بكتب التاريخ والأَخبار والأَدب من غير فهاهة ولا لكنة» وكان الأَمر يتعلق بتراجمة أجانب مرشحين لملء مناصب تحرير في بعثات أجنبية... هذا علاوة على ما عهد في العهد الموحدي أيضا...

وإذا كان التراجمة على العموم قد أسدوا للدبلوماسية المغربية جميلاً لا ينكر... فإن بعضهم كان يقع في بعض الهفوات التي كادت تضرّ بالمصلحة على نحو ما رأينا في سفير مملكة بورنو الذي اختلف قوله عما جاء في الرسالة التي يحملها ! وعلى نحو ما رأينا بالنسبة للسفير المغربي العَوْني الذي فهم من إسماعيل أفندي غير ما كان يقصد هذا إليه فتسرع بنشر أخبار تبين للعاهل المغربي محمد الثالث أنها محض تكهّن الأَمر الذي وتّر جوّ مقام السفير التركي بديارنا..!

وهناك من جهة أُخرى لقطات مسلية لبعض ضعاف التراجمة وهم يقومون بدورهم حيث سمعنا عن أحدهم يترجم «محضر المجلس الصحي» «بمصحف مجمع العافية» ! وسمعنا عن أحدهم يحول عبارة شكر لوزير كبير : (وحيد قَرْنِه وزمانه) بأنه (Unicorne) ! هذا علاوة على المصاعب التي يجدها المستشرقون في النطق بحرف الظاء وحرف الحاء والعين والقاف، والالتباس الذي يقع عند النطق بين الحروف المتقاربة المخارج، فسمعنا عمن يبدل الهاء حاء ويبدّل القاف كافا فينطق الهَوَى حَوَى والقلْب كلبا !

ويجرنا الحديث عن لغة الرسائل الدبلوماسية إلى التاريخ الذي تعتمده تلك الرسائل... وهكذا نجد أن التاريخ المتبع ليس هو عام الفيل ولا عام وفاة النبي عليه الصلوات، ولكنه التاريخ الهجري القمري الذي

سنه الخليفة عمر بن الخطاب[2]. هو نفسه الذي ظلت الرسائل المغربية تعتمده بكل احترام فهي تختم الخطابات بتاريخ الشهور الهلالية دائما.[3] ومع هذا فقد وجدنا في بعض الرسائل ذكر الموافق بالتواريخ الشمسية إذا ما رأى الكتاب أن ذكر ذلك مما يساعد المخاطبين. ولابد أن نذكر أن المغرب كان مهتما منذ كان بالتاريخ الفلاحي نظرا لاتصاله بالحياة الزراعية، وبالخراج والزكاة على ما نراه في كتب الفقه ذاتها وهي تضبط التاريخ مثلا بطلوع الثريا فجراً... وقد كانوا يكتبون ذلك التاريخ في الغالب بالكلمات بدايةً من دار الأَحاد إلى دار العشرات إلى المئات فيقولون مثلا : «وكتب في عشرين لشهر رجب الفرد المبارك عام أَحَد وثمانين وستمائة».

إلا أن البعض منهم لم يلبث أن أخذ يؤرخ مباشرة بالأَرقام التي تعرف عالمياً باسم (الأَرقام العربية) :

(0 ـ 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 ـ 7 ـ 8 ـ 9)

ومن أقدم الرسائل التي أرخت بهذه الأَرقام العربية رسالة من السلطان أبي العباس أَحمد الوطّاسي (مؤرخة في 24 صفر 932) كانت موجهة إلى جان الثالث ملك البرتغال وذلك في الوقت الذي كانت فيه الحكومة المغربية تتلقى الرسائل من ملوك أُوربا مؤرخة بالأَرقام الرومانية الطويلة المعقدة.

وهذه (الأَرقام العربية) هي التي تحمل في المغرب اسم «قلم الغُبار» لأَن الكُتاب كانوا يذرُّون عليها الغبار الخاص من أجل تنشيفها... وقد

---

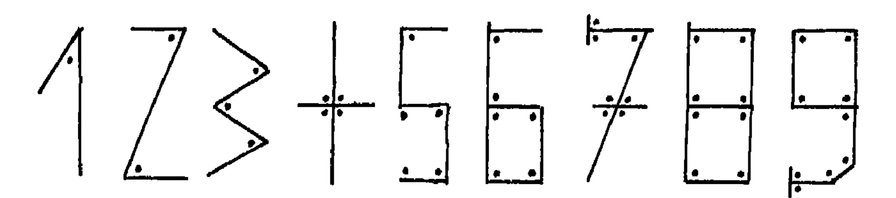
2) في مقابلة التاريخ الهجري القمري اعتمد الشيعة التاريخ الهجري الشمسي حيث يوجد فرق بين التاريخين بلغ في هذه الأَيام زهاء اثنتين وأربعين سنة... ولابد أن نذكر أن لهذا الاختلاف أُصولاً علمية تراجع في مظانها... مجلة المغرب، عدد شتنبر 1933.

3) ربما عبر عن شهر صفر بشايع عاشور، وربيع الثاني بشايع ربيع... أي تابع...

لفتت نظر سفيرنا الغزّال وهو يراها كعلامة على تحديد المسافات عند قفوله من مدريد عام 1180 = 1767 وكأنه يكتشف انتقالها من بلاد المغرب إلى أُروبا..!

ومن المعلوم أن هذه الأَرقام انتقلت من الغرب الإسلامي إلى أطراف العالم منذ تاريخ مبكر يرجع في المرحلة الأُولى لأَيام أخذ سيلفيستر الثاني العِلم من الأندلس والمغرب في القرن التاسع الميلادي على نحو ماردّدناه في تاريخ جامعة فاس : القرويين، كما يرجع في المرحلة الثانية إلى بداية العهد الموحدي عندما كان الأَجانب يختلطون بالدّيوانيين المغاربة في الموانئ المغربية على ما سنرى...

وحتى الذين تحدثوا عن أن الشكلين المشرقي والمغربي يرجعان معاً إلى أصل هندي، لم يسعهم ـ مهما كانت صياغتهم للحديث ـ أن ينكروا أن للجناح الغربي من العالم العربي فضلَ تطوير وتحوير الأَرقام على الشكل الذي تستعمله اليوم أُوربا ومن سار على دربها ـ أي إن الفضل في ذلك يرجع للذين ظل اسمهم مقترناً بتلك الأَرقام، التي يذكر أن ذلك التطوير وذلك التحوير منهم لم يكن عشوائيا ولكنه كان يرتكز على أَساس عدد الزوايا التي تحتويها الأَرقام :



وبالمناسبة نذكر ما رددته الأَوساط العلمية عن مزايا تلك (الأَرقام العربية) بمناسبة رحلة أبُّولو للقمر فقد أشادت تلك الأَوساط بالعرب الذين وضعوا تلك الأَرقام قائلين بالحرف «إنه لو اضطر العلماء الفنيون في هوستون وكيب كينيدي إلى استخدام الأَرقام الرومانية بدلاً من العربية لما تمت الرحلة» !

وهكذا نجد أن ذكر هذه (الأَرقام العربية) يكوّن نفسه تمثيلاً عربياً على مستوى عالمي رفيع لا يقل عن ذكر أمثال ابن رشد والبكري والإدريسي وابن باجه وابن زهر من الذين لا نجهل دورهم في تقديم حضارة المشرق إلى أُوربا... بل ومن الذين تعترف لهم أُروبا بكثيرٍ من الفضل في إبراز تاريخها وتصحيح معالم مدنيّتها...

☆ ☆ ☆

وقد تميَّز المغاربة عن إخوانهم المشارقة بعددٍ من المصطلحات وهكذا نجد لهم ترتيبهم في الحروف الهجائية وفي الحروف الأَبْجَدِية التي يعطونها اسم (الحمَارة الصغيرة) ! كما نجد لهم طريقتهم في جداول الضرب التي تسمّى ((الحِمَارة الكبيرة))[4] الأَمر الذي كان يثير اهتمام الأَجانب الذين يردون على المغرب في مهمات موقوتة...

وقد استعملت الوثائق المغربية أحيانا الترقيم بما يسمى القلم الرومي أَو القلم الفاسي وهو يعتمد على أشكال خاصة على ما سنرى في الفصل الذي نعنونه بالمراسلات السرية والرموز...

ولا ننسى أن نذكر هنا أن (الحروف الأَبجدية) استعملت أَحيانا لتسجيل تاريخ حدث من الأَحداث العارضة، ومعظم هذا الاستعمال يسلك في الشعر، وطريقتهم في ذلك أن لكل حرف رقمه بالتدرج من 1 إلى 10 وهو رقم حرف الياء ثم يتدرج في العقود حتى المائة (وهو حرف القاف) ثم بالمآت حتى الأَلف وهو رقم حرف الشين في كلمة ضغش،[5]

---

4) G. colin : A Propos de la multiplication chez les marocains. Hesp. 1933 T. 16 – Fas. I – II 1er 3e Tn. P, 151 – 155.

5) د. التازي : الرموز السرية في المراسلات المغربية ـ مطبعة المعارف الجديدة ـ 1403 ـ 1983 ر ص 39 تعليق 40.

الخطُّ الفاسيّ أو القلم الرّوميّ

		1	2	3	4	5	6	7	8	9
الآحاد	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العددية	1	2	3	4	5	6	7	8 ..	9
العشرات	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	10	20	30	40	50	60	70	80	90
المئين	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	100	200	300	400	500	600	700	800	900
آحاد الألوف	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	1000	2...	3...	4...	5...	6...	7...	8...	9...
عشرات الألوف	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	10000	20...	30...	40...	50...	60...	70...	80...	90...
مئات الألوف	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	100...	200...	300...	400...	500...	600...	700...	800...	900...
الكسور	الخطّ الفاسيّ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	القيمة العدديّة	1	2	3	4	5	6	7	8	9

فإذا أراد الشاعر أن يؤرخ حدثا مّا استعمل هذا الشكل من التاريخ الشعري فذكر السنة بحروف الجمّل أي إن مجموع الحروف التي يوردها في شعره بعد كلمة «أرخ» أو ما اشتق منها يُشَكّل السنة التي يقع فيها الحدث.

والتاريخ الشعري قديم، ذكره ابن دريد وردده الزمخشري واستعمله ابن الشبيب - في القرن السادس الهجري - فهو يقول في الخليفة المستنجد بالله وهو الثاني والثلاثون من العباسيين :

أصبحتَ (لب) بني العباس كلهم　　إن عددت بحروف الجمل الخلف

فدل عليه بلفظ (لب) ومجموع حرفي اللام والباء إثنان وثلاثون، وقد عالج التاريخ الشعري صلاح الدين الصفدي من شعراء القرن الثامن الهجري.

ومما سجل بهذا التاريخ - وهو كثير - تاريخ عدد من الأحداث التي تتصل بتاريخ المغرب السياسي على نحو ما نقرأ في تاريخ وفاة السلطان مولاي رشيد :

وأمَّا الرشيدُ بنُ الشريفُ إمامُهم　　فشبٌّ له نصْرٌ بمّلكٍ مكمّل(6)

Banque du MAROC : corpus des monnais ALAWITES, PAR Daniel EUSTACHE, 1984 T. II. P. 635 (6

المراسلات السرية

- الكتابة بالرموز منذ العهد العُبَيدي
- الشفرة على عهد الموحدين
- الشفرة في العهد السعدي
- درجات السرية في المراسلات المغربية على عهد العلويين.
- دليل للشفرة في بداية هذا القرن وكانت تعتمد على الأرقام
- طريقة الإبهام في تحرير الأجوبة
- التضليل في التعليمات الصادرة...
- كلمات السر....

المراسلات السرية والرموز

ولقد عرفت الديبلوماسية العالمية قواعد لكتابة الأسرار الخاصة بالدولة فيما بين الرئيس وبين مساعديه من سفراء ووزراء، وقد كانت المملكة المغربية من أقدم وأعرق الممالك التي جعلت قواعد للكتابة بالرموز أو ما يسمى بالتعمية أو الشفرة... وكانت الشفرة تختلف من دولة إلى دولة ومن ملك إلى ملك، ومن ظروف إلى ظروف ومن حال إلى حال حتى لا تكتشف الأخبار ولا تذيع الأسرار...

وقد خصص القلقشندي في (صبح الأعشى) حديثاً عن إخفاء ما في الكتب من السر في فصلٍ بالغِ الغاية من الطرافة والمتعة زوده بالرسوم واستوعب فيه سائر ما يتعلق بما كان يسمى في زمانه (القرن التاسع) بحل المُترجّم (بفتح الجيم)... سواء ما يتعلق بالمادة التي يكتب بها أو الحرف المكتوب به... ومذاهب الناس في التَّعمية متعددة بما فيها طريقة اختيار الكتابة بلغة السريان أو اليونان... وطريقة ابتكار رموز خاصة من إبدال حرف معين بآخر يقع عليه الإختيار أو وضع أشكال خاصة دالة على الحروف.

وإذا ما انتقلنا إلى موضوع استعمال الشفرة في ديار المغرب فإننا نجد أنفسنا أمام ومضات مضيئة تكشف لنا عن اهتمام الملوك المغاربة بأمر هذه المخاطبات التي كانوا يحتاجون إليها...

إن بلاد المغرب بحكم موقعها الجغرافي الذي جعلها على صلة بعدد من الممالك المطلة على حوض البحر المتوسط من جهة، وجعلها على صلة مستمرة بالمشرق وممالك افريقيا... كلٌّ ذلك دفعها لإحكام أسس إنشاء الدولة... وفي صدر هذه الأسس تنظيم الاتصالات وإتقان طريقة المخاطبات بين الإدارة المركزية وسائر ممثليها في أطراف البلاد...

وجدير بالذكر أن الحكام المغاربة لم يكن ليغيب عن ذهنهم أن بلادهم - وموقعها على ما عرفنا - مغبوطة بل محسودة وأنها نتيجة لذلك ستكون مقصداً للجواسيس الذين يلتقطون الأخبار ويتتبعون الهنات...

ولا بد أننا شعرنا منذ ظهور الدولة الأولى في المغرب : دولة الأدارسة بما جدّ على الساحة المغربية من مؤامرات مدبرة ضد الملوك الأدارسة من أقصى البقاع... بل وما تبع ذلك من صراع مستمر بين دولة العُبَيديين في افريقية وبين دولة الأمويين في الأندلس من أجل الاستيلاء على أطراف المغرب والإجهاز على الدولة الفتية...

كل هذا كان حافزاً على أن يفكر الحكام في ابتكار وسائل لهم خاصة للمخاطبات لا تدخل في إطار المخاطبات المعتادة، كما كان حافزاً، في المقابل، لخصومهم على أن ينصبوا «كتبة مناصحين» لهم يساعدونهم على كشف المعميات ويبتكرون لهم بدورهم مناهج أخرى للمراسلات...

وإذا كانت المصادر التاريخية ما تزال تخذلنا في الوقوف على نماذج مفصلة من تلك الأساليب فلأن طبيعة الموضوع ذاتها كانت تقتضي الكتمان ما أمكن، فقد كنت أتصور أن كل ملك كان يتخذ له طريقته الخاصة به، تختفي باختفائه، بل ربما كانت لكل حالة مفتاحها الذي يختار لها يُحرق بمجرد انتهاء الحاجة له ولا يكتفي بتمزيقه

خشية أن يتعلق غرض المتربصين بتلفيقه... ومن هنا كان شعار كتاب الدولة هكذا : «حرقْ ولا تمزق فإن العدو قد يلفق»..

ومع كل هذا فلا تخلو مصادر التاريخ المغربي من إشارات تكشف عن اعتماد الملوك المغاربة أحيانا على لغتهم الخاصة ونحوهم الخاص !.

وقد قرأنا للقاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات : «أنه لما أزمع القائم بأمر الله (332 ـ 334 = 934 ـ 946) على الخروج أيام الصراع العُبَيدي الأموي على ديار المغرب، جمع أولاده وعلمهم كيف يمكنهم أن يفهموا ما يرد عليهم من مراسلات، وقال لهم من جملة ما قال :

«وهذا قَلَم يتوارثه الأيمة يكتبون به أسرارهم وبيانه وشرحه يكون عندكم، فما كتب إليكم عرفتموه، وما أردتم ستره كاتبتموني به»».

فأين «البيان» وأين «الشرح» الذي يتعلق بذلك «القلم المتوارث» ؟ لا شك أنه تعرض للمصير الذي أشرنا إليه حتى لا يقع في يد الذين يستفيدون منه لأغراض سياسية...

ومن المعلوم أن حكم العُبَيديين وصل منذ تاريخ 307 = 919 ـ 920 إلى قلب مدينة فاس حيث تركوا لهم في جامعها الأعظم (القَرويين) بصمات لم ينسها التاريخ كان في صدرها المنبر الذي ترفع عليه كلمة الدولة الحاكمة.

ولا شكّ أن هناك في مقابلة «بيان وشرح» هؤلاء (بياناتٍ وشروحاً للآخرين). إن حرب المخاطبة بالإشارات ليست وليدة اليوم...

وتتحدث المصادر القديمة عن أن الأسقف جيربير الذي أصبح سيلفستر الثاني ـ والذي كما يقال ـ كان ممن رحلوا إلى فاس ونقلوا عن المغرب الأرقام التي تسميها الموسوعات العالمية (الأرقام العربية)

ونسميها الأرقام الغبارية... كان هذا الأسقف يحتفظ بمذكرات (شفرية) كتبت بحروف خاصة.

وإذا ما عرفنا عن سَعة الرقعة التي كان يهيمن عليها المرابطون وإذا عرفنا عن الوجود المرابطي في جنوب أروبا واختلاطهم بعدد كبير من الصقالبة الذين انضموا للجيش بل وعرفنا عن توغلهم في تخوم القارة الافريقية وعن اتصالاتهم ببلاط العباسيين في بغداد، أدركنا الحاجة إلى مثل هذا النوع من المخاطبات فيما بين القيادة وبين القواد...

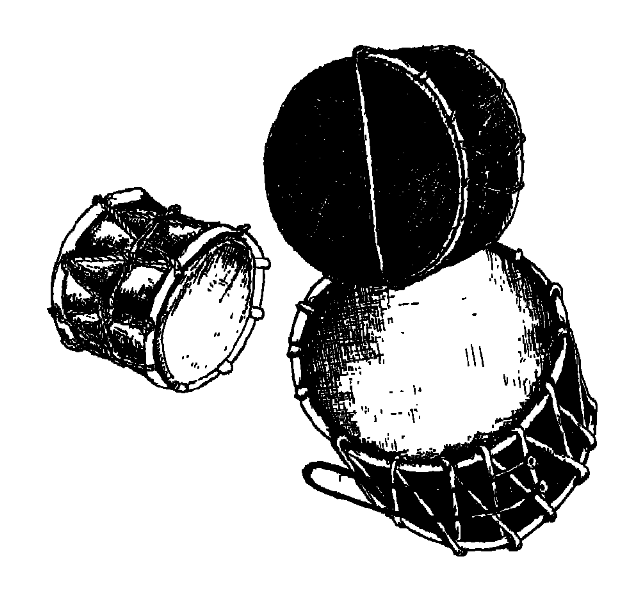
لقد قرأنا عن المراسلات المتوالية بين المرابطين والعباسيين الأمر الذي دعا الأمير عليّ بن يوسف ابن تاشفين إلى دعوة مالك بن وهيب لتنظيم ندوة حول إمكانية توحيد مداخل الشهور والأعوام..!

ولا بُدّ أن يكون إلى جانب تلك الإتّصالات المعروفة اتصالات أخرى تعتمد على الطرق الأخرى.

وقد كان من أطرف أشكال الاتصال الّلا كتابي ما دأبت على تناقله المصادر المغربية حول استعمال الطبول كوسيلة من وسائل الإعلام الخاص منذ عام 454 = 1062.

وهكذا وجدنا أن الطبول بمقاييسها وأحجامها وبالدلالات الخاصة لنقراتها ونبراتها كانت تترجم عن شكل آخر من أشكال المخاطبات السّرية لا تقل عن المخاطبات المفتوحة بما تتوفر عليه من ضبط وإحكام كانا يقومان مقام النحو والصرف في الرسائل المكتوبة !.

فهناك النقرة المنفردة، والنقرات الثلاث المتوالية المتبوعة بنقرات مثلها متوالية تفيد جميعها إشارة معينة على نحو ما يؤديه



بين القرع على الطبول والنفخ في القُرُون !

بينما يلاحظ من خلال الوثائق العربية أن الوسيلة المستعملة لإبلاغ التعليمات للكتائب العسكرية هي الضرب على الطبول، نجد الوثائق المسيحية تذكر أن الوسيلة لدى الطرف الآخر هي ألنفخ في الصور والمزمار..

مذكرات الأمير عبد الله بن بُلُكين ص 104

«المُورْس» اليوم... لقد سمعتُ الكثير حول هذا الموضوع من شيوخ عارفين في تخوم الجنوب المغربي.

وهناك النقرة التي تدعو للنفير... والنقرة التي تأذن بالإستراحة... والتي تأذن بالحذر والإستعداد إلى آخر ما يتحدث به العارفون.

وقد تميز عهد الموحدين منذ البداية بظهور بعض الإشارات التي تؤكد وجود مثل هذه الطرق لتعمية الرسائل والخطابات، وهكذا نجد أحد كتاب المهدي ابن تومرت، وكان يحمل إسم ملول بن ابراهيم ابن يحيى الصنهاجي معروفاً بإطلاعه على الألسن، وكان يكتب بالسريانية والرُّموزيات وغير ذلك على حد تعبير البيذق، وهي ظاهرة تدلّ على أن الدولة الموحدية كانت تستعمل التركيب السري في شؤونها مما لا تريد الإطلاع عليه من قبل الآخرين...

وكلنا يعرف عن التنافس المستعر الذي أمسى بين بغداد ومراكش بعد أن تقلد الموحدون الحكم عوض المرابطين.. فقد أصبح العباسيون ـ نتيجةً لذلك ـ يتوفرون على آذان مرهفة لما يجري في مراكش بعد أن سحبت هذه اعترافها ببلاط بني العباس، هنا نشطت بدون شك حركة الجواسيس ولجأ الكتاب إلى اختراع أقلام خاصة من السريانيات والرموزيات وإن لم نتوّفر عليها تفصيلاً لكنها بادية من خلال ما نقرأه من صراع حاد بين بلاط المغرب وبلاط المشرق...

وهكذا فإن «التعامل المكتوم» كان أوسع دائرة مما نعتقد، وإنه لهذا السبب نعزو ـ نحن المغاربة ـ عدم الإعلان عن حجم المساعدات التي قدمها الخليفة المنصور الموحدي إلى السلطان صلاح الدين لما استنجد هذا بالأول بواسطة السفارة التي كان يرأسها الأمير ابن منقذ، إنّ

جمهوريات الحوض المتوسط التي كانت تربطها اتفاقيات مع المغرب، كانت تتبَّعُ حركات الأُسطول المغربي.

ولهذا فقد ظلت المصادر صامتة باستثناء بعض المؤلفات المغربية والمؤلفات المكتوبة باللغة التركية على ما سنرى...

وفي إطار الحديث بالألغاز والرموز نجد في توقيعات الملوك الموحدين ما يعبر عن سعة خيال وقوة تفكير، فقد كانوا يعبرون عن الكلام الطويل العريض بكلمة أشبه ما تكون ببرقية مختصرة : وكلنا يعرف جواب يعقوب المنصور عندما كتب إليه ألفونس في كتابه الشهير يستدعيه فيه للقتال، لقد اقتصر جواب المنصور على هذه الكلمة : «الجواب ما ترى لا ما تسمع».

ومن دون شك فقد سلك بنو مرين طريق أسلافهم أيضا في هذا الموضوع ولو أننا لا نتوفر إلى الآن على «السريانية» المتبعة في مثل هذه المخاطبات.

ومع ذلك فإن تخصيص المؤرخين الفصول الطويلة للحديث عن جهاز الكتابة في العهد المريني، يدل على أن الفروع المتعددة لهذا الجهاز كثرت حتى لسجلت أسماء عدد كبير من ألمع الكتاب من أمثال أبي محمد عبد المهيمن ابن الإمام القاضي أبي عبد الله الحضرمي صاحب العلامة وكاتب السر وإمام الكتبة الذي عوضه الفقيه أبو القاسم ابن رضوان قبل أن يتولى ذلك أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الله ابن الحاج النميري صاحب فيض العباب، والكاتب التعاليمي أبى العباس أحمد بن شعيب الذي كان إماما في التعاليم وواحداً في المعرفة بالأشجار والنبات.

لقد خصص ابن مرزوق في كتابه (المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن) باباً بكامله لخطة الكتابة على هذا العهد...

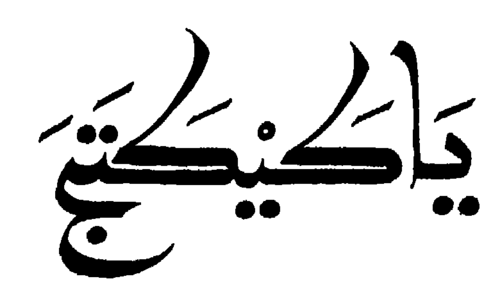
ومن المهم أن نجد ابن مرزوق يتعمد في الفصل الأول من هذا الباب أن يذكر أن في صدر الكتاب الذين اشتغلوا مع النبي ﷺ زيدا بن ثابت الذي كان أمره ﷺ أن يتعلم اللغة السريانية ليجيب من كتب إليه بها...

إن تلك المجموعة من الكتاب لا يمكن أن تقتصر مهمتها على كتابة العلامة التقليدية : «وكتب في التاريخ المؤرخ به» ولكنها تتجاوز ذلك إلى ابتكار طرق خاصة للخطاب السري على نحو ما كان شائعا وذائعا في ذلك العهد ولو أن ابن خلدون ظل حول هذا الموضوع شحيحاً على عكس زميله القلقشندي...

إن الكتابات بالرموز والأشكال تظلّ جانبا من جوانب ديوان الكتابة في دولة كل ملك من ملوك المغرب، تتنوع وتزدهر وتتغير كذلك، حسب الأشخاص والظروف... وإذا لم يحتفظ لنا التاريخ ببعض آثارها فإن مرد ذلك للقلاقل وظروف الاضطراب...

ومما يدل على الإهتمام بتلك «التعميات» ما نلاحظه في العادة المغربية من التفرغ للتفاهم والتوسل أحيانا بحروف مركبة تكون أقرب إلى «الطلاسم» منها إلى كلمات ذات معنى.

وقد اعتاد المثقفون المغاربة على أن يعثروا في المخطوطات القديمة على كلمة : «يا كيكتج» : ترسم في أول المخطوط وفي آخره كتعويذةٍ أو تحويطة حتى لا تصل الأرضة إلى تلك المخطوطات ولا يسطو عليها السوس..!



وقد رأينا أن بعض هواة ركوب الخيل يعمدون بدورهم إلى وشم جيادهم بأختام تحتوي على بعض الكلمات الرموزية مما تحدث عنه الناصري في كتابه «كامل الصناعتين : البيطرة والزرْدقة».

وهذه نماذج من الطلاسيم الأَربعة التي قد تنقش على قوائم الفرش :

أغطَش ـ أغطُوش ـ أغِطاش ـ أغطِيش
قَلَشٍ ـ قَلَشِيش ـ لَقْلَشِيش ـ قُلُقْلُقْشِيش
هَارِش ـ أرِش ـ كلْموش ـ لاَلاَيُوش.

ولا بد أن أشير هنا لما أثر عن «الخط الزناتي» وأفاعيله على نحو ما ذكر الشريف الإدريسي في (نزهة المشتاق).

ولقد صدر عام 1526م وبالذات في عهد الامبراطور شارلكان قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية ولكنه لم ينفذ بالصرامة القاسية إلا عندما خلف الملك فيليب الثاني والدَه شارلكان عام 1566م حيث ظهر قانون يُمنح الموريسكون بمقتضاه مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية حتى لا يتفاهم بغيرها فيما بعد..!!

هنا أخذ المستضعفون يسجلون آثارهم سرّاً، ونَشأ عن هذا ابتكار لغة جديدة كانت مزيجا من القشتالية وبعض الكلمات العربية والألفاظ الأعجمية الأخرى، وقد حملت هذه اللغة الموريسكية إسم ألخاميادو (AL JA-MIADAU) وهو تحريف لكلمة (الأعجمية) حيث لبثت سرّاً بعد نفْي الموريسكيين عام 1609 إلى أن اكتشفت من لدن بعض العلماء الاسبان ضمن وثائق محاكم التحقيق، وأصبحت محل دراسة.

وعندما ظهرت الدولة السعدية على منصة الحكم في البلاد عرفت هي الأخرى طريقتها الخاصة بها في الخطاب السري إلى جانب الخطابات المفتوحة.

وهكذا فقد أسعفتنا المصادر التاريخية بنصوص مطرفة في هذا الباب، وكشفت عن أن الشفرة المخترعة لم تكن واحدة، ولكنها كانت أشكالاً وضروباً، فهناك منها ما يختص بولي عهد المملكة، وفيها ما يختص بالقيادة العليا وفيها ما يستعمل مع السلك الدبلوماسي، وفيها ما كان يستخدم مع العمال على الأقاليم.

ولم تكن (الشفرة السعدية) متأثرة باستعمال تركي أو غيره ولكنها كانت من ابتكار سيد البلاد نفسه...

وسنورد هنا نص ما كتبه الوزير عبد العزيز الفشتالي في كتابه (مناهل الصفا) مما رددته سائر الكتب والمؤلفات التي اهتمت بتاريخ السعديين... قال :

«ولقد بلغ الإغراق به في مذاهب الحزم إلى أن اخترع لهذا العهد أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من أسراره، ومهمات أموره وأخباره، يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ممتنعاً مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه إلى فتح شيء من معاني الكتاب، ولا الوصول إلى فهم سر من أسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أو ضاع أو وقع في يد عدو لاستؤمنت غوائل الاطلاع على أسراره فكان في ذلك آية أعجز بها الورى».

«ثم نُوِّعَ - يتابع الفشتالي - هذا الخط إلى أنواع يختص ولي عهده منها بنوع يرجع إليه في فك معمى كتبه. ثم إذا جهز أحداً بالعساكر إلى جهة أو بعثه في غرض رسالة أو قلده جانبا من أطراف ممالكه وثغوره وناوله خطا من تلك الخطوط يفك به رسائله إليه، ويكتب به هو من

عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار، فختم بذلك أيده الله على أسراره ختاما لا يفض بحدس، ولا يدرك بمعنى ولا حسّ، ولا يرسم حده بنوع ولا جنس، وصارت هذه المنقبة من أعظم آثاره في الحزم وحسن الضبط، ومن أشد أعوانه على الاضطلاع بأعباء سلطانه وشد أواخي ملكه وأجناده، وضبط أمور رعيته وبلاده... أمتع الله به الإسلام وخلد أمره مع الأيام..».

ونحو هذا منقول في (نزهة الحادي) وفي معظم المؤلفات اللاحقة.. وقد نسبت الكتابة بالرموز على هذا العهد أيضا إلى الكاتب عبد الواحد ابن مسعود عنون، رئيس البعثة الديبلوماسية التي كانت تتألف أيضا من الماسي والحاج ميمون والترجمان عبد الله بودار... حمّلها السلطان أحمد المنصور الذهبي رسالة سرية إلى الملكة إليزابيث الأولى عام 1008 = 1600.

وهكذا فحسب الوثائق التي أوردها الكونط دوكاستري في موسوعته «مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب» المجلد الثاني (قسم انجلترا ـ السعديين) فإن الاتصالات كانت جاريةً بين المغرب وانجلترا للتخطيط لانتزاع الممتلكات الاسبانية في الهند الشرقية (الفيليبين وما والاها) والهند الغربية (أمريكا الّلاتينية).

لقد توجهت انجلترا ـ وهي على خبرة تامة بمقدرة المغرب على خوض غمار البحار وعلى معرفة تامة من شهامة الجندي المغربي وقدرته على التحمل ـ توجهت للخليفة المنصور من أجل مساعدتها على كسب موضع قدم هناك في مقابلة عروض مغرية كان في أبرزها مساعدة المغاربة على استرجاع سبتة ومليلية...

لقد شاطر المنصور السعدي الملكة إلزابيث رأيها مخبراً إياها بأنه يتوفر على كل المعدات اللازمة التي تمكن الدولتين معا من إضعاف إسبانيا وانتزاع ممتلكاتها في القارتين : الهندية والأمريكية ويؤكد لها أنه فتح مملكة قوية (سُنغاي) تحتوي على ست وثمانين ألف قرية وأن الجنود المغاربة في استطاعتهم أن يتحملوا المناخ الصعب...

ولقد أوقف السنيور سيرديرا (CERDEIRA) زميله جورج كولان على مخطوطة تحتوي على ما يلي :

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد

كتابة الفقيه عبد الواحد بن مسعود عنون.

وجدت في براءة بخطه رمز فيها بأخبار لمولانا أبي العباس أحمد المنصور المعروف عند بعضهم بالذهبي عن (أخبار) سلطانة النصارى دمرهم الله ببلاد الاندريس (Londres) في عام تسع وألف. وبقيت من حين وقوعها في يدي أتأمل في أشكالها زماناً بعد زمان وأتفاوض مع من وجدته أهلاً لذلك من الأخوة، فلم أر من فهم شيئا منها ولا تقدم معرفة بها إلى أن مضى من الزمان نحو الخمس عشرة سنة أو أكثر، وفتح الله سبحانه عليّ في فهمها من غير معلم فعرفتها من أولها إلى آخرها فإذا هي أشكال على ترتيب أبجد كما ترى ولا... إلا ثلاثة حروف كمل خبره المرموز دونها فرأيت أن أبقيها عن أصلها العربي مع بعض الخفاء أخفيتها به وهي الجيم والضاد والثاء المثلثة. وهذه صورة الجميع :

✡ ○ ✡

الحمد لله   وصلى الله على سيدنا محمد

كتابة الفقيه عبد الواحد بن مسعود عنون
وجدت في براءة بخطه رمز فيها باخبار لمولانا
ابي العباس احمد المنصور المعروف عند
بعضهم بالذهبي عن سلطانة النصارى
رحمه الله ببلاده كانت ربيس في عام تسع
والف وبقيت من حينئذ وقوعها في يدي اتامل
في اشكالها زمانا بعد زمان اتفقد وضع
رموزها مع اهل الذكاء من الاخوان فلم ارى من فهم شيء
منها ولا تعرف معرفة بها الى ان مضى من الزمان نحو الخمس
عشر سنة او اكثر وفتح الله سبحانه علي في فهمها من غير معلم
يعرفها من اولها الى اخرها فاذا هي اشكال على
ترتيب ابجد كما ترى ولا يبقى له ثلاث احروف
تكمل خمسة المهموز [illegible] فرايت ان ابقيها على اصلها
العربي مع بعض الخفاء اخفيتها به وهي الجيم
والضاد والثاء المثلثة وصفنا صورة الجميع

وهكذا نجد أن مخطوطة سيرديرا تقدم لنا بعض المعلومات الثمينة فهي تؤكد وجود المخاطبات السرية على عهد المنصور السعدي، كما أنها من جهة أخرى تجعل للسفير عبد الواحد عنون نصيباً في استعمال هذه المخاطبات ولو أنه على كل حال نصيب يرجع الفضل فيه للسلطان أحمد المنصور... وأخيراً فإن الوثيقة ـ وهذا مهم ـ تقدم إلينا شكل وقيمة العلامات المستعملة لتعمية الخطابات السرية...

وعلى هامش سفارة عنون نذكر حقيقةً أخرى لها صلة بالسريّة التي كانت تطبع الدبلوماسية المغربية :

لقد نجح السلطان أحمد المنصور الذهبي آنذاك في أن يضلّل الرأي العام الدولي بالرغم من عصابات الجواسيس وخاصة من اسبانيا التي كانت تتلقط الأخبار داخل المغرب وخارجه.

لقد أشاع السلطان المنصور الذهبي أنه بعث سفيره عنون إلى ميناء الاسكندرونة في حلب : الشام، للحصول على تشكيلة من الأحجار الكريمة ! وأن البعثة إنما اتخذت طريقها عبر انجلترا لتحصل على مساعدة الملكة إليزابيت بتيسير المركب المناسب لتحقيق هذه الرغبة !.

فعلاً حررت رسالة أولى من المنصور إلى الملكة بتاريخ 12 رمضان 1008 = 27 مارس 1600.

«...والذي أوجب لمكانك المكين أنه سيرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريم، الذين وجهناهم إلى حلب لقضاء بعض مئاربنا..».

وبعد مفاوضات تمهيدية في مراكش بين الدولة وبين ممثل انجلترا حررت رسالة أخرى بتاريخ 3 ذي الحجة 1008 = 25 يونيو 1600.

وقد بعث ديمارشينا (Démarchéna) السفير الاسباني بالمغرب يخبر مملكته بتاريخ أول شتنبر 1600 بأن العاهل المغربي بعث سفيراً مغربياً إلى الشام عبر لندن لشراء اللؤلؤ..!

لقد أبلغ الدبلوماسيون المغاربة وبصفة بالغة السرية النوايا الحقيقية لملك المغرب حسبما تكشف عنه المذكرة التي أعدتها الحكومة الانجليزية في هذا الصدد بتاريخ 23 شتنبر 1600.

وحسب المصادر التاريخية فإن السفير عنون ظل يكاتب المنصور السعدي طيلة الشهور التي قضاها في لندن، وظل يحرر مذكراته حول مهمته، ليس عن طريق الأسلوب المعتاد المقروء ولكن بواسطة «الأشكال السرية».

ومن الطريف أن نجد ملكة انجلترا تتجاوب مع ملك المغرب حول تعتيم أخبار هذه السفارة الخطيرة، وهكذا وجدناها «تعتذر» إلى المنصور كتابة عن عدم تمكنها من تزويد سفيره بالمركب نظراً لموانع خطيرة على حد تعبير الرسالة.

وأطرف من هذا أن نجد المنصور - بعد عودة سفارته إلى المغرب - يجيب إليزابيت بخطاب خاص بتاريخ 23 شعبان 1009 = 27 يبراير 1661 يعرب فيه عن شكره للاستقبال الذي خصص لسفيره، بل ويقبل «العذر» الذي أدلت به جلالة الملكة..!



وقد استعملت الدولة العلوية منذ ظهورها الأشكال السرية لتنفيذ خططها ومناهجها.

وهكذا نجد رسالة من الحاكم التركي أحمد عصمان باشا بالجزائر إلى السلطان سيدي محمد بن مولاي الشريف (محمد الأول) تشير إلى اعتماد

العاهل المغربي على مثل تلك الرموز التي لا تختلف - في نظر الحاكم التركي - عن تأليف البوني...

وإذا عرفنا أن الباعث على إهمال المغاربة لكتابة تاريخهم يرجع - في نظر بعض المؤلفين - إلى عدم رضاهم على نبش أخبار الناس، فإن هذا الباعث يقوى ويزداد وضوحاً عندما نجدهم أي المغاربة يهملون الاحتفاظ بالأخبار ذات الطابع الذي يعتبر بذاته غير قابل للاشاعة..

وهكذا فبالرغم من أننا نلاحظ في بعض المراسلات الحكومية مؤشرات تلك المخاطبات السرية إلا أننا للسبب الذي أسلفنا لم نقف على مفاتيح تركيب تلك المخاطبات وخاصة في العهد الأول من الدولة العلوية...

وقد كنا نلاحظ أثناء استعراضنا لبعض الرسائل المخزنية ما ينصُّ على طابع السرية بل ودرجتها كذلك : سري - سري للغاية...

ولا حظنا هذا بالنسبة لفصول بعض المعاهدات التي اتفق على أن تبقى سرية بين الدولتين... هذا إلى مَا دأب المغاربة على استعماله مما يدخل في إطار «التعميات» من رسم الأرقام القديمة[1] وذلك عند قسمة الميراث أو في بعض حجج الوقف المعروفة في المغرب تحت اسم «الحوالات الحبسية»، أو حتّى في بعض القطع النقدية المغربية.

لقد ابتكروا هذه الأرقام واستعملوها لهدفين اثنين : أولا الاختصار بحيث يمكن تقليص مساحة الورق لاجمال ما تحصّل في شكل أو شكلين عن نحن ما نجده اليوم في السطينوغرافي (Stynographie) ثانيا : تعمد تعمية الأسرار على العامة في الميراث.

---

1) G.S. Colin : Chiffres de Fès, J. Asiatique. Av – Juin 1933.

1207 — 20

1207 — 19

1200 — 3

1207 — 2

1202 — 23

الحمد لله نسخة من كتاب شريف مولوي منيف معلم على طرته بخط يد سيدنا
المباركة بحروف الغبار ما هو أعلاه داخله الطابع الشريف بعد اسم الله ولا
حول ولا قوة إلا بالله داير به ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد
في آجامها تجم داخله محمد بن عبد الله بن اسماعيل الله وليه ومولاه نص
الكتاب الشريف

إلى كافة القنصوات بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى أما بعد
فاعلموا أن جميع أجناس النصارى كل من هو صلح مع السلطان العثماني
فهو صلح معنا وكل من هو كنيرا معه فهو كنيرا معنا واليوم الذي عقد فيه
الصلح مع السلطان العثماني فقد عقده معنا واليوم الذي عقد الكنيرا مع
السلطان العثماني نصره الله فقد عقدها معنا ونامركم أن تعلموا
بهذا جميع أجناس النصارى والسلام

من العلامات التي كان يتّخذها السلطان سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) ليرمز بها لمصادقته على مضمون البلاغات والخطابات والأوامر الهامة أنه يرسم على رأس الكتاب بخط يده وبالحروف الغُبارية : أي الأَرقام التي تنعتها الموسوعات العالمية بالعربية، يرسم ما يُعيّن السنة الهجرية وتاريخ الشّهر الذي حرر فيه البلاغ أو الخطاب أو الأمر، ولكن من غير أن يعين اسم الشّهر الذي يبقى مكانه غُفلاً.. وقد احتفظت الأَرشيفات الأَجنبية بعددٍ من هذه الوثائق التي تتمثل فيها هذه الظاهرة.

وهذه صورة من بلاغٍ وزع على كافة القناصل بثغر طنجة يؤكد فيه العاهل المغربي الموقف الذي كان اتّخذه جدّه إسماعيل إزاء الأَتراك :

«إن الدول التي توجد في حالة صلحٍ مع السلطان العثماني هي في حالة صلحٍ مع ملك المغرب، وبالعكس فإن على الدول التي توجد في حالة حرب مع السلطان العثماني أن تعتبر نفسها في حالة حرب مع المغرب» «ونأمركم أن تَعلموا بهذا جميع أجناس النصارى»..

وقد حمل هذا الخط اسم «الخط الفاسي» لأنه كاد يكون استعماله مقتصرا على هذه المنطقة وما اتصل بها في المغرب وليس القصد إلى أن أهل فاس هم الذين اخترعوه، فلقد استعاروه كما قلنا من الكتابات الإغريقية القديمة.

وعلى نحو ما جرى في بعض الرسائل من الإشارة لبيت للطغرائي المتعلق بمعنى بعيد، وجدنا بعض الرسائل في عهد العلويين تحتوي على بعض الإشارات لبيت شعري ذائع مثلما وجدنا في رسالة أمين الأُمناء التازي إلى الأَمين الطريس بتاريخ 6 شوال 1294 = 14 ـ أكتوبر 1877 يشير له فيها لبيت الطغرائي :

قد رشحوك لأمرٍ لو فطنت له ☆ فاربأْ بنفسك أن ترعى مع الهمل !

ومما ينتظم في سلك الأمور السرية والرموز المغلقة أن نجد الجواب عن الرسائل يحيل في معظم الحالات على عناصر الرسالة من غير أن يفصح الجواب عن مضمون الرسالة، ويعطي تعليمات هي أيضا من قبيل المعميات بالنسبة لمن لم يمارس الحديث منذ البداية.

وعلى نحو ما قرأناه عن الظروف التي تمت فيها سفارة عنون أيام دولة السعديين، قرأنا أيام الدولة العلوية عن إحاطة وجهة السفارة بسياج سميك من الكتمان : «وليكن ذلك على وجه السر والكتمان بحيث لا يعلم أحد بتوجه السفير، ولا بالمحل الذي توجه إليه» على نحو ما نرى في التعليمات الصادرة إلى النائب السلطاني في طنجة.

وقد قرأنا في أيام الدولة العلوية عن رسائل تتحدث عما «أخبر به السفير دولته سرّاً حول ما تكلمنا به مع النائب سرّاً مما أخبر به السلطان سرّاً».

كما يندرج في باب المخاطبات والرموزيات ما عرفناه من «كلمات السر» التي كان يتفق عليها في بعض الأحيان على نحو ما رأينا في

اتخاذ كلمة «سالم» كرمز سري في بعض المعارك المغربية ضد التمرد، وقد كان لفظ «الغلاء» أحيانا دليلا على خذْ حذرك وكلمة «الرخاء» دليلا على العدل والاطمئنان.

☆ ☆ ☆

ولقد احتفظت المكتبات الخاصة بضابط للشفرة التي كانت مستعملة بالمغرب أواخر القرن الماضي وفي مطلع القرن العشرين مما يدل على أن المغرب ظل إلى الفترة الأخيرة مصرّاً على الاحتفاظ بمقوماته كدولة عريقة... وقد كشف هذا «الضابط» في المقدمة، عن أهمية الكلام بالأرقام وأعطى لكل حرف من الحروف الهجائية رقما من الأرقام، فالألف يرسم بدله رقم 20 والباء رقم 21 إلخ... كما أنه جعل لأيام الأسبوع وللشهور أرقاماً معينة...

وقد رمز الضابط للعاهل برقم (55)، وأعطى لكل أعضاء الأسرة المالكة وأصهار صاحب الجلالة كذلك رقماً خاصّاً، كما أعطى لوزير الخارجية ووزير المالية رقماً معيناً لكل واحد، فللأول رقم 85 وللثاني رقم 150 إلخ... وهكذا كان الحال بالنسبة للقضاة والنظار والقواد...

وقد أخذ أعضاء «النيابة» بطنجة كذلك أرقاما خاصة فالنائب مثلا يعرف في الشفرة تحت رقم 86 وهكذا بقية الموظفين.

وإذا ما انتقلنا إلى مراتب الجيش نجد البدء برئيس الحدود الصحراوية الذي يحمل رقم 101، ومن الطريف أن نجد الضابط يعطى حرف الطاء باللاتينية T للخونة وكأنه من كلمة (Traitre)، وكل صنف من أصناف المواد الغذائية يحمل رقما على حدة...

وقد اهتم الضابط أيضا بتخصيص أرقام لكل ثغور المغرب بما فيها إقليم وادي الذهب وبوجدور وطرفاية، وبما فيها سبتة ومليلية ومغنية كما أنه خصص للمدن الداخلية أرقاما معينة... ثم ينتقل الضابط لاعطاء

الأرقام التي ترمز للمدن الافريقية وممالك أسيا وعواصمها وممالك أوربا كذلك وممالك أمريكا... من كل الجهات التي كان للمغرب صلة بها.

ويهتم الضابط بإعطاء إشارات للرتب السياسية والدبلوماسية والقنصلية، فالوزير رقم 401 والسفير رقم 402 والقنصل العام 404 الخ، كما يهتم بإعطاء أرقام لقطع الأسطول البخارية ولبعض الدور التجارية التي لها علاقة بالحكومة المغربية...

وعلى نمط «الكود» المستعمل حالياً لدى الدول المعاصرة عندما تختصر جملة متداولة في ثلاثة أحرف مثلا : وعندما تقول عوض «لي الشرف أن أخبركم» بـ هكذا : (HFIN) نجد «الضابط» يُختم بوضع شبه قاموس صغير يثبت فيه بعض الجمل الفعلية والإسمية المستعملة بكثرة مرتِباً إياها على الحروف الهجائية من الألف إلى الياء... فمثلاً جملة : (أخبرنا) تؤدي برقم 450... و(بايع) تؤدي برقم 500 وجملة (يكون الوصول في) برقم 835...

وهكذا كان سلوك «الضابط» في الجمل الإسمية : (العمل على ما تقدم لكم) يؤدى برقم : 860 ـ وكلمة : (فلا تقربْه ولا تطلب منه شيئا) تؤدى برقم : 980.

وقد أثبت (الضابط) في صفحته الأخيرة قاعدةً أخرى كأنها كانت لتكميل التعمية وهي تجعل أمام كل حرف عربي حرفاً بالرومية، ولما كانت حروف العربية تزيد على الرومية فقد عوض عن الناقص برقم، مثلاً إذا أريدت كتابة حرف الألف جعل عوضه حرف 0، وحرف الباء = A وحرف النون رقم 5 الخ... على ما فَصَّلْنَاه في الكتاب الذي نشرناه بعنوان : «الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ».[2]

---

2) د. التازي : الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1403 ـ 1983.

ورود السفارات ومراسيم الاستقبال

- □ أسباب ورود المبعوثين ـ رسائل الاعتماد ـ التأشيرة
- □ استقبال السفراء في العهود القديمة
- □ فتوى ابن القطان للناصر الموحدي ـ فتوى قاضي بغداد ـ إظهار القوة والأبّهة
- □ حديث السفراء الأجانب عن حفلات تقديم أوراق الاعتماد ـ في قصر البديع
- □ في مكناس ـ رسوم ولوحات بمناسبة زيارة البعثات الأجنبية
- □ استقبال السفراء في العهود الأخيرة ـ دُور الضيافة
- □ أمكنة الاستقبالات ـ تشريفات الاستقبال ـ وضع الترجمان ـ الاتصالات الجانبية
- □ توديع السفير ـ صدى التعامل المغربي لدى المنصفين ـ اللاجئون السياسيون من العجم والعرب...

ورود السّفارات ومراسيم الاستقبال

والحديث عن السفراء والمبعوثين الأجانب يستدعي منا معرفة أسباب ورودهم...

وهكذا نجد أن هؤلاء الموفدين كانوا يأتون إلى المملكة تارة بدافع من مبادرة تتخذها الدول المعنية لضرورة تقتضيها مصالحها أو لمجاملة تحتّمها ظروفها على نحو ما نرى في العهد المرابطي والموحدي فما بعد، ولكن بعض تلك السفارات قد يرد استجابة لايعازٍ من المغرب ذاته إذا ما شعر هو الآخر بأمر يستوجب استدعاء تلك السفارة لتزكية موقفه من بعض الجهات أو للمساعدة على حل مشكل عارض يتطلب حضور شخصية مخولّة للبت في المسائل المطروحة.

ولا بدّ أن يكون السفير الوارد مزوداً برسالة اعتماد تحتوي على العناصر التي تتضمنها عادة رسائل الاعتماد من تقديم السفير والتوصية خيراً به ومنحه الثقة فيما يقول وفيما ينقل على ما هو معهود.

وفي كثير من الحالات يُزوّد السفير بما يمكن أن نسميه اليوم تأشيرة الدخول إلى المملكة حيث تبعث له الحكومة المغربية بإذنٍ للعبور والنزول في ميناء تعيّنه «التأشيرة» يكون ذلك الإذن بمثابة حماية له من المتاعب أو المصاعب... وفي هذا الباب تتوفر الأرشيفات الأروبية على نماذج من هذه الأذون على ما نراه بكثرة في أيام الأشراف

السعديين والعلويين. هذا علاوة على الإشعار الذي يسبق هذه «التأشيرة» والذي يتضمن الترحيب بالسفير المرشح على نحو ما يسمى اليوم «بالموافقة» التي تعني الخطوة الحاسمة لتأهب السفير للالتحاق بمقر مأموريته لممارسة الشؤون...

وقد ورد في رسالة ولد عائشة سفير السلطان المولى اسماعيل لدى لويس الرابع عشر : «السلطان لا يقبل الناس من غير موعد وأن السفراء كلّهم سواسية وان قضاء الاغراض يخضع للشرع والقانون..».

ومن المفيد ان نقتبس هنا من رسالة تحمل تاريخ 28 ذي الحجة 1242 = 7 يوليه 1827 كانت موجهة من السلطان مولاي عبد الرحمن إلى جورج الرابع ملك بريطانيا : «...فكما أنكم لا تستنيبون لدينا إلا من ترضونه فكذلك أنتم لا تتم نيابة أحدٍ من قبلنا لديكم إلا بقبول حاله...».

ولا بد أنه يسترعي انتباهنا كذلك وصول بعض السفراء إلى المملكة المغربية، ونتساءل عن المراسيم التي كانت تعد حتى يتم الإستقبال في أحسن الظروف...

ولا بد، لكي نستعرض بعض تلك اللقاءات، أن نعرف أن الدولة المغربية، وقد أصبحت في الأندلس على علاقة جوار ترابي مع ممالك أوربا ـ قامت باستشارة مسهبة للعلماء لكي يرشدوها إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلك لاستقبال الملوك، سيما وقد بلغت لملوك المغرب أخبار عن بعض التصرفات التي نقلت عن ملوك النصرانية وهم يستقبلون سفراء المسلمين، فقد ذكر أنهم تحيلوا، في الدانمارك على السفير يحيى الغَزَال حتى يدخل على المَلِك وهو راكع، حيث تعمدوا إدخاله من باب ضيق بعد أن كان رفض أن يُطَأْطِئَ الرأس..! وقد قبل الدخول من الباب المذكور لكنه دخل وهو جالس مقدماً رجليه أولاً على ما يقولون..!

وعندما سفر أبو بكر الباقلاني إلى ملك الروم فكر هذا الملك أيضا في أن يركّع الباقلاني أمامه عوضا عن تقبيل الأرض الذي هو المعهود، ولما لم يقبل السفير قام البلاط بنفس الدور السابق ولكن السفير دخل وهو مدير ظهره حانياً رأسه ماشياً إلى خلف مستقبلا الملك بقفاه حتى صار بين يديه، وحينئذ رفع رأسه ونصب ظهره وأدار وجهه!!.

وقد تشعبت الاراء حول الكيفية التي يتم بها ذلك اللقاء الذي يكفل مجاملة الواردين وكرامة المستقبِلين... وتوصل العاهل المغربي الناصر الموحدي بفتاوي حول الموضوع كان من ضمنها فتوى العَلاّمَة أبي الحسن ابن القطان التي أُعدّت بمناسبة استقبال اناصر لملك ليون والتي تعتبر أساسا للتعامل الدبلوماسي في هذا الصدد والتي كانت تسّوغ القيام ولو أن الناصر لم يأخذ بها، مختارا الخروج من الباب المعتاد لوصوله لقبة جلوسه وملاقاة ضيفه في الطريق إليه على ما سنرى.

ونحن نعلم عن فتوى قاضي القضاة في بغداد الفقيه المالكي إسماعيل الجهضمي الذي فرّق بين استقبال المسالمين والمحاربين، فقام تحيةً للسفير ابن صاعو النصراني محتّجا بالآية الشريفة : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين...﴾.

وقد جرى العمل بالمغرب إلى اليوم، في معظم الأحيان، على سنة الموحدين التي تتعَمدّ أن يكون الملك في حالة وقوف قبل أن يقدم عليه رئيس الدولة أو ممثلها(1)...

---

1) يذكر هنا أن أهل المغرب أنكروا على بعض الأعيان قيامهم للضباط الإسبان المحتلين لمدينة العرائش فأهانوهم وضربوهم..! وما انفك المغاربة يعتبرون طأطأة الرأس للكافر ضرباً من الخضوع الذي لامبرر له، لكن بعض السفراء منهم كانوا يؤولون ذلك على أنه خضوع للوجود الرباني الساري في ذات ذلك الإنسان على ما قاله الشيخ عبد العزيز الدبّاغ في إبريزه، وهو المعْنى الذي يشير إليه المولى عبد السلام بن مشيش «ولا شيء إلا وهو منوط به» والذي قد ينزع إلى القول بإلاهية الكون...

وقد كانت الدولة المغربية تتعمد إظهار القوة والأبهة في هذه المناسبات حتى تعطي فكرة عما تستطيعه من إمكانيات، وهكذا كتب الخليفة النّاصر الموحدي ـ وقد بلغته سنة 607 = 1210 أخبار استئذان الفونسو ملك ليون لزيارته في الأندلس ـ كتب إلى عماله الذين تقع عليهم طريق الفونسو حتى يترك هذا في كلّ منزل ألفَ فارس من جنوده حتى لم يبق معه آخر المراحل إلا ألف فارس... فلما التمس أن يبقى معه بعض الجند ليحميه، كان الجواب : «إن خير سلاح هو ذمّة أمير المؤمنين»..!

وقد عرفنا عن عددٍ من الاستقبالات الرائعة التي تمت على عهد ملوك بني مرين حيث نرى في بعضها ملك الاسبان يهوي بالتقبيل إعظاماً لقدر ملك المغرب وخضوعاً لعزه... إن تلك الأبهة كانت تنسي فيما يُحكى عند وصول ملوك الروم ورُسل جنْوة ورسل السلاجقة إلى القاهرة عندما كانت تقام لهم النزهات على ضفاف النيل... وفيما كان يُحكى عن وصول الرسل إلى بغداد وإلى قرطبة وإلى الشام...

وفي بعض تلك الاستقبالات المغربية ما تميز بصدور ظهير (مرسوم) يقضي على رجال الدولة المغربية أن يرتادوا جميعهم اللباس الأبيض في مقابلة الوفادة الأروبية التي وردت عليه والتي كانت ترتدي جميعها اللباس الأسود على نحو ما هي تقاليد الروم...

وقد أخذنا (روبّورتاجات) مفصلة عما كتبه السّفراء الأجانب أنفسهم عن تلك الاستقبالات، وبخاصة في عهد الدولة السعدية التي كانت تخصص للواردين تنظيماتٍ دقيقة سواء فيما يتعلق بسير المواكب نحو (قصر البديع) أو فيما يتعلّق بتنظيم المقام والاستقبال...

ولا بدّ لكي نأخذ فكرة عن هذه الاستقبالات أن نحضر مشهداً من تلك المشاهد التي كانت تتم، ونلاحظ بادىء الأمر أن بعض الملوك كانوا

يتقصدون عدم إفشاء خبر قدوم الرسول أحيانا إذا اقتضت المصلحة الوطنية ذلك على ما نرى...

وسوف لانعطي تفصيلاتٍ عن سفير ملك فرنسا لويس فيليب الذي استقبل من قبل السلطان المولى عبد الرحمن، فقد تحدثت المراجع التاريخية عنها باسهاب، وسوف نختصر الحديث عن أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي عرفت أيامه بأنّها قمة الدبلوماسية المغربية لأن الكلام عنها أيضا مما حفلت به المصادر الأجنبية، فلقد استقبل عشرات السفراء : من اسبانيا والبرتغال وفرنسا وانجلترا وصقلية وطوسكانا والبندقية والسويد والدانمارك والنمسا والروسيا والولايات المتحدة الأمريكية واسطانبول والولايات العثمانية في إفريقيا الشمالية...

لكننى آثرت أن أرقى مباشرةً إلى أيام الأمبراطور العظيم المولى اسماعيل، إلى ما قبل ثلاثة قرون من الزمن عندما استقبل بقصوره في مكناس عدداً من سفراء الدول الأروبية مما نقرأ تفصيل الحديث عنه بين ثنايا هذا التاريخ.. إن ذلك وحده كاف لاعطائنا نظرة عما كان عليه استقبال المغرب للسفراء الأجانب أيام المنصور السعدي، وأيام بني مرين والموحدين والمرابطين... بما كان يتبع تلك الاستقبالات من تنظيم زيارات وجولات في مختلف المدن وشتى المعالم التاريخية والمنشئات الاقتصادية مما شاهدنا بعض آثاره في اللوحات الرائعة التي تبرز عدداً من المشاهد سواء بالمدن الساحلية أو الداخلية وخاصة العواصم المغربية وبخاصة مدينة فاس ومراكش ومكناس التي شاهدنا حولها عدداً من الرسوم...

ولقد كانت زيارة بعض السفراء الفرنسيين والانجليز والبلجيكيين وغيرهم للمغرب مناسبة لرسم عدد من المناظر واللوحات للديار المغربية وبعض الاحتفالات وخاصة منها استقبال السلطان المولى



استقبال السلطان مولاي إسماعيل للسفير البريطاني بمكناس

اسماعيل للسفير الفرنسي، واستقبال السلطان سيدي محمد بن عبد الله ابن اسماعيل للسفير الدانماركي، واستقبال السلطان المولى عبد الرحمن لسفير فرنسا واستقبال السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن للسفير البريطاني واستقبال السلطان مولاي الحسن (الأول) للسّفير الألماني...

لقد كان لتلك الرسوم أثرها في التعريف ببعض مظاهر الحياة المغربية، وكانت بالنسبة لمدرسة الرّسم نموذجاً يُحتذى للفنانين...

استقبال السفراء في العصور اللاحقة

وإذا عرفنا عن استقبال السفارات الأجنبية في العصور السابقة حيث أخذنا فكرة عن استقبالات الملوك المغاربة للبعثات الأوروبية في الديار الأندلسية وحيث أخذنا فكرة عن استقبالات تلك البعثات على الأرض المغربية من طرف السعديين ومن طرف الملوك الأولين للدولة العلوية... فإن الاستقبال في العصور اللاحقة من طرف المغرب أكتسي حلةً أكثر تفصيلاً...

وهكذا فعند اقتراب السفير من الميناء المعيَّن له... تحييه المدينة بإطلاق المدافع وتقوم سفينة المبعوث القادم بالرد على التحية بمثلها على نحو ما عليه العرف في تحية الدول ذات السيادة على البحار، وحينئذ يتقدم زورق يحمل عضواً من التشريفات إلى المركب الضّيف للترحيب بالسفير باسم سيّد البلاد.. ثم يرافقه إلى اليابسة حيث يقدم إليه عامل المدينة وكبار المستقبلين من مدنيين وعسكريين، ويتناول التمر والحليب اللذين اعتاد المغرب تقديمهما لكبار الواردين عند مداخل المدن، ويسير السفير في موكب رسمي إلى المكان المخصص لإقامته حيث يتلقى زيارة بعض الشخصيات، وحيث ينتظر أمر العاهل

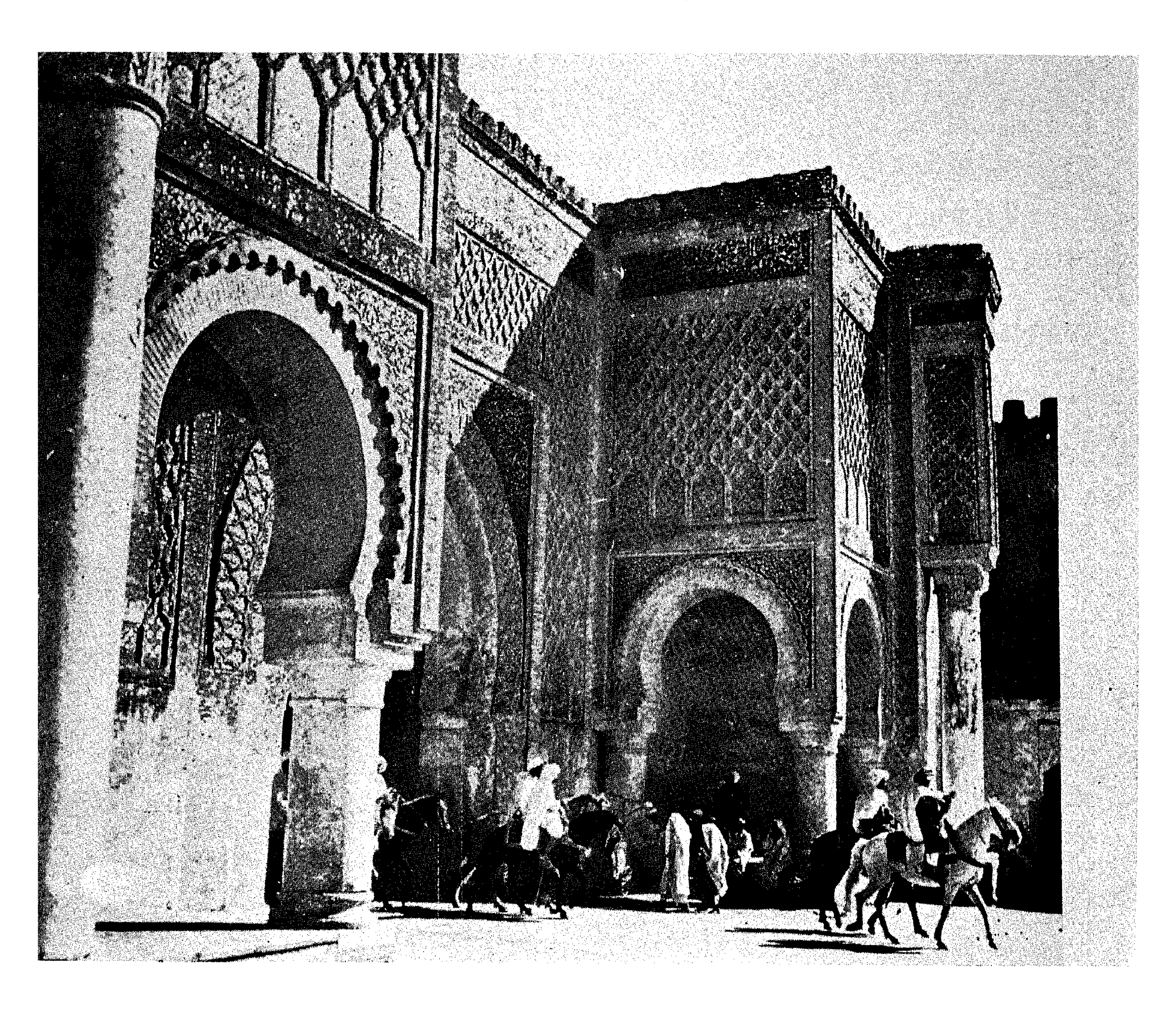
له بالتحرك نحو العاصمة، والتحرك يتم أحيانا بواسطة مراكب، وأحيانا بواسطة الخيول، وقد يستعمل الطريقان معاً، حيث يبعث بالظهائر الملكية إلى الأقاليم التي يمر منها الموكب، للقيام بالاستعدادات اللازمة... لقد كانت مواكب السفراء أحياناً من الضخامة بحيث إنها تفوق الوصف، وقد عرفنا أن قافلة فيرو (FERAUD) مثلاً كانت عام 1086 = 1675 تتألف من 170 بغلة للعفش و52 أخرى لحمل بعض الأسلحة المهداة للعاهل مولاي إسماعيل و18 فرساً لركوب الدبلوماسيين والضباط و13 فرسا للحاشية و12 بغلةً و12 جملاً و12 فرساً كذلك للتبديل والتغيير والاحتياط... إلى جانب حوالي سبعين من الحراس... وعلى العموم كانت البعثة تتألف من حوالي عشرين عضواً على الأقل، فيهم السفير الذي تصحبه أحيانا زوجته وبعض التراجمة... وأحياناً عالم أو فنان أو مصور...

وقد أجمع السفراء والمبعوثون بدون استثناء على أنهم كانوا ينمتعون بعناية زائدة ورحلة ممتعة ومؤونة مضمونة طيلة مرورهم من إقليم إلى إقليم...

وقد كانت الطريق التي يتبعها السفير الوارد من طنجة إلى فاس في الأيام الأخيرة، العرائش وبني عمار وادى مكس ثم نزالة فرجي على مقربة من فاس حيث يستريح السفير في فسطاط ضخم قبْل أن يخترق باب قبيبة السَّمن التي تتصل بالمشور الملكي...

☆ ☆ ☆

عندما يقترب الموكب من العاصمة يجد بضواحي المدينة كوكبةً من الجند على جانبي الطريق... مع الموسيقى السلطانية وعلى رأسها قائد المشور ووزير الحرب اللذان يتقدمان إلى السفير بالتحية والترحيب



باب منصور العلج بالعاصمة مكناس، وهو من المعالم التاريخية العظيمة بالمغرب، وكانت تؤدى على مدخله التحية التقليدية للسفراء قبل أن يصلوا إلى رحاب القصر الامبراطوري.. وقد وصفه عدد من الأجانب القدامى الذين مرّوا بتلك الديار. إبتدأ بناءه المولى اسماعيل وأتمه السلطان المولى عبد الله.

باسم العاهل وينتظم الموكب في أبهى حلة نحو دار الضيافة[2] حيث يتقاطر عليها باستمرار كبار الشخصيات لتحية السفير والإطمئنان على راحته باسم العاهل وربما زاره الوزير الأول، ولا بد أن يقوم السفير برد الزيارة لهؤلاء... وفي هذه المقابلات تجري عادةً الأحاديث التمهيدية التي تكشف عن المقصد أو المقاصد من الزيارة لإطلاع العاهل عليها وللإستعداد لمواجهتها، وعندما يعين موعد المقابلة الملكية يتوجه قائد المشور مع حاشيته إلى منزل السفير ليأذن له بالإتجاه نحو (دار المخزن) : مقر الحكومة وينصرف، وهنا يتوجه في رفقته (قائد الرّحى)[3] المكلف بحراسته في محلّ نزوله فيقصد مثلا مشور باب الدكاكين بفاس حيث يتم الاستقبال في ساحة المشور السالف الذكر على متن الجياد إذا لم يجر الاستقبال داخل القصر والعاهل جالس على أريكته.

ويلاحظ أن الإستقبال قد يتم أحيانا داخل الخيام الملكية إذا كان العاهل خارج المدينة، وقد يتم داخل المسجد أيضا إذا كان الأمر يتعلق باستقبال سفارة إسلامية على نحو ما رأينا عند استقبال اسماعيل أفندي سفير السلطان عبد الحميد...

وإذا كان موعد الاستقبال في رائعة النهار فإنه ـ وخاصة في فصل الحر ـ قد يتم في الصباح الباكر، وربما تم في ساعة من الليل على ضوء الشموع الضخمة كما كان يجري ببغداد أيام الخلافة العباسية...

---

2) على نهج (دار صاعد) التي كانت معدة لنزول السفراء في بلاط بغداد نجد في المغرب دوراً من هذا الطراز لإيواء علية الواردين... وهكذا كان بعضهم ينزل بقصر رأس الماء الذي يشرف على منابع وادي فاس، وفي مراكش كان يخصص لأعالي القوم منهم عرصاتٌ وقصورٌ لا تزال معالمها إلى الآن... وقد كان البعض منهم يفضل أن يكون مقامه على مقربة من الحيّ الخاص بالإسرائيليين...

3) تعني (الرّحى) في الاصطلاح المغربي تجريدة من الجند تصل إلى ألف مابين فارس وراجل، وتحت كل قائد رَحَى قواد للمائة.

وقد لاحظ الكونط دوكاستري أن بعض السفراء الأجانب كانت تخصص لهم أحذية واسعة ينتعلونها إضافة إلىَ أحذيتهم الأصلية إذا كان الإستقبال يتم داخل قاعة العرش كما لاحظ أن المحظوظين من السفراء يسمح لهم بتقبل يد العاهل...

وعند الوصول يجد السفير قائد المشور في انتظاره خارج الباب ويتقدم القائد أمامه لدى جلالة الملك الذي يكون ظهوره مقترنا بالهتاف الجماعي من الحرس السلطاني : «الله يبارك في عمر سيدي» ويكون السلطان مرتدياً على العادة الكساء والسلهام التقليديين الأبيضين وعلى رأسه شدّ وشاشية... وعندما يقترب السفير من جلالة الملك يؤدي التحية الأولى بانحنائه... وبعد خطوة ثانية يؤدي إنحناءة ثانية ثم ثالثة بعد خطوة أخرى كذلك(4)...

ويقف الترجمان عن يمين السلطان مقاربا له ويقف الوزير الأوّل ووزير الخارجية عن يساره قريبا منه، ويقف السفير أمام ترجمان البلاط بينما يقف ترجمانه هو أمام الوزير الأوّل ويقف الملحقون بالسفير وراءه.

ويقف بقية الوزراء والكتاب منفصلين عن مركز الممثل الدبلوماسي... ويجري حديث بين السفير والعاهل، وربما وقع تبادل الخطب كذلك... وتقديم المساعدين للعاهل وأعضاء الحكومة، وعند انتهاء الاستقبال يستأذن السفير بالعودة التي تتم على الصفة التي ورد عليها...



---

4) من الطريف أن نجد ابن بطوطة يتحدث عن تقاليد من هذا النوع في بلاد الهند تعرف تحت اسم «الخدمة» أي إظهار الاحترام والتعظيم لمن هو أكبر منك وأعلى قدرا...

وقد جرت العادة القديمة بعد هذه المقابلة أن يتم في نفس اليوم استقبال خاص يتقدم فيه السّفير بالهدايا التي أرسلت للعاهل فتخرج من ظروفها وتعرض ويظهر صاحب الجلالة وهو بلباس عادي حيث يتقبل الهدية... ويعود إلى محل إقامته.

ولا بد أن نشهد أثناء مقام السفير ببلادنا سلسلةً من المآدب والحفلات تقام على شرف المبعوث وأعضاء حاشيته من طرف الوزراء والعمال والقواد، وبين هذا وذاك تجري المناقشات في المسائل المعروضة إلى أن يحين موعد استئذان السفير للعاهل في العودة إلى بلاده مصحوباً بالهدايا الفاخرة الثمينة...

وقد كان مقام السفير بالعاصمة يختلف بالنسبة للسفارات فبينما نجده يقتصر على خمسة وعشرين يوماً بالنسبة للبعض نجده بالنسبة للبعض نجده بالنسبة للبعض الآخر يمتدّ إلى تسعة شهور... لكنه في الأغلب لا يتعدى شهرين أو ثلاثة شهور....

ومن الملاحظة أن المغرب يوفر للسفير علاوة على ما أسلفناه، سائر الوسائل التي يملكها للاتصال بالدولة التي اعتمدته حيث يساعد على إرسال بريده في أمانة تامة وبوسائل سريعة إلى أحد الموانئ المغربية لتسليمها لأول مركب في اتجاه بلد السفير، قبل أن يودع البلاد في احتفالات مشهودة...

اللاّجئون من العرب والعجم

ولو أننا كنا نتوفر على المظان الضائعة لا ستطعنا أن نستعرض أمامنا العدد العديد من الذين آوتهم الديار المغربية ممن كانوا يردون عليها من أقاصي بلاد الدنيا ابتداء من سمرقند وبلاد فارس والغزّ

والترك... إلى بقية البلاد العربية والإسلامية من العراق والشام ومن صقلية وجنوة وبيزا وفينيزيا والمدن الأُروبية الأُخرى !

لقد كان هؤلاء اللاّجئون يجدون في المغرب في قديم ضالتهم المنشودة من حيث الرّزق ومن حيث الأَمن... ويذكر مؤرخوا اليونان أنهم وجدوا في شمال إفريقيا نقشا على قطعة من الرخام الأَبيض مضمنها : «إننا لحقنا بهذه الديار هربا من قاطع الطريق يوشع بن نون !». وكانوا يجدون في المغاربة من رئيسهم إلى مرؤوسهم نعم المرحب ونعم المساعد... وقد خرج الخليفة الموحدي ذات يوم لاستقبال العرب الوافدين عليه من افريقية تتقدمه زهاء مائة طبل وقد ركب صهوة جواده الأشقر بينما كان الوزير والحاجب يمشيان على أقدامهما بين يديه، وعلى مقربة من فرس الخليفة أخوه الأكبر الذي كان إلى جانبه سائر الأخوة على ترتيب درجاتهم يليهم الأمراء الصغار وفي ساقة الموكب ست عشرة راية من كبار البنود... كان هذا الاستقبال الضّخم مقصوداً للتعبير للذين اختاروا بلادنا عن ترحيب المغاربة قمة وقاعدة.. ولم يكن استقبال الموحدين للأمير فيرناندو، ليقلّ عن الاستقبال الذي كان بالنسبة لأبي المكارم هبة الله الحسين المصري الذي قدم الأندلس خوفاً من صلاح الدين، ويحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية، والحسن بن علي صاحب تونس وطرابلس، وحتى بالنسبة لجبارة بن كامل عميل روجي الثاني الذي لم يلبث أن أعجزه التملق وقصد بلاط الموحدين طالبا للصلح.

ولا شك أن هذا الاستقبال على العهد الموحدي لتلك الوفود الواردة إنما يعكس الصورة التي استقبل بها العهد الادريسي تلك الجماعات التي نزلتْ ساحته سواء من الفرس أو العراق أو القيروان أو الأندلس، وهو يعكس الصورة كذلك التي عرفها العهد المرابطي قبل أن تأتي الفترة الموحدية، ولا ننسى حديث التجاء بني مردنيش وتطارحهم على يوسف

بن عبد المؤمن مسلّمين له جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم... كما لا ننسى إنزالهم من قبل العاهل في قصر ابن عبّاد على ما يذكر ابن صاحب الصلاة وهو، تقريبا، شاهد عيان...

ومعنى هذا أن المغرب اتسع صدره لعددٍ كبير من الواردين واللاجئين، بل إنه كان يرى في مقدمهم وسيلة لتقديم الخبرة إلى هذه الديار، وكان المغرب نتيجة لذلك يعتبرهم من أهل البلاد لا يختلفون عن بقية المواطنين، سواء كان هؤلاء اللاَّجئون مسلمين أو مسيحيين عرباً أو عجماً، وهي الظاهرة التي حيّرت الذين وردوا على المغرب من الخارج حيث إنهم كانوا لا يجدون فرقاً بين هؤلاء وأولئك، وقد قرأنا عن التجاء ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب، وقرأنا عن القائد الفارسي الأصل (بختيار) الذي كان يشرف على مطبخ المنصور السعدي، كما سمعنا كذلك عن القائد جَوْذَر الذي أبلى البلاء الحسن لبلاط الدوك دي ريبّيرا الذي التجأ إلى المغرب في عهد السلطان المولى عبد الله، كما عرفنا عن عدد من المستشرقين الذين كانوا يشاركون في تحرير الرسائل المخزنية.



أعلام مغربية من أصل أجنبي

وسنلاحظ من خلال هذا التاريخ، وجود عدد من الأعلام المغربية من أصل أوربي، علاوة على الأسماء المغربية الصرفة، أو التي ترجع إلى أصل مشرقي.

وهكذا نجد بركاش وبلافريج ومارسيل وكيليطو ومولاطو ودينية والرندة وابن الكاهية، وملين ومورينو وطريدانو واشكلانط وبلامينو وبيرو، ومتجنوس وطيفور ولوباريس وبردلة وبسير وكريسبو وابن

من مذكرات لسان الدّين ابن الخطيب !

ووصلت الشفاعة فيّ مكتتبة بخطّ ملك المغرب (أبي عنـان)، وجعل خلاصي شرطـاً في العقدة، ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطانيّ المكفور الحق إلى المغرب، وبالغ ملكـه في برّي، واغياً في حلّة رعيي، منزلاً رحباً، وعيشاً خفضاً، واقطاعاً جمّاً، وجرايـة مـا وراءهـا مرمى، وجعلني بمجلسـه صـدراً ثم أسعف قصـدي في تهييء الخلـوة بمـدينـة سلا، منـوّه الصكوك، مهنّأ القرار، متفقّدا باللهى والخِلع، مُخوّل العقار، موفور الحاشية، مخلّى بيني وبين إصلاح معادي...

ولمّا قضى الله بالإنصراف إلى العدوة الغربيـة صـدرتْ عن سلطـانهـا أمير المسلمين أبي سالم منشورات رفيعة، منها ـ وقد تشوفت إلى مطالعة بلاده الغرْبية وجهاتهـا المراكشيـة ـ مـا نصه :

«هـذا ظهير كريم أشـاد بـالتنويـه الفسيح المجـال... للشيخ الـوزير أبى عبـد اللـه ابن الخطيب وصل الله حُظوته... ولما وفد على بابـه الكريم عـايـذاً بجواره، وملقيـاً في سـاحـة العز المشيد عصار تسياره ومجرياً في ميدان الثنا جياد أفكـاره... فسحنـا لـه في ميـدان البر والترحيب فبلغ مداه، وأنس في حضرتنا الكريمة، أنوار العناية، التي كانت هداه... وأذنـا لـه في زيارة التربة المقدّسة بشالّة المعظّمة حيث ضريح مولانـا المقـدّس ومن معـه من أسلافنـا الكرام... وقد أذنا له في مشاهـدة تلـك الجهـات من حضرتنـا العليـة إلى مراكش المحروسـة للقاء الأعلام واجتلاء المعاهد الكرام والآثار الباقية على الأيام، كيف أحبّ، وعلى ما شاء من إراحة أو إلمام، مُصْحَباً بمن ينوّه به في طريقـه من الخـدام... وليّعتمـد لوزيرنـا أبى الحسن علي بن العباس أكرمه الله على أن **يدخله إلى** المساكن العلية بقصبـة مراكش حرسهـا اللـه ليشاهد الآثار السلطانيـة التي انتظمت في سلكنـا وعفى عليهـا جـديـد ملكنـا... وكتبَ في التاريخ المؤرخ به.

عن ترجمة ابن الخطيب بقلمه، الإحاطة ج 4 ص 444

طـوجـه وتكيطـو وبـوجنـدار، وسبـاطـة وتـومـورو ورودِيَّـاس وبيريس وفلوريش وبـايـنـة وبونو وضـاكـة وفـار شـادو، وقريون ومـدون، والـدُّك وشنتياك ودعنون وصيرون وعبدون ونضرون وبلانكو وبلـدور وبريطل وفيرنان ولوميرو والجنوي (نسبة إلى جنوة)...

وفي هذه الأسر من ينتسب إلى بيوتٍ شريفـة الأصل نبيلـة المحتـد في أوربـا، على نحـو مـا عرفنـاه في آل بركـاش وآل ملين وبـونـو وآل مورينو والدك ومارسيل... وفيهـا مـا كـان عربي الأصل ثم تَنَـدْلَس على أن يعود لحـالـه الأولى فيمـا بعـد كـالسراج وكيديرة والأنـدلسي والقرطبي والغرنـاطي واللوشي وعـاشـور والعمـاني والقسطـالي والتـونسي والقصري وابن عمرو، وابن الطاهر وابن الفقيه وابن دهاق...



الهدايا المتبادلة...

- □ تقاليد الهدايا في التعامل الدولي ـ نوع الهدايا ـ المواد الستراتيجية ـ الغنائم والأسلاب ـ النواقيس ـ الصناعة الوطنية التقليدية ـ...
- □ الجياد وكلاب الصيد والحيوانات المفترسة ـ الصقور والبزاة ـ أدواتُ تجْهيز الصقور ـ
- □ السكر المغربي ـ الهدايا الواردة...
- □ التيجان ـ المظلات الملكية ـ الساعات المختلفة الأشكال ـ
- □ الأُسطرلاّبات والميكروسكوبات ـ الفيل والزّرافة ـ الزرابي الشرقية ـ الشاي ـ العطور والطيب ـ الآلات الموسيقية ـ مجاملات المبعوثين ـ التوأمة بين المدن وأهدافها ـ
- □ خَيْبر في الحجاز وخَيْبر في زرهون...
- □ البصرة جنوب بغداد والبصرة شمال فاس !
- □ القاهرة هنا وهناك ـ بغداد المغربية.
- □ اقتناء العقار خارج المغرب وأهدافه...

الهدايا المتبادلة
وطريقة التعامل والمجاملات الدَّولية

والحديث عن المهمات الدبلوماسية يستدعي منا استعراض (الهدايا) التي اعتاد البلاط المغربي أن يقدمها أو يتقبلها من البلاطات الأُخرى في مختلف جهات العالم، وهو عنصر مطرف في «المدرسة الدبلوماسية المغربية».

وهكذا نجده أي المغرب يجيب دائماً عن التحف المقدمة إليه بتحف أُخرى، «والهدية، كما يقول المثل المغربي، بَلِيَّة، وإذا قدمتْ إلى الأَجواد أرجعوها مثْنية !» أي مضاعفة، وقد كان في تلك الهدايا ما يحمل رموزاً لها دلالة كانت معروفة لدى الجميع... والمغرب يميز بين الهدايا التي ترسل إلى العالم الإسلامي، وبين التي تبعث إلى الدول المسيحية...

فهو بالنسبة إلى الجهة الأُولى يعتمد إرسال المواد الاستراتيجية من منتوجاتٍ حربية وقطع غيار إضافة إلى الهبات والعطايا المالية الهامة... والإعانات العسكرية الضخمة التي كانت حديث المجالس في المشرق وممالك إفريقيا... وأحيانا تكون (الهدايا) من الغنائم التي يحصل عليها في ساحات المعارك بأُروبا... وهكذا نرى أُمراء المغرب يبعثون إلى أمير مكة وأمير المدينة وحاكم بيت المقدس بنواقيس

وأجراس ضخمة اقتلعوها من الكنائس الإسبانيـة جواباً على إحراق بعض المتعصبين المسيحيين لمنـابر المسـاجـد...!! بعثـوا بهـا لتعرض على الحجاج داخل الحرمين الشريفين وفي المسجد الأقصى على نحو ما فعل ملوك المغرب عنـدمـا علقوا بعض تلـك النواقيس في الجـامع الأعظم من فاس : جامعة القرويين...



جانب من الناقوس الذي تحول إلى ثريا وقد نُقشت عليه حروفٌ باللاتينية
عن كتاب «جامع القرويين» ج 2 ص 546

وقد كان المغرب يهدي في جملة ما يهدي أنماطا من الصناعة الوطنية الرفيعة : الفساطيط الرائعة والمحافظ والشكاير، والتهاليل[1] المطرزة، والزرابي والحياطي التي تعلق على الجدران وأنواع النسيج الرفيع والعباريق والأحذية النّسوية والرّجالية وسُفَر الموائد، والأواني من الخزف الرفيع أو المعادن المغربية علاوة على الحلي الذي تصوغه الأيدي المغربية، وقد حفظ التاريخ أن في أثمن ما كان يهدى، المضمّات الذهبية المتقنة النقش والتطريز، والقلنسوات المموهة بالذهب المكللة بالجواهر على نحو ما نراه في هدية السلطان أبي الحسن المريني إلى ملك مصر..! ولابد أن نقدر في هذا الباب دور الصناعة التقليدية في التعريف بحنكة العامل المغربي[2]!!!

وقد كان في جملة ما يهديه المغرب عشرات الجياد من عتاق الخيل و(العودات)[3] والبغال الفارهة، والكلاب السلوقية وخاصةً منها ما ينشأ ويربّى في الصحراء المغربية، وقد كان يتبع الخيول طبعاً طائفة من السروج المثقلة بالذهب المرصّعة بالأحجار الكريمة والألّجم الفضية والمذهبة... هذا إلى العشرات من السيوف والخناجر المحلاة بالذهب والمرصّعة بالياقوت المختلف الألوان بحمائلها الحريرية وأغمادها الفضية.

وإضافة إلى تلك الحيوانات نلاحظ أن في الهدايا... الأُسود والنمر والنعام... وأن في تلك الهدايا ما حمل معه عدداً من القصص المطرفة في

1) جمع تهليل : أغشية من جلد مطرز فيها مصاحف صغيرة الحجم أو أذكار وتحصينات على نحو (دليل الخيرات) الذي ألفه الإمام الجزولي.

2) كان من هدايا والي العراق صورة نخلةٍ أغصانُها من فضة وعناقيدها من ذهب، على نحو ما أهداه مصعب بن الزبير والي العراق من قبل عبد الملك ابن مروان إلى عبد الله ابن أبي فروة، وهو تقليد جارٍ إلى اليوم في بغداد... وهكذا نرى كل جهة تحرص على الإنفاق ممّا عندها..!

3) أهدى العاهل المغربي عودة للقنصل البريطاني (هاي)... أهداها بدوره إلى الملكة الأمر الذي كانت له مضاعفات تعرض لها روجرز في كتابه عن العلاقات المغربية الإنجليزية !







الصقر في المؤلفات المغربية

أُروبا وأمريكا... فقد كانت بعض تلك الدول تعجز عن نفقات نقل تلك الحيوانات بل وتعجز عن تموينها وتعهُّدها عندما تصل إلى بلادها مما أدى إلى إصدار تعليمات للسفراء - من أمريكا مثلاً - أَن لا يقبلوا مثل تلك الهدايا قبل أن يخطروا دولهم لكي يستعدوا لها !!

لقد كان بمكناسة حديقة تعرف بجنان ابن حليمة خصص لتربية النّعام ليكون ضمن ما يقدم كتعبيرٍ عن صورة من صور البيئة المغربية...

وان أطرف ما تهاداه ملوك المغرب مع ملوك أروبا... الصقور والبزاة... ونحن نعلم أن هواية الصيد بالصقور في المغرب تضرب في جذور التاريخ، وأنها من أنواع الرياضة التي استأثر بها الكبراء وعلية الناس، وقد حفظ التاريخ عدداً من المراسلات وعدداً من السفارات من التي حملت الصقور من أُروبا أَو من المغرب إلى نواحي نائية.

وينبغي أن نعرف أن مثل هذه الهدايا لا يعني مجرد إرسالٍ لطير كاسر، ولكنه يعني أُمثولةً حضارية في منتهى الرقة واللطف، فلقد كان المعتاد أن يُتبع الصقر بأدواته وأجهزته من بُرقع مذهّب، ومن مجاديل حريرية مفتولة ومجْثَم يستريح عليه الصقر، وقفّاز من جلد مطرز يضع عليه البيّاز صقره، ومخلاة للزاد... وجلاجيل وخلاخيل من فضة أو ذهب علاوة على البيّاز أَو البازيار الذي يحرص على سلامة الصقر ويلازمه حتى يصل إلى الجهة المقصودة...

لقد تلقى ملوك المغرب عدداً من الصقور والبزاة طيلة التاريخ... وقاموا بإهداء أنواع من الصقور لمختلف بلاد أُروبا... مما نجد أصداءه، سواء بالمصادر الأَجنبية والمغربية في القديم والحديث، الأَمر الذي كان يساعد على تلطيف جو العلاقات بين المغرب وغيره مما يؤكد ما أثر عن دور هذا «الفلكلور الدبلوماسي» في الحياة الدولية...

وقفت في الأرشيف الوطني المتصل بمكتبة الكونكَريس الأمريكي على أن العاهل المغربي السلطان مولاي عبد الرحمن تلقّى في سنة 1834 هديةً من الرئيس الأمريكي أندروجاكسون، وكتعبيرٍ عن شكر جلالته على مباهرة الرئيس، قام بإرسال طائفةٍ من التحف المغربية، كان من بينها فَرَسان وأسدٌ كبير، وكَان ذلك بواسطة السيد عبد الخالق أشعاش الذي سلمها إلى القنصل الأمريكي بطنجة على ما تكشف عنه رسالة بتاريخ 29 ربيع الأول 1250 = 21 غشت 1834.

غير أن الحُكّام في الولايات المتحدة تلقوا إخبار القنصل لهم بذلك باستغراب، إذ إنهم لم يكونوا يتوقعون تقديم هدية مثل هدية الأسد ! وقد أحدثت هذه المبادرة المغربية مشكلةً مالية بالنسبة إليهم وهم في بداية حياتهم، لقد حَسَبُوا ووجدوا أن وصول هذا الأسد سيكلفهم دولاراً كلّ يوم، وهذا ما لم تكن الخزينة الأمريكية لتتحمله آنذاك ! وقد قامت ضجة بالكونكَريس حول المشكل، هل يطلب إلى القنصل أن يرد الهدية إلى مهديها ؟ وهذا من شأنه أن يغضب ملك المغرب ـ على ما نصحهم به القنصل ـ ! أم تتحمل الولايات المتحدة هذه المصاريف في سبيل أنْ تُبْقِي على صداقتها مع المغرب، سيما وفترة الاتفاقية المغربية الأمريكية الأُولى على وشك أن تنتهي !! وأخيراً استطاع الرئيس الأمريكي أن يُقنع أعضاء الكونكَريس بضرورة الموافقة علي تلقى الهدية على أن تُقدم للبيع فور وصولها حتى تُغطّي النفقات التي يكلفها النقل !! وهنا أبرقوا للقنصل العام الجديد جيمس ليب بأنه يمكنه أن يرسل الهدية !!

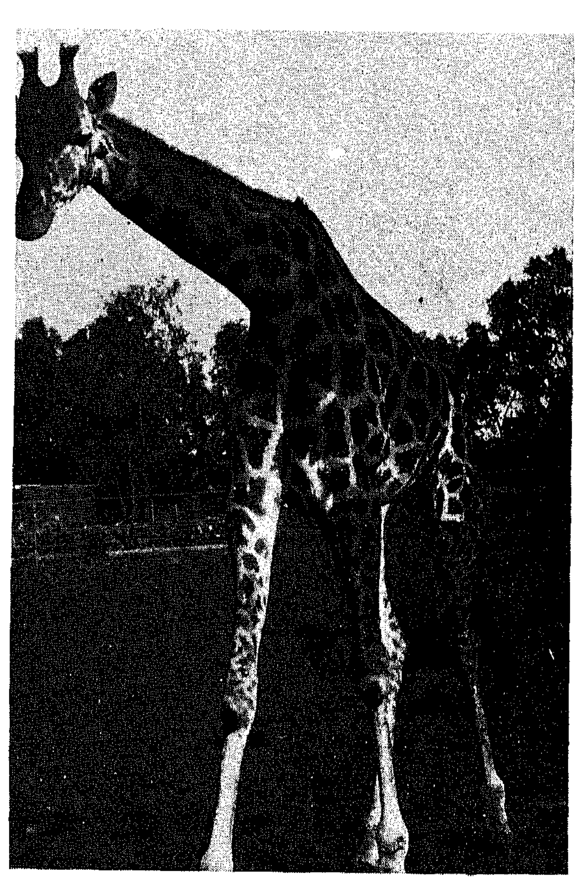
عام الفيل !

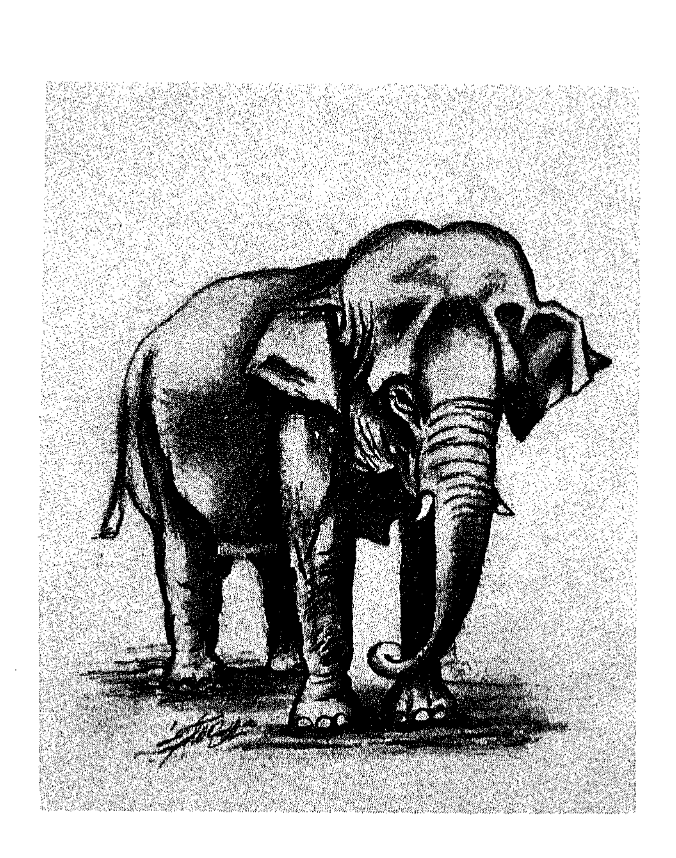
في إطار التهادي بين المملكتين، أرسلت الملكة فيكتوريا عاهلة بريطانيا إلى السلطان مولاي الحسن فيلاً جميلاً من الهند يحمل اسم سطوك، كان يصحبه مدرب هندي (ما هوت).

كان يوم الأربعاء 27 محرم 1309 = 2 شتنبر 1891 يوماً مشهوداً بضواحي فاس حضره الوزراء والعمال والأدباء والشعراء، حيث استمتعوا برؤية هذا الحيوان الغريب وهو يؤدي حركات بهلوانية أمام الحاضرين، الذين لم يسبق لهم أن شاهدوا الفيل قبل !

وكان الاحتفال يذكر الناس باليوم الذي أهدي فيه ملك مالي الزرافة إلى العاهل المغربي بفاس منذ سنة 762 = 1360...

وكما أنْطقَت الزرافة آنذاك أُدباء المغرب في عهد بني مرين، كذلك كان الأمر بالنسبة للفيل الذي حرّك الكتاب، فألفوا حول هذا الحدث الفريد حسبما تكشف عنه الرسالة التي بعث بها جلالة الملك الحسن الأول إلى العاهلة البريطانية بتاريخ 25 ربيع الثاني عام 1309 = 28 نونبر 1891.





ولابدّ أن نلاحظ في المواد المقدمة أيضا كميـاتٍ من السكر المغربي والفواكـه المجففـة من التمر والزبيب والتين واللـوز والجـوز ممـا كـانت «تختصّ بـه المخـازن الواسعـة المملوءة بجميع ذخـائر الـدنيـا» على حـدّ تعبير رسالة بيدور الرابع ملك أراغون...

وقـد تلقى المغرب بـدوره أنـواعـاً أُخرى من الهـدايـا تختلف قيمـة ونـوعـاً وطرافـة وكـان في أبرزهـا التيجـان المرصّعـة، والعروش المنمقـة والمظلات المموهة بالذهب والفضة إلى بعض الساعات الجدارية والجيبية المرصّعـة بـالجـواهر وبعض الآلات العلميـة كـالأُسطرلاّب والنظـارات والميكروسكـوبـات إضـافـة إلى العربـات الفـاخرة والمصـابيـح الفضيـة والمسدَّسات المذهبة المطعمة بالأَحجار الكريمة وبعض الحيوانات الغريبة الفيل والزرافة وأنواع أصيلةٍ من كلاب الصيد والحراسة.... وكذلك البسط الأَناضولية والأرمينية والخَزف الصيني والأَواني البندقية وشقق الثيـاب المزركشة... والفساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة، والأَرطـال من الشـاي الشرقي الرفيـع بمـا يصحبـه من أدوات وأواني فضيـة وحلـويـات و«شكلاط»..! وقـد عرفنـا من بعض الهـدايـا التي قـدمت للعـاهـل المغربي السلطـان مولاي عبـد اللـه آلاتٍ للموسيقى... وقـد كـان في بعض الهـدايـا المقدمة ما يتم، حسب استطلاعات خاصة، وفقاً لهواية العـاهل ومـا يمكن أن ينال استحسـانه أكثر... هذا طبعا إلى هدايا إضافيـة للأمراء والأَميرات وبعض الشخصيـات التي تتمتع بنفوذ لـدى العـاهل... ويضـاف إلى أنواع الهدايا المقدَّمة، العطور الشرقية الرفيعة كالمسك والغالية والعنبر وخاصة منه المجلوب من الشّحر، والعود وخاصة المجلوب من (قُمار) بالهند.

وفي كثير من الأَحيـان كـان المغرب يتلقى مراكب مشحونـة بـآلات الحرب من المدافع والمهـاريس التي تسـاعـده على المحـافظـة على أمنـه وحـدوده... عـلاوة على الـزوارق التي يستعملهـا العـاهـل في النـزهـات النهرية.

وقد برّزت المدرسة المغربية في باب الهدايا من خلال المئات من الرسائل التي كانت تنفذ إلى المعلّمين في فاس ومراكش وتطوان لتحضير أجمل ما يتوفرون عليه قصد إرساله إلى الخارج أو تقديمه للزوار من الأجانب الذين يتقاطرون على بلاده...

ولا نذكر هنا بالتفصيل ما كانت تتلقاه البعثات الدبلوماسية من هدايا وهي تودع بلاد المغرب، ولكنا نشير إلى أن في أبرز ذلك ما تفاجأ به البعثة وهي تستعد للمغادرة، أن تعرف أن نفقات إقامتها وتكاليفها قد تحملتها المملكة المغربية، كلّ هذا نجده في تقارير البعثات السياسية التي كانت أيضا تنوه أيما تنويه بظاهرة كانت عندهم أقوى من كل هدية، تلك أنهم ينعمون بأمن وأمان طيلة مكثهم وطيلة تحركاتهم في الشمال والجنوب... وكل هذا نجد تفصيله في الكتب المشرقية والمغربية على السواء مما يثبت أن رصيد المغرب وأصالته في باب المجاملات كان رصيداً رائعاً...

☆ ☆ ☆

المجاملات الدولية

ويدخل في باب المجاملات الدولية ما كان المغرب دأب على سلوكه من إعطاء أسماءٍ لمدُن ومواقع توجد خارج رقعته، لمدن ومواقع داخل أراضيه. لعلنا نسمع عن تباري الدول الصديقة عند العصور الحاضرة في المبادرة إلى كل الوسائل التي من شأنها أن تعزز الأَواصر... وقد كان من أطرف الابتكارات وأقربها إلى مخاطبة القلوب والعواطف ما يتردد اليوم من أخبار إنشاء توأمةٍ بين مدينة ومدينة، نظرا لما يوجد بينهما من تشابه وتجانس من الوجهة التاريخية أو الجغرافية أَو الاقتصادية...

وقد قرأنا عن توأمة من أقدم التوأمات التي عرفها تاريخ المغرب : توأمة (خَيْبَر) على مقربة من المدينة المنوّرة بخيبر في زرهون على مقربة من مرقد الإمام إدريس ابن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية...

وسمعنا عن توأمة الأندلس مع الضفة الشرقية لمدينة فاس وتوأمة القيروان مع الضفة الغربية لفاس أيضا. وهكذا نجد أن فاسا وقد أهِلت بالسّادة الواردين من الأندلس، يطلق على ضفتها الشرقية (عدْوة الأندلس)، كما نجدها وقد أهلت بالسادة الواردين من القيروان يطلق على ضفتها الغربية (عدْوة القيروان)، فتم بذلك تخليد اسم الأندلس والقيروان معاً في أول عاصمة إسلامية بالمغرب الأقصى.

ومن هذا القبيل تسمية المغاربة لبعض مدنهم بأسماء مدن مشرقية، فلقد ظلت بدون شك تلك البلاد عالقةً بذكريات أُولئك الذين زاروا تلك الديار أو وردوا منها، ولهذا نجد بعض الجهات في شمال المغرب يحمل اسم (البصْرة)، ونجد موقعاً في مدينة فكَيكَ يحمل إلىالآن اسم (بغداد)، علاوة على ما قرأناه في كتب التاريخ المغربي عن إطلاق اسم بغداد على مدينة مراكش ذات التاريخ الشامخ المتعالي.

ومن هذا تسمية مدينة «رباط الفتح» في المرحَلة الأُولى من مراحل تاريخها بمدينة (المهْدية). فقد اتجهت النية إلى جعله توأماً لمهدية تونس منذ أمست تحت حكم الموحدين...

وفي حارةٍ من حارات فاس نجد اسم «طريانة» استحضاراً لطريانة الأندلسية التي كانت تنزع إلى هذه الحارة بما كانت تتوفر عليه من أشجار وثمار وأنهار...

وقد سمي أهل الريف المغربي إقليم فشتالة (بالشام)، كما أُطلق هذا الاسم الجميل أيضا على (جاية) لوفرة فواكهها وخيراتها... وأُطلق اسم

«حمص» على جانبٍ من دائرة فاس الجديد أيام بني مرين، كان يعرف باسم الملاَّح.

وهذه (القاهرة) التي اختطها السلطان أبو عنان بالسوس في جنوب المغرب عام 754 = 1353 بجانب سكساوة على ما نجده في كتب مؤرخي إقليم سوس، وذلك عندما أنزل الأسطول الإسباني في تلك الناحية الأمير أبا الفضل للتشويش على أبي عنان حتى لا يوجّه اهتمامَهُ للأندلس...



اقتناء العقار خارج المغرب وأهدافه...

وتعبيراً من المغرب على مزيد تعلّقهِ بالمشرق فكَّر الحكم المغربي... أن يقوم باقتناء العقار خارج بلاده، وبخاصة في البقاع المقدسة : مكة والمدينة والقدس، وهكذا منذ العهد المريني وجدنا أثراً لتملك المغاربة لعدد من أنواع العقار، وقد أخرج أبو الحسن من خزائنه أموالا عينها لشراء الضِّياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء في المصاحف الثلاثة التي أهداها لمكة والمدينة وبيت المقدس...

ومن الطريف أن نجد الملوك المغاربة يقومون بمساعي لدى ملوك المشرق من أجل إعفاء العقارات المغربية من التكاليف التي تفرض عادة على عقارات الآخرين...

وقد تم سنة 760 = 1320 تَحبيس حقول ورباع بظاهر القدس على المجاهدين... وقد عرفنا عن حيّ المغاربة بالقدس وفي غيره من المدن الشرقية سواء بمصر أو الشام...

وعندما قامت الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل بحج بيت الله الحرام 1143 = 1731 أقدمت على شراء عدد من الرباع بالرغم مما صادفها من اعتراض[4]، وقد كانت مبادرتها بإشارةٍ من ابنها السلطان مولاي عبد الله الذي بعث للبقاع المقدسة بهدايا ثمينة رفيعة كانت محل إشادة من السلطان عبد الحميد الذي كتب للسلطان سيدي محمد بن عبد الله في شأنها... يضاف إلى هذا صنيع السلطان مولاي عبد الرحمن الذي اشترى دارا معروفة الوصف والحدّ بمكة المشرفة وحبّسها على مؤذني المسجد الحرام[5].

ولم يكن أحد يعرف عن الأهداف البعيدة للتسابق المغربي لامتلاك الأرض في بعض تلك البقاع التي أصبحت مهددة من طرف المناوئين والخصوم الأجانب الذين رأيناهم يتهافتون على اقتناء حصص فيها تمهيداً للانقضاض عليها واغتصابها من ذويها.



4) د. التازي : أمير مغربي في طرابلس. مطبعة فضالة 1976 صفحة 87 ـ 102.

5) ابن زيدان : الاتحاف 5 : صفحة 126 ـ 132.

البعثات المقيمة بالمغرب

- ☐ اهتمامات الدبلوماسيين المعتمدين بالمغرب
- ☐ رعاية مصالح المواطنين التابعين للدول الأخرى مشاكل الحدود
- ☐ قضايا المغاربة الذين يتوفرون على (حماية قنصلية أجنبية) مشاكل الملاحة ـ مغامرات بعض الأجانب.
- ☐ تنافس الممثليات
- ☐ تحرك الدبلوماسيين خارج العاصمة الدبلوماسية وخارج المغرب
- ☐ الجنسية المزدوجة ـ تقاليد استيذان المبعوث السياسي عند إجازته السنوية
- ☐ درجة المبعوثين المعتمدين لدى المملكة المغربية
- ☐ توسيم الدبلوماسيين وتكريمهم عند المغادرة
- ☐ اعتماد المغرب على أخبار القنصليات
- ☐ تمليك الدور لبعض الدول الصديقة.
- ☐ توظيف الأجانب
- ☐ انحراف بعض المبعوثين ومعاملة المغرب بالمثل
- ☐ الحملات العدائية ضد الحكومة المغربية... ووسائل الردّ عليها...

البعثات المقيمة بالمغرب

وإذا ما حاولنا أن نأخذ فكرة عما كان يقوم به أعضاء السلك الدبلوماسي والقنصلي المقيمون بطنجة والقواعد الدبلوماسية الأخرى، فإننا سنجد أنهم علاوةً على متابعتهم للمحادثات وتوقيع الإتفاقيات ورفع التقارير لدوّلهم... يسهرون - في الفترات الأخيرة - على تسيير المحكمة القنصلية بطنجة، ويرعون مواطنيهم بمن فيهم رجال الدين والرهبان والجنود المرتزقة واللاجئون... إضافة إلى المحميين القنصليين، ويسهرون على التهيئة بين الحين والآخر لإرسال سفراء عن المغرب إلى الخارج، هذا إلى المراسلات المستمرة بين أعضاء البعثات وبينها وبين قناصلها ونوابها والموظفين القنصليين الموجودين في الجهات الأخرى من المغرب وتزويدهم بالتعليمات.

وابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر أضيف إلى هذا ضباط البعثات العسكرية الذين كان عليهم أيضا التفاوض مع المخزن، وجعْل الجهات المختصة في الدّول الأخرى على علمٍ بتطورات الحالة في البلاد.!

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فرنسا أصبحت منذ 1246 = 1830 جارةً للمغرب عوض الأتراك، فإننا نتصور المشاكل التي أثارتْها قضايا الحدود بين المغرب وفرنسا والتي كانت تحتل الدرجة الأولى ليس فقط

بالنسبة للبعثة الفرنسية ولكن أيضا بالنسبة للبعثات الأخرى التي كانت تتبع باهتمام الصراع الدبلوماسي والاشتباكات المسلحة بين المغرب وفرنسا...

وإلى جانب هذا نتصور جيداً قضايانا مع إسبانيا حول الحدود أيضا، وقد كانت بدورها مشغلة للمغرب ولاسبانيا وللدول التي كانت ترقب عن كثبٍ ما يجري على ثغورنا المحتلة بين المغرب واسبانيا...

وبالإضافة إلى قضايا الحدود التي كانت تمس الدولتين السابقتين فإن هناك مسألةً شملت صلتنا بسائر الدول، فكانت، نتيجة لذلك، مشغلة ـ أيّ مشغلة ! ـ لسائر الأطراف، وهي قضية المحميين القنصليين التي استدعت عدداً من التدخلات والمحادثات الطويلة، وقد كانت حدة المشكل تتجلّى بصفة أكثر عندما يتعلق الأمر بتماطل بعض المغاربة ـ لسببٍ أو آخر ـ في أداء ما وجب عليهم لبعض التجار الأجانب أو المحميين، فهنا نجد الشكوى ترفع للقنصل الذي يتوجه لقائد المدينة، وقد يتبع ذلك رفع القضية إلى البعثة السياسية في طنجة حيث تبتدىء سلسلة أخرى من المراسلات مع النائب السلطاني... وفي بعض الأحيان يكون على رئيس البعثة مثلاً أن يُسافر للعاصمة للحصول على تسوية ! وقد كان مما يشغل تلك البعثات أيضا القرارات التي تتخذها الحكومة من أجل تقوية مواردها وما تضطر إليه نتيجةً لذلك من الزيادة في الجمارك ومنع تصدير بعض المواد، فهنا أيضا نجد التدخلات والمنافسات...

ويضاف إلى هذا أن الملاحة الأجنبية كانت تتعرض أحيانا في بعض السواحل إلى عوائق طبيعية فتحرّث داخل الرمال، أو تتعرض إلى مطاردات وطنية لما أن تلك المراكب كانت تقصد جهاتٍ غير مأذون بالنزول فيها... فهنا أيضا يتحرك النشاط الدبلوماسي لصالح إنقاذ تلك المراكب وتحرير من يوجد على ظهرها..

وقد زاد في مشاغل البعثات القنصلية والدبلوماسية ما كان يثيره بعض المغامرين والطامعين من التابعين لتلك البعثات مما كان يسبب بعض الحرج والعنت الذي يزيد في إلهاب الحساسيات.

ونجد أن أحد النمساويين يحاكم من طرف قنصله بالرباط في سنة 1302 = 1885 وكان يقيم بالصويرة تحت اسم الحاج عبد الكريم بَاى - لأنه ادعى أنه ورد سفيراً لدى العاهل المغربي من طرف الأمبراطور النمساوي !.

ونجد أن أحد الإنجليز يستغل توصيةً به من العاهل البريطاني فيقوم بإنشاء مركز في الصحراء ظل عشرات السنين عقبةً كأداء في طريق الصداقة المغربية الإنجليزية وأفضى في الأخير إلى انفجار في المخ للسفير البريطاني !!.

وأخيراً يضاف إلى هذه المشاغل تنافس الممثليات بعضها مع بعض ومناورة هذه لتلك، وما كان يسببه هذا الصّراع من مشاغل للأطراف المعنية تتجلى في التدخلات والتوسلات والمراسلات المتوالية...

وقد كانت هناك «ضوابط» لمراقبة تحركات كل أولئك المبعوثين حيث نجد أن على الموظفين الدبلوماسيين أن يقيموا بالعاصمة الدبلوماسية، ولكن مع إعطائهم الحق في التنقل متى برّروا رغبتهم في ذلك حتى تؤمّن حركاتهم... كما نجد الموظفين الآخرين يقتصرون على المقام بمحل مأموريتهم في الموانيء الأخرى دون أن يسمح لهم بالاتصال بالجمهور في المدن الداخلية...

وكان مما عهدتْه الدبلوماسية المغربية أن تمنح للقناصل الأجانب في بعض الأحيان إذنا مؤقتاً وأحياناً دائما بالتنقل خارج العاصمة أثناء

كرامة من كرامات سيّدنا...

قدم على المغرب بعد مرور خمس عشرة سنة من إجهاز فرنسا على حكم العثمانيين في الجزائر، أنجليزيٌ يحمل اسم جوهن دافيدصن مصحوبا برسالة توصية بتاريخ 13 نونبر 1845 من الملك ويليام الرابع إلى السلطان مولاي عبد الرحمن : لقد كان يعتقد أن الوارد الجديد يقصد للقيام بزيارة سياحية في جنوب المغرب، لكنه لم يلبث أن عرف أن القصد إلى إنشاء مركز تجاري يصل بين بريطانيا وجبل طارق !!

وقد اصطدم المشروع بمقاومةٍ شرسة مرت بفترات عصيبة إلى أن انتهى الأمر إلى تصميم الملك الحسن الأول على تصفية الوجود الأجنبي، وقد كان مما حير القنصل البريطاني (كَرين) أنه وقد بلغت العلاقات نهايتها من الفتور - تلقى إشعاراً من العاهل بأنه يعتزم زيارة طنجة في شتنبر 1889 وأنه يرغب في أن يشهد عرضاً للأسطول البريطاني في البحر... وحسب القنصل أن التوتر في طريقه إلى الانفراج، لكنه لم يلبث أن علم بأن القصد من الزيارة المذكورة كان هو تأكيد الرغبة في تخليص الجنوب المغربي من الوجود البريطاني، الأمر الذي أدى إلى توتر الدبلوماسي البريطاني الذي أُصيب - فيما بعد - بانفجار في المخ أودى بحياته في طرفة عين يوم الثلاثاء 24 يبراير 1891 في الوقت الذي كان ينتظر فيه جواباً عن الإنذار الذي وجهه للحكومة المغربية بتنفيذ مطالبه.

لقد كتب صاحب المخطوطة المغربية يقول : (الحُلَل البهية) إن السلطان مولاي الحسن توجه إلى الله تلك الليلة وهو ينظر فيما يكون عليه الجواب صباح الأربعاء، حيث وصله نعي الدبلوماسي، وكان ذلك كما يقول المخطوط : «من كرامات سيدنا...»

قيامهم بمهامهم، وكان القصد بذلك مراقبة تنقلاتهم من جهة، وإظهار المجاملة لبعض الدول الصديقة من جهة أخرى، وفي مقابلة هذا نلاحظ صدور الأمر بحظر التنقل على من تحوم حوله الشبهات حسبما نراه في مراسيم ملكية أخرى...

وفي باب استقصاء الأخبار الخارجية نرى الدبلوماسية المغربية تربط لها اتصالاتٍ خاصة ببعض أعضاء السلك القنصلي من الذين تثق في رواياتهم حتى يزودوها بكل ما يجدُّ في الساحة الدولية على نحو ما نقف عليه في عدد من الرسائل الموجهة مثلا من عمر أيوب بوسدرة إلى القنصل الهولاندي : «وتخبرنا بما زاد ونقص ولا تغيب علينا خبراً قل أو جل..» وإلى قنصل آخر حيث يقول له : «ونحبك أن تعلمنا بكل ما يتخطر من الأخبار من بَرِّ النصارى ولا تغيب عنا شيئا قل أو جل...».

وقد كان من المجاملات المعهودة لدى الحكومة المغربية أن يقوم العاهل ـ بناءً على مبادرات طيّبة تظهر من دولة مّا إزاء البلاد ـ بتمليك مقر القنصلية لدولة معينة يقيم فيها القنصل أو من ترتبط به مصلحة بلاده «بحيث إذا ورد (باشادور) من جنسه أو رئيس من رؤسائهم ينزلون مع القنصل بالدار...» على حد تعبير بعض المراسم الملكية التي كانت تتعلق على الخصوص بالبعثة الهولاندية.

ولم يكن عند الحكومة المغربية مانع من توظيف بعض الأجانب في المصالح المخزنية، سيما فيما يتعلق «بكتب البراءات «الرسائل» العجمية التي تتوجه من عندنا لبرّ النصارى والتي ترد من بر النصارى، ومقابلة الباشا دورات والقنصوات والتجار وغيرهم من النصارى الذين يردون علينا فيكون هو الواسطة بيننا وبينهم» على حد تعبير أحد المراسيم الملكية...

انحراف بعض المبعوثين
وموقف المغاربة

وقد ابتلى المغرب في بعض الأحيان ببعض المبعوثين الذين لم يكونوا في مستوى مسؤوليتهم، ففيهم الذين أغلظوا القول ولفظوا بجارح الكلام، وفيهم الذين كانوا يحاولون «تمسيح» المواطنين على نحو ما حكى عن سفيرٍ لدى بلاط المغرب أواخر ملوك الموحدين، وفيهم الذين ضربوا بشعور الناس عرض الحائط على نحو ما رأينا من سفيرٍ أندلسي أخذ يتجاهر بشرب الخمر في قلب مدينة فاس ! وفيهم الذين خرقوا آداب القصور فدخلوا إلى ساحاتها على مراكب خيولهم على نحو ما رأينا من سفيرٍ على عهد السعديين، وفيهم الذين كانوا يمثلون دولاً تقف من المغرب مواقف عدائية وتنهال على المواطنين المغاربة فيها بشتى ضروب الإهانة، وفيهم الذين كانوا يحشرون بأنوفهم في الشؤون الداخلية للبلاد.

ولا ننسى أن في جملة ما كان يغضب المسؤولين المغاربة ويثير حفيظتهم ضد المبعوثين الأجانب أن في هؤلاء من كان يعمل على استغلال سذاجةَ قومٍ، وخصاصة آخرين ليقوم بتهريب الوثائق والاطلاع على الحقائق على نحو ما نراه من الاتصال المشبوه بين بعض المستشارين الأَجانب. وبعض المغرر بهم...

وقد دأبت الحكومة المغربية، احتياطاً منها وحذراً على أن تراقب اتصال المواطنين بمختلف القنصليات الأجنبية حتى لا تتسرب الأخبار ولا تذيع الأسرار. وقد رأينا بعض المستشارين في بعض السفارات يطلب الإذن له في أن «يحسن» لغته العربية على يد أحد الطلبة المغاربة من الذين رفضوا أن يعطوا دروساً قبل أخذ الإذن من السلطات المغربية.!

وفي الدبلوماسيين من أخذ يتطاول على رجال السلطة ويحاول أن ينصب نفسه حكَماً بينه وبين المواطنين ! وفيهم من بلغ عنه أنه كان يقوم بإعطاء صورة قاتمة عن المغرب مُغرياً بالتدخل لحماية «الحق الضائع» في البلاد؛ على أن فيهم من كان يقوم بمضاربات ومواربات تضر باقتصاد البلاد..!

وهنا كان المغرب يجد نفسه مضطراً لاتخاذ بعض التدابير التي يمليها الموقف ضد تصرفات مثل هؤلاء المبعوثين بمن فيهم السفراء أو الوزراء أو المفوضون، وهكذا كان يستعمل حقه في الإفصاح عن عدم رغبته في وجود هذا السفير أو ذاك القنصل على أرضه، بل - وهذا شيء جدير بالملاحظة - إلى أن يتعمد النّيل من السفير بمحضر زملائه من الدول الأخرى معاملةً بالمثل وإمعانا في التعبير عن عدم الرضا من موقفٍ سابق لدولة هذا السفير إزاء سفير مغربي !.

ويأخذ العجب منا مأخذه، عندما نقرأ في المصادر الأجنبية وبأسلوب مثير ومهول في الوقت الواحد عما تعرض له هذا السفير الأجنبي مثلاً وهو يعيش بين مجتمعات «معاديةٍ» من إهانة حيناً وتحدي حيناً آخر من دون ما أن تتعرض تلك المصادر إلى الأسباب التي أدت إلى تلك المواقف ! فهي لا تتحدث عن سفيرٍ مغربي قطع آلاف الأميال ليصل إلى بلاط لويز الرابع عشر، ثم يفاجأ بأنه «غير مرغوب فيه» في الوقت الذي كان فيه ممثل فرنسا بالمغرب «دوشيني» يحظى بأنواع التقدير !! وهم لا يذكرون أن ملك البرتغال كان يرمي برسائل السلطان المولى اسماعيل التي تطالب بالجلاء عن مدينة (الجديدة) في سلّة المهملات، بل لا يذكرون أن أسرانا كانوا يباعون بالمزاد العلني في ليشبونة !! وهم يتناسون أنه في الوقت الذي حجز فيه المغرب سفير الملكة (آن) كان قد بلغ لعلم الحكومة المغربية أن انجلترا قبضت على سفيرٍ مغربي !! وهم لا يذكرون أن ممثلاً لاسبانيا كان يقوم بوشايةٍ

خطيرة تهدف لنسف الوحدة الوطنية ! وهم لا يذكرون أن قنصلا إيطاليا سمح لنفسه بالقبض على موظف مغربي سامٍ بمدينة طنجة ! وهم يتناسون أن مندوبا أميركيا كان يتجر في بيع الحمايات القنصلية للناس دون علمٍ من واشنطون ! لقد كانت تلك المصادر تكتفي بأن بعض أعضاء السلك استهدفوا لإهاناتٍ كانت أخطر مما تلقاه ممثل فرنسا لدى الوالي التركي بالجزائر في حادثة المروحة !! لقد كنت أتتبع - بحق - مثل هذه المرويات وأتقفى أسبابها ودواعيها فكان يخطر ببالي المثل القائل : «إذا رأيت مقتولاً فالتمسْ العذر لقاتله» فإنه لم يُقدم على ذلك إلا بعد أن ذاق الأمرَّيْن وبعد أن استنفذ سائر ما عنده من وسائل...

ومع ذلك فقد كان المغرب يقوم بإجراءات للتنبيه أولاً على موضع الخطأ من المبعوث واشعاره بأنه هنا في المغرب من أجل «دعم الصلات» وليس لتخريب العلاقات، ثم يقوم المغرب بدور الإشهاد عليه والتشهير به قبل أن يقرر أنه (شخْص غير مرغوب فيه) ويكتب لدولته بهذا الصدد طالباً إليها أن تحسن اختيار نوابها في المستقبل...

وبمناسبة ذكر الرثاء على أولئك «الذين تعرضوا للإهانات» لابدّ أيضا أن لا ننسى رثاء آخرين على عددٍ من الأجانب و«المحميين» المغاربة ممن كانت البعثات القنصلية والسياسية تقف وراءهم لتطالب الحكومة المغربية بأداء مالهم من ديون على مواطنين مغاربةٍ ما طلوهم في الأداء... فإن أحداً من أولئك الذين يشتكون من «ضياع الحقوق» لم يصِخْ بسمعه إلى شكوى (المخزن) من امتناع أولئك الأجانب و«المحميين» من أداء ما عليهم من واجباتٍ للدولة !! كما لا ننسى شكواهم من مضايقة بعض الأجانب المتجوّلين خارج العاصمة من طرف المسؤولين المغاربة لأنهم أي الأجانب إنما كانوا «يقومون باكتشافٍ علمي في الأطلس» ! أو ببحوث علمية في العرائش أو ڤوليبيليس» ! مع أنه لم يكن هناك عقد بين المغرب وغيره للقيام بمثل تلك

«الاكتشافات» في قلب المغرب ودون ما مراقبة ! ولا بد أن لاننسى أولئك الذين قضّوا ردحاً من الزمان في المغرب فعادوا يكتبون عن «المآسي» التي عاشوها بهذه الديار وعن «المجازر» التي شاهدوها، ولكن من دون ما أن يجرؤ أحد منهم على إعطاء وصفٍ لما كان يعيشه أسْرى المغرب في ممالك أروبا من محن تفوق الوصف.. فقد كان فيهم الذين يجرون المطاحن على نحو ما تقوم به البغال والحمير... وكان فيهم الذين صلمت آذانهم وجذعت أنوفهم وسملت عيونهم..! وفيهم الذين تعرضوا للتّصفية الجسدية... ومن سوء حظّنا أننا لم نقف لحدّ الآن على مذكرةٍ لأسير مغربي قديم، ـ إذا استثنينا ابن القاضي ـ ولو أننا نتوفر على ما كان يلتقطه بعض سفرائنا أنفسهم من أخبار ومشاهد لأولئك الأسرى المغاربة، وهم يتعرضون لشتّى أنواع الظلم والقهر والبغي، وهم يلجمون ويلطمون ويصفعون ويسلسلون، ويمنعون ـ مع هذا ـ أن يرفعوا بأبصارهم إلى الأسياد !!.



من مذكرات ابن القاضي وقد وقع في قبضة القراصنة...

فمن مآثره الحسنة ومفاخره المستحسنة ما اتفق لي معه من إخراجه إيّاي من الأسْر حيث أُسرت في حال رحلتي لِمصر لأجل طلب العلم الشريف بعد أن استشرته، أيده الله تعالى، في ذلك وأذن لي، فسافرت في البحر متوجهاً للمقصود، فكان ما كان من أمر الله المعبود، في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين (وتسعمائة) فبعد ذلك لجأت إلى الله تعالى وتوكلتُ عليه وعلمتُ أن سبب خلاصي لا يكون إلاّ على يديه لما تحصّل عندي من عظيم فضله وكريم أصله، فكاتبته بأبيات حضرتني وهي :

تجلّت عن العاني الكسير المكبَّلِ	هموم سرت في الجسم في كلّ مفصل !
بذِكْر الإمام الهاشمي الذي سما	بسيمة خير الخلق في كل محفل !
بحق الذي أولاك ملكاً فنجّني	من الهَلك يا قصد الأسير المكبّل
وكنْ يا إمام العدل في عون خائرٍ	أسيرٍ كسير ذي جناح مذلل
لقد فرقت أيدي الزّمان وريده	ودارت عليه الدائرات كجلجل
وأخْنَى عليه الدهرُ من كلّ وجهةٍ	وداست عليه النائبات بأرجل

فما بلغت لديه إلاّ بعد أن تكفّلت همته العلية بإخراجي لأنّهُ أيده الله تعالى كان قد كتب في شأني لقواد الثغور لِيبحثوا عني وفي أيّ موضع مستقري من بلاد الكفرة أذلّهم الله تعالى... ولو تتبعت ما فعل بالكفرة من التضييق عليهم بسبب مسئلتي لما وسع ذلك هذه العجالة، وقد أخرجني في السابع من رجب خمس وتسعين، واستقام عليه فدائي بما يعادل عشرين ألف أوقية، وفرج عني وكربتي... وبلغت للحضرة العلية مراكش في يوم الإثنين الثامن من شعبان من عام تاريخه (1587/7/14)، وقمتُ بين يديه بإلقاء قصيدة نونية :

أنقذتَني من وثاق الأَسْر يا أملي	ومن هُموم لها في الصدر نُنْيَان !

عن مخطوطة المنتقى المقصور بالخزانة الحسنية رقم 1153 ـ الورقة 21 ـ

وضعية الدبلوماسيين الأَجانب بالمغرب

- □ الحصانة.
- □ حرية العقيدة.
- □ الإعفاء والمعاملة بالمثل.
- □ تيسير الحياة للبعثات المقيمة من العهد الموحدي إلى عهد العلويين.
- □ دور محمد الثالث في توضيح وضعية السلك الدبلوماسي بالمغرب.
- □ وظيفة قنصل من لا قنصل له.
- □ حق رفع الراية على مباني السفارات.
- □ حق فتح القنصليات في المدن الداخلية.

وضعية الدبلوماسيين الأَجانب بالمغرب

والمغرب كبلدٍ متعلّق بآداب الإسلام ما انفكّ منذ فجر تاريخه يمنح السفراء سائر ضروب الحصانة والحماية مهما كانت الظروف التي يتم فيها استقبالهم بل ويضمن لهم حريةَ القيام بشعائرهم الدينية على نحو ما يرغبون إضافةً إلى شيء ثالث وهو تيسير المقام لهم مع إعفائهم من أداء واجبات الديوانة فيما يتصل بأمتعتهم الشخصية...

وقد كان منطلق المملكة المغربية في هذا سيرة رسول الله ﷺ مع المبعوثين الواردين عليه، وتعاليم الإسلام التي كانت واضحة في هذا الصدد.

وقد نص الفقهاء في كتب الخراج على قاعدة المعاملة بالمثل في مسألة الإعفاء الجمركي فقالوا : «إذا كان أُولئك لا يأخذون من تجار المسلمين ولا من رسلهم شيئاً فإن المسلمين لايأخذون شيئاً كذلك[1]...»

ومن جهة أُخرى فقد قرأنا عن عدد من السفارات التي لقيت في المغرب صنوفاً من التكريم والترحاب، وسمعنا عن المؤرخين يروون عن

---

1) ورد في كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (113 ـ 182) نشر بنك الكويت الصناعي تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة أُولى عام 1405 = 1985 صفحة 293 : «قال : كتب أبو موسى الأَشعري إلى عمر ابن الخطّاب أن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر، قال فكتب إليه عمر : «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين...»

السفير ابن منقذ الذي بعث به صلاح الدين إلى المنصور الموحدي «أنه حُمل على مناهج البرّ والكرامة» بالرغم من تشغيب المشارقة على المغاربة آنذاك !!

وكما عرف الغرب نظامَ السفارات المقيمة بعد فتح القسطنطينية وظهرت تشريعاتٌ جديدة فيما يتعلق بالسفراء والقناصل والمبعوثين وما يتعلّق بالتحاكم بين أُولئك وبين المواطنين في حالة النزاع وما يتعلّق أيضا بحق امتلاك مكانٍ للإقامة يصبح تابعاً للدولة التي أرسلت بمبعوثيها، كان المغرب كذلك يعالج بمقتضى مدرسته القديمة ـ مثّل هذه القضايا، وهكذا وجدنا تلك «المدرسة» تعطي الإذن في تخصيص «فندق» يؤوي أعضاء البعثة كما تخصص لها «حماما» في يوم من الأَيام يختاره أعضاء البعثة حسب ما يشاءون، كما أنها وجدت حلاًّ لمشاكل التقاضي بين الجاليات الأَجنبية والمواطنين على ما أسلفنا...

☆ ☆ ☆

وسنلاحظ في هذا التاريخ تهافت الدول الأَجنبية وتسابقها لكسب موافقة المغرب من أجل قبول إقامة مفوضياتها واعتماد سفرائها لديه، حيث نجد أسماء عددٍ منهم منذ العهد الموحدي، وأنا على مثل اليقين من أن هناك أسماء أُخرى تغيب عن معلوماتنا، ترجع إلى ما قبل هذا العهد.

وهكذا وجدنا (بيدرو فيرنانديز دوكاسترو) معتمداً من طرف ملك ليون الإسبانية لدى بلاط يعقوب المنصور في العاصمة مراكش، حيث أدركه أجله هناك فخلفه ابنه ألفاربيريز...

وقد سمعنا عن وجود سفيرٍ مقيم لقداسة البابا إينّوصانت الرابع على عهد أبي حفص عمر المرتضى الموحدي بعد السفير الذي كان هو الآخر مقيماً ومعتمداً من طرف كَريكَوار التاسع.

وما من شك في أن عهد المرينيين شهد نوعاً من هذه المفوضيات الدائمة الأمر الذي يؤيده وجود دارٍ للسفارة البرتغالية بالعاصمة : فاس، كان يشرف عليها دي ڤركاش (De Vargas)، وفي أعقاب هذا قرأنا عن القنصل الفرنسي : گيوم بيرار الذي عيِّن من طرف أنريك الثالث ملك فرنسا ليلزم قصر السلطان المولى عبد الملك شهيد وقعة وادي المخازن وبطلها العظيم، وكان القنصل بالصدفة طبيباً، فكان على صلةٍ وثيقة بالبلاط السعدي.

وقد عينت إسبانيا بدورها على عهد المنصور السعدي وكيلاً استمرَّ مقيما بالمغرب لفترة طويلة كان هو الراهب (دييگوماران D. Marin حيث كان يقيم أيضا بالعاصمة مراكش... على نحو ما كان الأمر بالنسبة للمندوب الدائم للملكة إليزابيث الأولى في الفترة التي حكم فيها المنصور أيضاً...

وقد قامت إسبانيا بتعيين خلف لوكيلها السابق فشاهدنا ملكها فيليب الثالث يبعث بمندوب جديد هو لويس فيرنانديز الذي أدركه أجله بمراكش فعوض بناءً على رغبة العاهل، بوكيلٍ يحمل اسم فرانسيسكو دي كوسطا، وقد عينت فرنسا عدداً من القناصلة كانوا يقيمون في ثغر آسفي، نذكر منهم كاسطلان الذي سنعلم عن (أسطورته) مع مكتبة السلطان المولى زيدان، ولم تتخلف هولاندا عن المجموعة الأوربية وهكذا رأيناها ترسل بمندوب دائمٍ لها بمراكش كان هو (بيتر مارتييزكوى Coy) الذي استمر مقيماً بالرغم من المصاعب التي صادفها.

وقد كان لفيليب الثالث ملك إسبانيا مندوب مقيم بمدينة فاس أواخر دولة السعديين كان يحمل اسم مورطار حيث تم تعيينه برسالة اعتمادٍ وجهت من العاهل الإسباني إلى ملك المغرب تحمل تاريخ 24 أبريل 1608.

وقد تميزت أيام الدولة العلوية بأنها وضّحت، أكثر من الدول التي سبقتها للحكم، وضعيةَ السلك المعتمد بالمغرب وخولت له ـ بصفة قانونية ـ فتح مفوضيات دائمة بكل ما يتبعها...

وهكذا نجد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وهو الذي نعتت أيامه بأنها «الأيام الدبلوماسية بالمغرب»، في اتفاقيته مع الدانمارك عام 1166 = 1753 يخول للقنصل الدانماركي وسائر الرعايا التابعين للدانمارك حرية المقام بالسواحل المغربية والتجول بأطراف البلاد... كما نراه يخول لأنجلترا في اتفاقية 1173 = 1760 أيضا عدداً من الاختصاصات المماثلة للرعايا الأنجليز، وهكذا كان الأمر في اتفاقية المغرب مع السويد سنة 1176 = 1763 حيث نرى الفصل الأول من الاتفاقية يعطي سائر الضّمانات للمواطنين السويديين الموجودين في الإيالة الشريفة... كما كان الحال في اتفاقية المغرب مع البندقية عام 1178 = 1765 حيث نصت على أن القنصل في استطاعته أن يقيم بالمغرب متمتعاً بكل الحريات بما فيها رفع راية بلاده على مبنى القنصلية، وقد نصت اتفاقية مع اسبانيا عام 1180 = 1767 على تخويل حق إقامة قنصلٍ عام ونائب قنصل ووكلاء قناصل في كلّ الموانئ المغربية التي يقع عليها اختيار العاهل الاسباني... كما يخول لأولئك عدداً من الامتيازات التي أقرتها الاتفاقيات اللاحقة... وعلى نحو ما فعله العاهل مع إسبانيا، أعطى لفرنسا طائفة من الامتيازات... وكذا كان الأمر بمقتضى اتفاقيةٍ مع البرتغال سنة 1186 = 1773 حيث ينص الفصل الخامس عشر على أن القنصل العام الذي يعينه سلطان البرتغال له حرية التمتع بما يتمتع به القناصلة الآخرون، وهكذا في اتفاقية مع هولاندا 1191 = 1777 حيث نجد الإذن لحاكم الولايات العامة بإرسال قنصل أو عددٍ من القناصلة يقيمون بمختلف جهات المغرب... كما نجد في اتفاقية المغرب مع طوسكان (إيطاليا) بتاريخ 1192 = 1778 النص

الشرط التاسع عشر

الفونصوا البلنسيبار من اليوم الى الاخر خير له ان يعيش بحسب الخاطر
ولا يضره احد ولا يقهره احد لا في نفسه ولا في ماله ويجوز ان ياخذ الناس
الذين يحتاج اليهم مثل الترجمان والسمسار وغيرهم واذا اراد الفونصوا المذكور
ان يمشي لسفينته او يرجع من سفينته لا يمنعه احد والفونصوا الدار التي يسكنها
له ان يعمل فيها ما يحتاج اليه لدينه هو ومن معه من جنسه وله ان يتخذ معه فرايلي
ويجعل في داره سنجقا

من النّص الذي وقفتُ عليه في ڤينيسيا :
ـ حق رفع العلم فوق دار السفير ـ

على حريـة القنـاصـل في المقـام بـالمغرب ورفـع رايتهم على المبنى القنصلي... وهـو نفس مـا وجـدنـا في اتفـاقيـة المغرب مـع مملكـة الصقليتين عام 1194 = 1780 حيث نجد إعطاء الحق للقناصل الصّقليين في بناء مركز لمقر عملهم، الأمر الذي أكدتـه اتفـاقيـة 1196 = 1782 مع ملك صقلية ونابولي... وقد اتخذ نفس التّدبير في اتفـاقيـة مع النمسـا عـام 1197 = 1783 حيث نرى الفصل التـاسـع ينص على تخـويـل حـق نصب قنصل أو قناصل في شتى المدن المغربية.

وكان هذا نفس الموقف من الولايات المتحدة الأمريكية في اتفاقيـة 1200 = 1786 بمقتضى الفصـل الثـاني والثـالث والعشرين... واستمر الملوك العلويون على مـا سنتـه السيـاسـة الخـارجيـة التي وضع أساسهـا جدّهم سيدي محمد بن عبد الله، وهكذا التحقت بـاقي الـدول التي ظهرت على المسرح الدولي فيما بعد بالسلك الأجنبي، وتمتعت بمـا كـان يتمتع بـه من حقـوق وامتيـازات بمـا في ذلـك ألمـانيـا وبلجيكـا ودول أمريكـا الجنوبية.

وقد كانت أنجلترا أول الـدول التي حصلت على إقـامـة ممثليهـا في بعض المدن الـداخليـة علاوة على طـائفـة من الموانئ البحريـة في عهـد السلطـان المـولى عبـد الرحمن بن هشـام، 1239 ـ 1276 = 1822 ـ 1859 وقد تبعتها إسبانيا في هذا الامتياز في مطلع عهد السلطان سيدي محمـد بن عبـد الرحمـان، ولم يلبث أن امتلكت هـذا الامتيـاز عـدد من الـدول الأُخرى في مطلع القرن العشرين حيث وجدنا لألمانيا قنصليـةً في صميم فاس، مثلا بحومـة سيـدي بوجيـدة على مقربـة من بـاب بني مسـافر..! ووجدنا قنصليةً للنمسا ـ هنغاريا في كَرام برقوقة من حومـة المخفيـة ! وشاهدنا الأجانب يسكنون حومة الكدّان على مقربة من باب الفتوح !

ومن الطريف أن نقف في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله على وظيفة ديبلوماسية فريدة من نوعها : تلك أنه ـ وقد أصبحت معظم الدول الأُوربية والأَمريكية ممثَّلة لديه ـ رأى أن يجد طريقة لاستيعاب باقي الأُمم على وجه الأَرض، فأنشأ مكتباً يهتم بتمثيل الدول التي لم تستطع أن تبعث بقناصل لها للمغرب، كان المشرف على هذه المصلحة يحمل لقب : «قنصل من لا قنصل له» ! وقد كان «إيتيان أوديبير كاي» فيمن كلف بهذه المهمة، وان الذين يعرفون أن القضاء الإسلامي بالمغرب يعرف وظيفاً يحمل اسم : «وكيل الغياب» يهتم بحقوق الغائبين عن المجموعة، لا يستغرب إنشاء مصلحة تهتم بشؤون الدبلوماسيين الغائبين !!

وقد لا حظنا من خلال الاتفاقيات، أَن المغرب منح الحق في رفع (الراية) على المبنى منذ عهد الملك محمد الثالث، وهو الاعتراف الذي تجدد عند إبرام بعض الاتفاقيات اللاَّحقة، بالرغم مما أحدثه (رفع الراية) على المباني من رد فعل من طرف بعض العامة التي كانت تفسره على أنه تحدِّي، وخاصة بعد أن أصبح بعض القناصل يتجاوزن بدورهم حدود مهمتهم !!



العواصم المغربية الدبلوماسية

- □ حديث الأجانب عن الحدود - العواصم المغربية.
- □ سروج الجياد كانت العروش المفضّلة للملوك !
- □ فاس في إفادات أصحاب المذكّرات - الطابع الثقافي - قصور بني مرين - قصر دار الدبيبغ - فاس عند العثمانيين هي المغرب.
- □ مدينة مراكش أُمّ القرى - من مراكش يستمد الغربيون تسميتهم للمغرب - قصور الموحدين - قصر المسرّة - قصر البديع أُعجوبة من أعاجيب الدنيا - اهتمام الدبلوماسيين بهذا القصر - القبة العظمى لاستقبال الوفود - رسوم مراكش.
- □ مدينة مكناس عاصمة عجزت عنها الفرس واليونان والروم والعرب ! قصورها التي فاقت (المسرّة) و(البديع) - زلزال 1755 - 1169.
- □ تازة عاصمة السلطان مولاي رشيد.
- □ مدينة سلا.
- □ الدار الكبرى بمدينة الرباط على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن.
- □ تطوان - بادس - العرائش - طنجة العاصمة الدبلوماسية، زُوّارها من الملوك.
- □ سبتة مركز ديبلوماسي قديم.

العواصم الدبلوماسية...

وقد اهتم الأَجانب، وهم يزورون بلادنا، بالبحث عن تاريخها وجغرافيتها وبخاصة قواعدها وعواصمها الدبلوماسية، وقد أثاروا الإنتباه فعلاً لبعض النواحي وبعض القصور أَو الخيام الملكية التي كان الإستقبال يتم فيها...

لقد تحدثوا عن هذا المغرب، كلٌّ حسب الظروف التي زار فيها البلاد، وكلّ حسب مقدرته ومعرفته وإطلاعه حول ما قيل عنه من طرف المؤرخين، فبعضهم تحدث عن مغربٍ يمتدّ من برقة إلى المحيط أُفقياً، ومن الأندلس إلى جبال الذهب من بلاد السودان عمودياً... وبعضهم تحدث عن مغربٍ يخطب فيه باسم الملك على نحو ألفي منبر ! على أَن بعضهم ـ وخاصّةً في الفترات الأَخيرة ـ كان يرى أن من مصلحته أن يحجّم المغرب وفقاً لأَطماعه، وفي غياب أهله الأَمر الذي أرّخ بداية الصراع بيننا وبين الدول الاستعمارية المجاورة...

أَما عن القواعد التي كان يتم فيها الإستقبال، فقد كانت من الكثرة بحيث لا يستوعبها العد، لأَن ملوك المغرب ـ ومعظمهم كان عرشه على متن جواده ـ كانوا يتنقلون عبر البلاد، فهم تارة يستقبلون السفراء في إشبيلية وتارة بتونس وأُخرى في تلمسان وفاس ومراكش... وأحيانا داخل الفسطاط الملكي الذي يُنْصَب على بسيط من الأَرض أثناء رحلة أو حركة...

ولكنا مع ذلك سنحاول هنا أن نستخلص من خلال هذا التاريخ، أهم المراكز المغربية التي كانت مقصدا للسفراء والبعثات الأَجنبية.

والواقع أن كلّ دولة من الدول التي تعاقبت على حكم المغرب كان لها على الأَقلّ عاصمتان تقضي فيهما أيام السنة : فاس في الشمال ومراكش في الجنوب، وإلى جانب هذه وتلك، ظهرت لهم عواصم أُخرى لا تقلّ أهمية عن السابقتين...

ولقد شهدت جدران فاس عدداً من السفارات والبعثات التي كانت تردُ سواء من بلاد أُروبا أو بلاد المشرق أو من تخوم إفريقيا، ومن أجل ذلك فإن الحديث عن فاس مسهب وطويل في إفادات الأَجانب والزوار... وقد نقل عن المراكشي صاحب المعجب بأنها «بغداد المغرب»، وأشار القلقشندي لما تحدث به السفير ابن منقذ سفير صلاح الدين لدى المنصور الموحدي... ووصفها باديا لوبليش (B. Leblich) بأنها بالنسبة لإفريقيا، من حيث مركزها العلمي، كمدينة أثينا بالنسبة لأُوربا، وقال عنها كَابرييل شارم (G. Charme) في كتابه (سفارة إلى المغرب) : إنها مقصد الناس من سائر جهات إفريقيا... ويقول عنها ريكار (Ricard) إن جامعة فاس هي السُّوربون المغربية... وقد أخذت مفاتن المدينة بأحد المبعوثين الذين تحدثوا عنها على نحو ما تحدثوا به عن دمشق الشام : مما رواه ابن بطوطة :(1)

«إذا كانت الجنة في عنان السماء فإن هذا السماء هي سماء فاس، وإذا كانت على ظهر الأَرض فهي بدون شك رقعة فاس.! وإذا كانت في باطن الأَرض فهي في قلب فاس !».

---

1) إن تكن جنة الخلود بأرضٍ   فدمشقّ ولا تكون سواها !
إن تكن في السماء فهي عليها   قد أبدت هواءها وهواها

وقد عمد بعض الدبلوماسيين إلى وصف القصور الملكية بفاس ومعظمها يَرجع لعهد بني مرين، فخططوا تصاميمها مقارنين، وفي الكتاب الأَجانب من اهتم بجمال ضواحيها، وبعضهم اهتم ببعضِ خلال أهل فاس، فهم، بالرغم من أنهم جميعاً غرباء عليها، لكنهم ـ بعد أن يستقروا فيها لبعض الوقت ـ يشعرون بأنهم من أهلها، لكنهم لا يتحملون الطارئ عليهم إلا إذا فرض نفسه عليهم بعطاء من علم أو فن أو استقامة في السلوك أو شجاعة في القول... فعندئذ يفتحون قلوبهم له ويصبح محلّ اعتزازهم..!

ولكثر ما اشتهرت (فاس) كعاصمة، نجد أن الأَتراك لا يعرفون المغرب إلى اليوم إلا بذكر فاس ! وهكذا نجد كلّ أرشيفاتهم وسائر تقارير سفرائهم لاتميز بين إيالاتهم من جهة وبين ممالك أُروبا، ومملكة المغرب إلا بكلمة «فاس حكومةِ» أي حكومة فاس.

وأن القصور الملكية بفاس لا تكفي جولةٌ واحدة لاستيعاب بعض أبهائها وعظمتها ولكنها بحاجة إلى وقفات تأمل فيما تحتضنه من فن وروعة ومنعطفات ومنعرجات، ولا نقصد بقصور فاس ما تشتمل عليه فقط منطقة فاس الجديد، ولكن أيضا (قصرُ دار الدبيبغ) الذي كان مقاماً للسلطان المولى عبد الله، حيث استقبل فيه عدداً من البعثات والوفادات، وكذلك (قصر رأس الماء) الذي كان بضواحي المدينة و(قصر البطحاء) الذي أمسى اليوم متحف فاس.

وقد اهتم الدبلوماسيون أيما اهتمام بالعاصمة : (مراكش أُم القُرى)، أَو مَرُّوكُش (MARRUECOS) كما يضبطها الأَمير عبد الله بن بُلقين في مذكراته. لقد كانت في أيام المرابطين والموحدين كعبةَ الزوار من سائر

جهات العالم غربه وشرقه، وعرف (قصر المسرّة) منها مئات الوفادات ومئات الواردين من شتى الاتجاهات والمستويات، ولْنتصور عاصمةً كانت تنفذ كلمتها عبر آلاف الفراسخ والأَميال، ولْنتصور عاصمةً كانت تشهد في الوقت الواحد عدداً من البعثات التي تنتظر دورها في مقابلة العاهل. وقد عرفنا جيداً عن المؤسسات العظيمة التي كانت بمراكش على هذا العهد، وقد أصبح (قصر البديع) بها مزارة محببة لمختلف البعثات السياسية التي تقاطرت على المغرب أَيام السعديين وقد اعتبرت جميعها أن «البديع» إحدى عجائب الدنيا... لقد مهد الوزير الفشتالي للحديث عن هذا القصر بقوله : «إنَّ المنصور أَخمد به ذكر ما صنعه بنو العباس ببغداد، وبنو مروان بالشام، وبنو عُبيد بالقاهرة... وسائر ما يعزى إلى أولي السلطان الأَكبر من القياصرة والأَكاسرة». ولقد خشي الفشتالي مع ذلك أن لا يكون قد وفى بحق الوصف، فاعتذر للذين يقفون من بعده على هذا الأَثر الجليل، فيجدونه «أجلّ وأعظم وأفخر وأبهر وأخطر وأرحب وأوسع مما قرأُوا» على حد تعبير الوزير المذكور.

لقد كانت المميِّزات الأُولى للقصر السعدي، هذا العدد العديد من القباب المفروشة الأَراضي والجدران بمختلف أشكال زرابي الفسيفساء، من شتى أنواع التصاميم وكانت القباب تحمل أسماء جميلة ونعوتاً دالة، فهنا قُبة الخَمْسينية، وقبة الذهب، وقبّة النصر، وقبّة التيجان، والقبّة الخضراء، والحمراء، والبيضاء، والقبة العظمى التي أمر العاهل باختطاطها لاستقبال الوفود المتتالية من الممالك القاصية من المشارق والمغارب، ولا ننسى في هذا الصدد الدّولاب العظيم، والمصعد الذي كان يحمل الطعام من المطبخ إلى حريم القصر في الطبقة العليا..!

وقد استقبلت فيه سفارة وردت عن هولاندا برئاسة السفير أنطوان دوليدكيرك (A. Liedekerke) حيث قام الرسّام أدريان ماثام بوضع رسوم

بديعة (لمراكش)[2]، كما زاره السفير البرتغالي (سيلفا) الذي أذن له العاهل المولى إسماعيل بالتجوُّل فيما كان تبقى من معالم القصر... إن الحديث عن قصر البديع مشوق ومطرف وقد كان يطغى على بقية القصور الرفيعةِ الرائعةِ التي عرفتها مدينة مراكش وضواحيها مما كان يتمّ فيها استقبال السفراء بعد اختفاء قصر البديع، وإن ما قيل فيه من دواوين الشعر ليعبّر وحده عن عظمة هذا القصر، وقد تحدث بعضهم أوائل القرن السابع عشر عن مراكش فقال : إنها أعظم من مدينة باريز وان سكانها كانوا يناهزون نصف المليون نسمة..!

وسننتقل إلى مكناس العاصمة التي عرفت نشاطاً دبلوماسياً مكثفا منذ عهد السلطان المولى إسماعيل فمن بعده من الملوك، بعد أن كانت كرسيّ الوزارة في عهد بني مرين... لقد وجد السفراء الأجانب فيها مرتعاً للحديث المسهب، بما كانت تحتضنه من قصور وديار وحدائق وحقول، كانت تُعبّر عن عظمة الحكم ومركز الدولة وقد أنشد ابن عبدون قديماً حول مظهرها ومخبرها ما رواه ابن الخطيب في (نفاضة الجراب) :

إن تفتخرْ فاس بما في طيّها ... وبأنّها في زيّها حسناء

يكفيك من مكناسةٍ أرجاؤها ... والأطيبان : هواؤُها والماء !

لقد اتخذ السلطان المولى اسماعيل من مكناسة عاصمةً «تعجز عنها الدول القديمة والحديثة من الفُرْس واليونان والروم والعرب والترك، فلا

---

2) كان مما اهتم به الرسّامون الأجانب بعض المناظر مما كانوا يرون فيها تعبيراً عن الجوانب الأُخرى من الحياة المغربية كرسم المتسولين بأبواب المساجد... وتحضرني نكتة بهذه المناسبة فقد ورد على المنصور العباسي سفير من الروم فلاحظ على الجسر خلقا من الزّمْنَى يسألون ومع أن في إمكان الدولة إيواءهم، فلما سأل المنصورَ عن ذلك أجاب : أحببت أن لا أستأثر على سائر رعيتي ممن صحّح الله جسمه، فتركت السبيلَ إلى الصدقات واصطناع المعروف فأجاب السفير بلغته : قالون، قالون يعني جيّد جيّد !

يلحق ضخامةَ مصانعها ما شيَّده الأَكاسرة بالمدائن، ولا الفراعنة بمصر. ولا ملوك الروم بروماة والقسطنطينية، ولا اليونان بأنطاكية والأسكندرية، ولا ملوك الإسلام ودوله العظام كبني أُمية بدمشق، وبني العباس ببغداد والعُبَيديين بإفريقية ومصر، والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين بالمغرب، وما ((بديع المنصور)) بقصرٍ من قصوره ولا (بستان المسرة) بأحد بساتينه». على حد تعبير المؤرخين !

ولقد نالت مكناس حظها الأَوفر في تقارير السفراء الأَجانب، وقد خصصت لها التقارير الفرنسية صفحاتٍ مطولة بمناسبة وفادة جان إستيل وسفارة سانت ألون، واهتمت بوصف قصورها سفارة ستيوارت التي وردت من أنجلترا، فوصفتها وصفاً دقيقاً، يؤيد ما أسلفناه مما ردده المؤرخون المغاربة..

وإذا كان قصر البديع في مراكش قد تعرض لعمليات الإبادة، فإن قصور مكناس ـ بما فيها قصر الرياض ـ استهدفت بدورها لأَعنف زلزال عرفه تاريخ المغرب، ويتعلق الأَمر بزلزال أول نونبر 1755 = 26 محرم 1169 الذي أشار له المؤرخون المغاربة وأصحابُ الفُتْيا بصفة عابرة،[3] والذي أعطاه حظه من الوصف أسير من السويد، يحمل اسم ماركوس بيركَ في مذكراته عن حياته بالمغرب، أَيام السلطان المولى عبد الله، فلقد تحدَّث عما بلغ من أخبار محزنةٍ لفاس عن مكناس : عاصمة (لابارباري (LABARBARIE) وقال : إنها انهارت جميعها على أصحابها بما تحتويه من مباني، وأن أكثر من مليون (كذا)[4] من

3) تحدث الشيخ التاودي ابن سودة في نوازله عن أن الزلزال العظيم، هدم الرباع والأَوقاف وتعطلت بسببه الصلوات الخمس في كثير من مساجد مكناس لدرجة أن السلطان محمد الثالث أَذِنَ ببيع بعض الأَوقاف لإصلاح مسجد مكناس الأَعظم.

4) يقدر ابن زيدان عدد الهلكى عشرة آلاف. الاتحاف 4، 464 ـ 465.

المغاربة، منهم المسلمون واليهود، فقدوا أرواحهم أثناء هذا الزلزال المدمر..!

وبإزاء فاس ومراكش ومكناس نذكر تازة التي كانت عاصمة للسلطان المولى الرشيد حيث استقبل فيها أيضاً عدداً من الواردين الأجانب عن لويز الرابع عشر ملك فرنسا. بعد أن كانت منتجع ملوك بني مرين...

كما نذكر مدينة سلا التي أصبحت (عاصمة وزارة البحر) على نحو ما كان في العهد الإسماعيلي بعد أن كانت سلا عاصمة لأبي عبد الله العياشي وللدلائيين من بعده أيام تفكك الحكم السعدي... هذه المدينة الصغيرة التي حيَّرت العالم في وقتٍ من الأوقات مع أن ميناءها يخيل إليك أنك تستطيع وضعه في جيبك وتسافر به !!

وقد رأينا السلطان سيدي محمد بن عبد الله ينشيء في الرباط «الدار الفيحاء» على مقربة من جامع السنّة الحالي، كانت نواة للقصور الملكية الموجودة داخل المشور الملكي اليوم.

وعندما تولى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بني كذلك داره الكبرى «القصر المحمدي» وجَلَبَ إليها الماء من عين غُبُولة في ممراتٍ محكمة ما تزال آثارها ماثلةً عند حديقة الحيوانات الحديثة النشأة[5]

وقد اشتهر بين العواصم التي أقامت فيها (وزارة البحر) عددٌ من الثغور المغربية، كان في أقدمها مدينة بادس التي سجلت لها في يناير 1508 صلات مع فينيزيا، ثم تطوان سنة 1680 ومدينة العرائش...

---

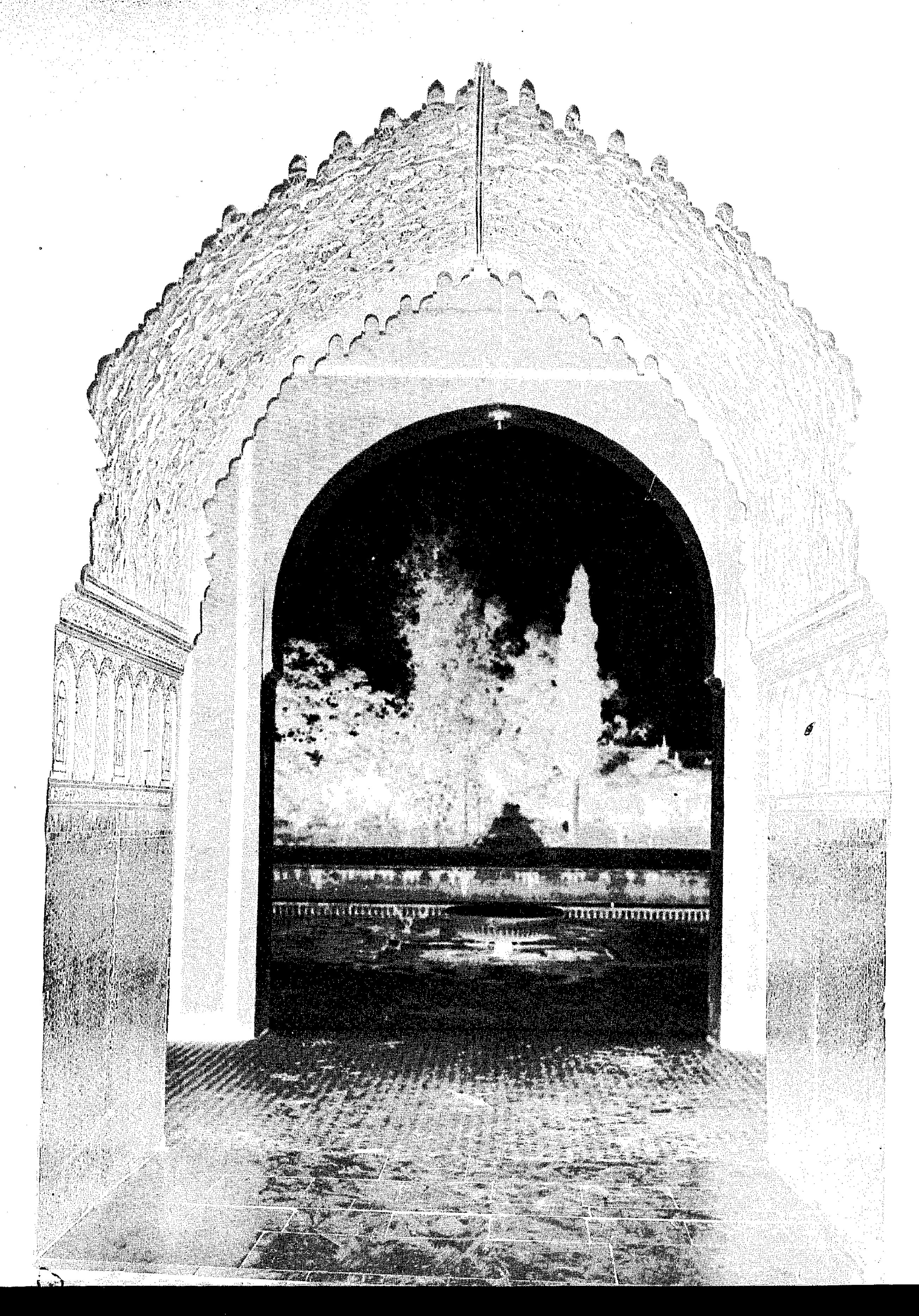
5) الاستقصا ج 9 ص 115 ـ 127 ـ J. Caillé : Rabat T.I p. 542.

بسم الله

من الخليفة المرتضى عبد الله القائم بالله المنصور بالله
أمير المؤمنين الشريف الحسني المالك بمعونة الله مولاي الرشيد
حفظه الله بمنه

إلى القبطان رولان فريجيس فوصلنا كتابك طالباً
الإذن في الوصول إلى حضرتنا وقرأناه بذلك وأعطيناك
الأمان في قضاء ما أتيت من أجله وإذا وصلت بلادنا تجد
بحول الله إلا الأمن التام والسلام على من اتبع الهدى
كتب في تازة أوائل شوال عام 1076

إحدى الرسائل الدبلوماسية التي صدرت من تازة عاصمة السلطان مولاي الرشيد وكانت موجهةً إلى رولان فريجيس مبعوث ملك فرنسا، وتحمل تاريخ أوائل شوال 1076 = (أوائل أبريل 1666)، ومما يذكر أن المهتمين بالسِّجِلُّوغرافيا المغربية لم يعثروا إلى الآن على خاتم للسلطان مولاي رشيد رحمه الله.



جانب من القصر الملكي بمدينة مراكش

الحمد لله وحده، سلام كريم بر عميم يخص به الحسيب الأمجد المكرم
المجد [illegible] البنادقة كلها وشيخها [illegible] الذي [illegible]
الكريمة الله من الراجي رحمة ربه والمتوكل عليه في جميع أموره [illegible]
كان الله له ولطف به في قوله وعمله، أما بعد فلتعلموا أننا
كتبنا لكم من مدينة باديس أسعدها الله ونحن نخبركم بوصول الكراكة
متاعكم للعند تاعي العام الماضي عام اثني عشر وتسعماية وعملنا
معهم من الخير الذي قد رأوا عليه، ثم أن الكراكة جاءوا في هذه
السنة الثانية وقد فرحنا بمجيئهم وبمجيء الفيطان [illegible]
فرحنا أيضا بكتبكم بأنه معروف عند ناس هذه البلاد كلها وهو خلق
مليح جاري في كيف يفعل الخير مع النصارى والمسلمين وكل ما طلب منا [illegible]
[illegible] بيننا وبينكم فعلناها معه كما أراد وتمام [illegible] منكم
وقد عرفوكم أن تنزلوا الكراكة في فصل الخريف لما أن الكراكة جاءوا
للعند تاعي في فصل الشتاء وباعوا واشتروا وما [illegible] تعطلوا التجار
متاع المسلمين ما جاء للعند ناسهم إلا القليل مع [illegible] الثلج والشتاء
فلذا [illegible] الله تنزلوا الكراكة في زمن الخريف وتجيوا للعند تاعي التجار
المسلمين يبيعوا معهم ويشتروا كيف تحبوا إن شاء الله حتى يبعثوا
تجاركم [illegible] تجار [illegible] بعون الله وما يكون لكم من حوائج
عندنا تقضوها لكم بعون الله وقد أرسلنا لكم مع الفيطان
نصرانيا أسيرا كان عندنا [illegible] أطلقناه لكم كرامة لوجهكم
فاعلموا ذلك وهذا ما وجب به إعلامكم والسلام
بتاريخ التاسع عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر
وتسعماية

من النص الذي وقفت عليه في أرشيف الدولة بالبندقية

نص الرسالة التي بعث بها أمير بادس
إلى دوك البندقية
بتاريخ 19 رمضان 913

الحمد لله وحده، سلام كريم بر عميم نخُصُّ به الحسيب الأفضل المكرم الممجد ضيف البنادقة كلِّها وسيِّدها ذلك الدك لُنَرْدُ لُرْدَان أكرمه الله.

من الراجي رحمةَ ربه والمتوكل عليه في جميع أُموره كان الله له وأصلح قوله وعمله.

أما بعد فإنا نعرّفكم بأنا كتبنا لكم من مدينة بادس أمنها الله ونحن نخبركم بوصول الطرائد متاعكم لعندنا في العام الماضي عام اثني عشر وتسعماية وعملنا معهم من الخير الذي قدرنا عليه.

ثم إن الطرائد جاؤونا في هذه السنة الثانية وفرحنا بمجيئهم وبمجيء القبطان لوِز بِزَمان فيهم فرحنا أيضا به كثير لأنه معروف عندنا في هذه البلاد كلها وهو رجل مليح حاذق كيّس يعمل الخير مع النصارى والمسلمين وطلب منا معاقدة شروطٍ بيننا وبينكم فعملناها معه كما أراد.

ولكن نحب منكم ونرغبوكم أن ترسلوا لنا الطرائد في فصل الخريف لأن الطرايد جاءوا لعندنا في فصل الشتاء وباعوا واشتروا ولكن تعطلوا التجار متاع المسلمين ما جاء لعندنا منهم إلا القليل منعهم الثلج والشتاء فإذا سخَّركم الله ترسلوا الطرائد في زمن الخريف ويجوا لعندنا تجّار المسلمين يبيعوا معهم ويشتروا كيف تحبون إن شاء الله حتى يمشوا تجاركم راضين وتجارنا كذلك بعون الله.

وما يكون لكم من حوائج عندنا نقضوها لكم بعون الله وقد أرسلنا لكم مع القبطان نصرانياً أسيراً كان عندنا فأطلقناه لكم كرامةً لوجهكم.

فاعلموا ذلك وهذا ما وجب به إعلامكم والسلام...

بتاريخ التاسع عشر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر وتسعماية...

كلاهما كان لها شأن قوي في تنشيط علاقات المغرب الدولية، قبل أن تنتقل العاصمة الدبلوماسية بصفة نهائية إلى مدينة طنجة.

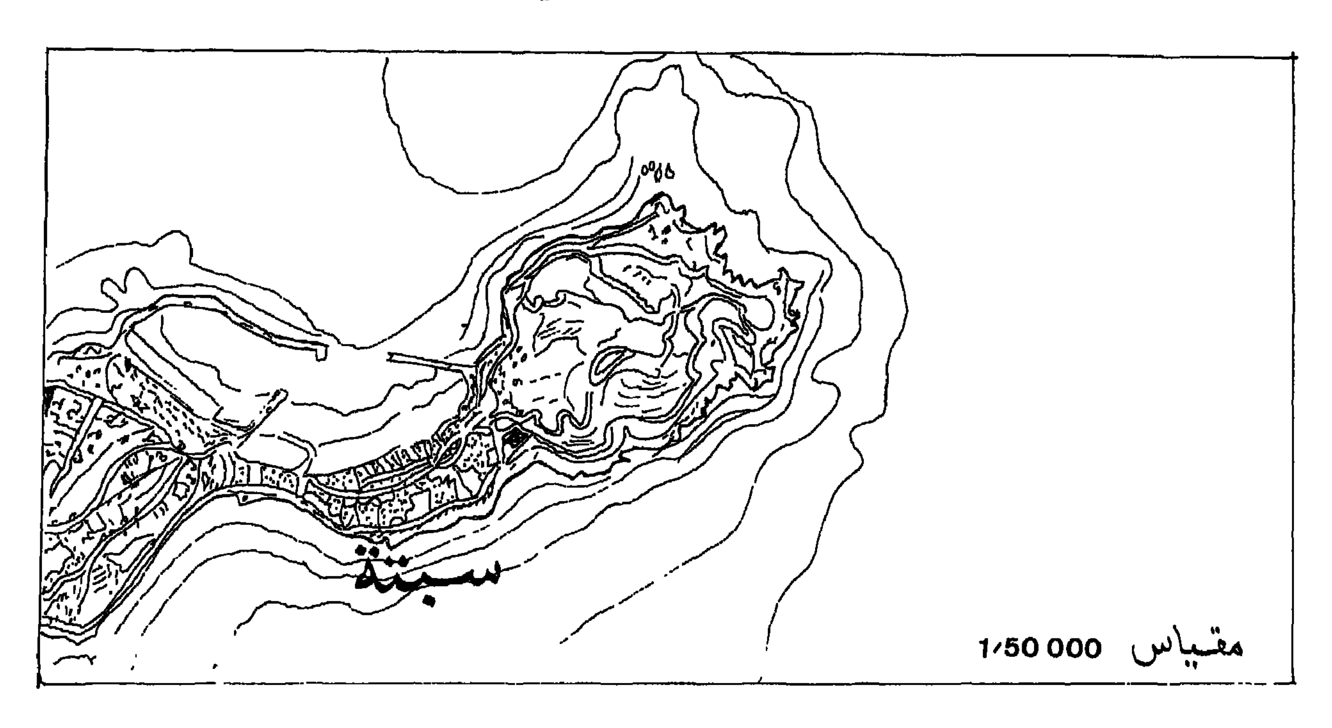
والواقع أن طنجة، بحكم أنها مدينة أزلية، حجبت أهمية الثغرين السابقين، لأن وجود جبل طارق وإسبانيا قبالتها وتمكنها من ناصية البحرين معاً. وطقسها الذي يجمع بين مناخ الساحل والداخل والجبل... كل ذلك جعلها مهوى أفئدة الجميع وكان على رأسهم الرحالة المغربي الشهير ابن بطُّوطة صاحب السمعة الدولية المعروفة.

لقد أصبحت بالفعل مقرّاً (لدار النيابة) منذ عهد السلطان المولى عبد الرحمان عام 1267 = 1851... الذي لم يلبث ولده السلطان سيدي محمد أن أعطى نائبه بها لقب وزير الأمور البرانية...

وقد عرفت طنجة زيارةَ عددٍ من الملوك المغاربة وبخاصة المولى اليزيد وكذا المولى سليمان الذي راح في مهمةٍ تتعلق بالتوتر الذي ساد العلاقات المغربية الأمريكية بعض الوقت، وقد زارها كذلك السلطان مولاي عبد الرحمان... وكذلك المولى الحسن الأول الذي زارها أيضا أثناء المفاوضات المغربية الإنجليزية حول الجلاء عن الموقع الذي احتلّته شركة بريطانية في جنوب المغرب... حيث تم استقبال عدد من الدبلوماسيين الأجانب بالقصر الملكي هناك... كما عرفت الزيارة التاريخية التي قام بها جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف (الملك محمد الخامس) أثناء فترة الحماية الفرنسية، تلك الزيارة التي كانت بداية نهاية الاستعمار... ومن جهة أُخرى فقد عرفت المدينة زيارة عدد من ملوك وأُمراء أُروبا كان في أبرزهم دون خوان في أوائل عهد المرينيين وعدد من الأُمراء البرتغاليين والإنجليز... إلى أن زارها امبراطور ألمانيا في مطلع القرن العشرين...

ومن المراكز الدبلوماسية القديمة مدينةُ سبتة المغربية التي حلّقت في فنادقها التجارية ومنشآتها الحضارية ومدارسها الجامعية ومعالمها الأثرية وجمالها الرائع... وقد أعطاها أحدهم تشبيهاً لا يمكن أن يخطر على بال أحد غير الذين رأوا المدينة في طائرة من أعلى الجو، أو على الأقل الذين شاهدوا رسمها على الخريطة، وهكذا نرى مالك ابن المرحّل يشبه تصميمها الطوبّوغرافي بشكل عود غِناء منبطح على بطنه.

أخطر على سبتةٍ وانظر إلى جمالها تصبو إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقى في البحر على بطنه !!





انطباعات الزوار الأجانب
عن بعض مظاهر الحياة المغربية

- ألعاب الفروسية ـ مصارعة الأسود ـ الصيد بالصقور
- مواكب الشموع بمناسبة عيد المولد النبوي ـ ساعة الشمعة !
- الفولكلور المغربي ودلالاته ـ المصاقرة ـ المدارعة ـ المقارعة
- عادة سلطان الطلبة ـ الصناعة التقليدية والذوق المغربي
- الزرابي والمجوهرات ـ آثار الهندسة الهيدرولوجية ـ دواليب فاس في شعر السفير ابن الخطيب
- الساعة المائية ووصف الشعراء ـ العبّارات الفضائية
- مسح الأرضين
- توزيع المدن ـ وضع الخرائط...
- ـ ليلة القدر ـ عيد المهرجان ـ يوم العنصرة ـ
- ـ مراسيم صلاة الجمعة ـ سلوك المغاربة بعضهم بعضا :
- إذا أردت أن تعاقب محاميا فابعثْ به إلى المغرب ـ
- تعطيل يوم الجمعة ـ يوم عاشوراء بالمغرب.

انطباعات الزوار الأجانب
عن بعض مظاهر الحياة المغربية

ولم يغفل الكثير ممن زاروا المغرب من الأجانب، سواء منهم المبعوثون السياسيون أو الرحالة العابرون جانب «الفنون الشعبية» التي كانت أصنافها تختلف من طبقة إلى طبقة، ومن مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية... وكلهم تقريباً حضر ألعاب الفروسية التي كانت خير معبّر عن هواية المغاربة وتمرسهم في الحروب والقتال، واستدعى هذا منهم أن يُغرقوا الوصف في تقاليد وطقوس هذه الألعاب، وكانوا يعبرون عن الشعور بالمتعة وهم يحضرون الاستعداد للانطلاق ومراوغة الخيول وإظهارها، لأول مرة، عدمَ الانصياع ثم لا تلبث أن تأخذ بعنان الريح وعلى ظهورها فرسان بارعون التصقوا بظهور الجياد التصاق المتمرن المعتاد إلى أن تصدر طلقات البارود في الهواء... كما أثار انتباه بعضهم وخاصة من المشارقة لعبة مصارعة الأسود التي كانت تتم بمحضر ملوك بني مرين حيث يتصدّى اللاعب ـ وهو داخل كرة مستديرة من خشب يحركها من وسطها ليصل إلى الأسد فينخسه بحديدة، فيظفر بها الأسد طامعاً في المحتال فتدور الكرة باللاعب، حيث يقول ابن عبد المنّان :

ومحتال فيْ جوف دائرة طوت	أضلاعها منه على شهم فتى
يحكي بها رَأْلاً ببيضةِ سبسب	لم تنفرج عنه فأنهدها كُوَى
يمشي الهُوَيْنَا وسطها فتُقلّه	عدواً وما إن تشتكى ألم الجَوَى
حسب الغضنفرُ مرتقاها كعبة	فدنا يطيل بها الطواف وقد سعى !

وقد تحدثت التقارير الدبلوماسية بإعجاب عن نوعٍ سام رفيع من أنواع التسليات ويتعلق الأمر بهواية الصيد التي كان لها بالمغرب رجالها من سائر الطبقات في مختلف العصور... وعلى شتى الطرق... وقد اهتموا خاصة بصيد الحُبَارَى بواسطة الصقور، هذه التسلية التي تحتاج إلى رقة ودقة وصبر واحتمال... والتي كنا نتهادى الخبرة فيها ونتهادى أدواتها وتجهيزاتها مع ممالك أُروبا.(1)

وقد تحدثوا عن مواكب الشموع التي تنظم بمناسبة أعياد المولد النبوي سواءً في مدينة سلا أو فاس أو مراكش حيث كانت تنظم مظاهر الفرح بهذه المناسبة وتتبارى قرائح الصناع في تركيب الشموع الضخمة الملفوفة في قراطيس منقوشة بطرقٍ هندسية بديعة دقيقة، حيث تصنع لتلك الشموع محامل خاصة ترفع على الكواهل على مرْأًى ومسمع من الجمهور قبل أن تهدى لضريح من أضرحة المجاهدين أو الصالحين الواصلين على ما أشرنا.

وقد وجدوا في المهرجانات والعادات الشعبية المنتشرة في جنوب المغرب وشماله، شرقه وغربه ما يوحي بالتأمل والدرس، والواقع أن المغرب يتوفر على ثروة جد مهمة في هذا الصدد، والجميل فيها أنها تترجم لمختلف العصور وتعبر عن نزعات كلّ قبيل سواء في جبال الأطلس أو تخوم الصحراء... وسواء بهذه المناسبة أو تلك...

وقد بلغت تلك العادات القمة في التعبير الرمزي عن واقع تلك الفترات من العهد المرابطي إلى العصر الحاضر، فلوقع الطبول فنٌّ خاص وتعبير خاص، ولأنواع الرقص المختلط أو المنفرد دلالات ومفاهيم، ولفرقة (سيدي أحمد أو موسى) المعروفة بركوب بعض أفرادها على

---

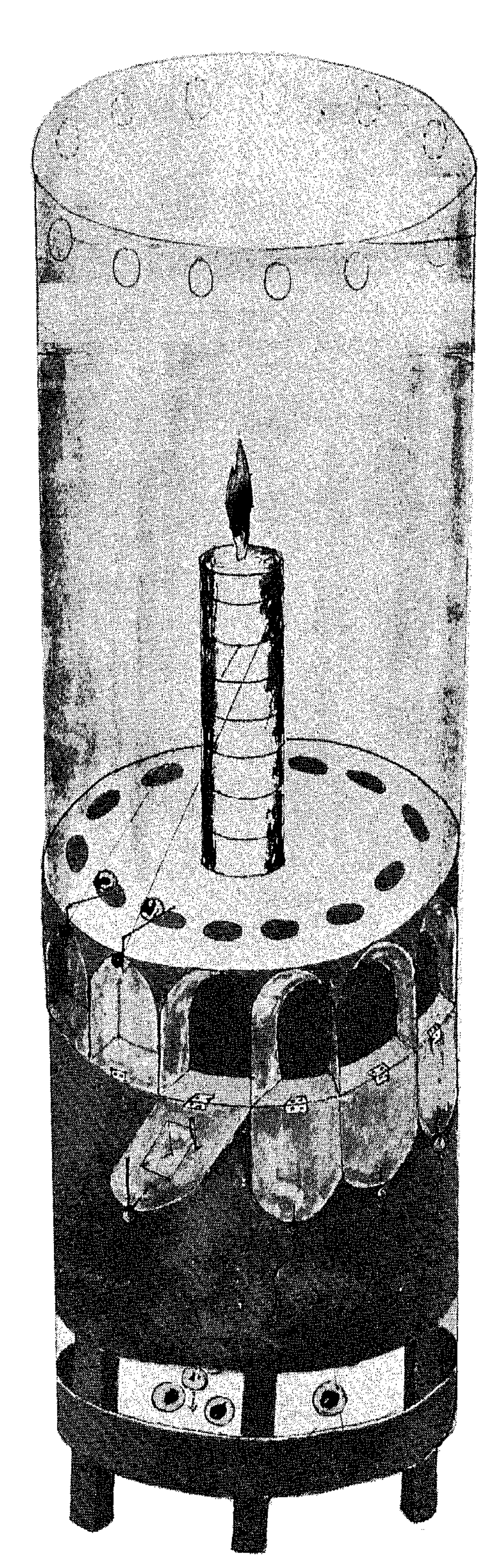
1) د. التازي : القنص بين المشرق والمغرب، المطبعة العصرية ـ الرباط 1980، نشر المعهد الجامعيّ للبحث العلمي.



إذا كانت الشمُوعُ الموكبية التي تحدّث عنها ابن خلّكـان قد اختفت في ديـار المشرق، وإذا كانت المشاعل الأسطوانية التي تحدث عنها ابن خلدون قد انتهتْ بنهاية بني عبد الواد، فإن مدن المغرب الأقصى ـ وخاصةً سلا ـ ما تزال تعرف مواكب الشمُوع عند الاحتفال بعيد المولد النبوي كلّ سنة...

الصورة عن أرشيف المكتب السياحي بالرباط.

ساعة الشمعة بمناسبة المولد
ربيع 764 = يناير 1362

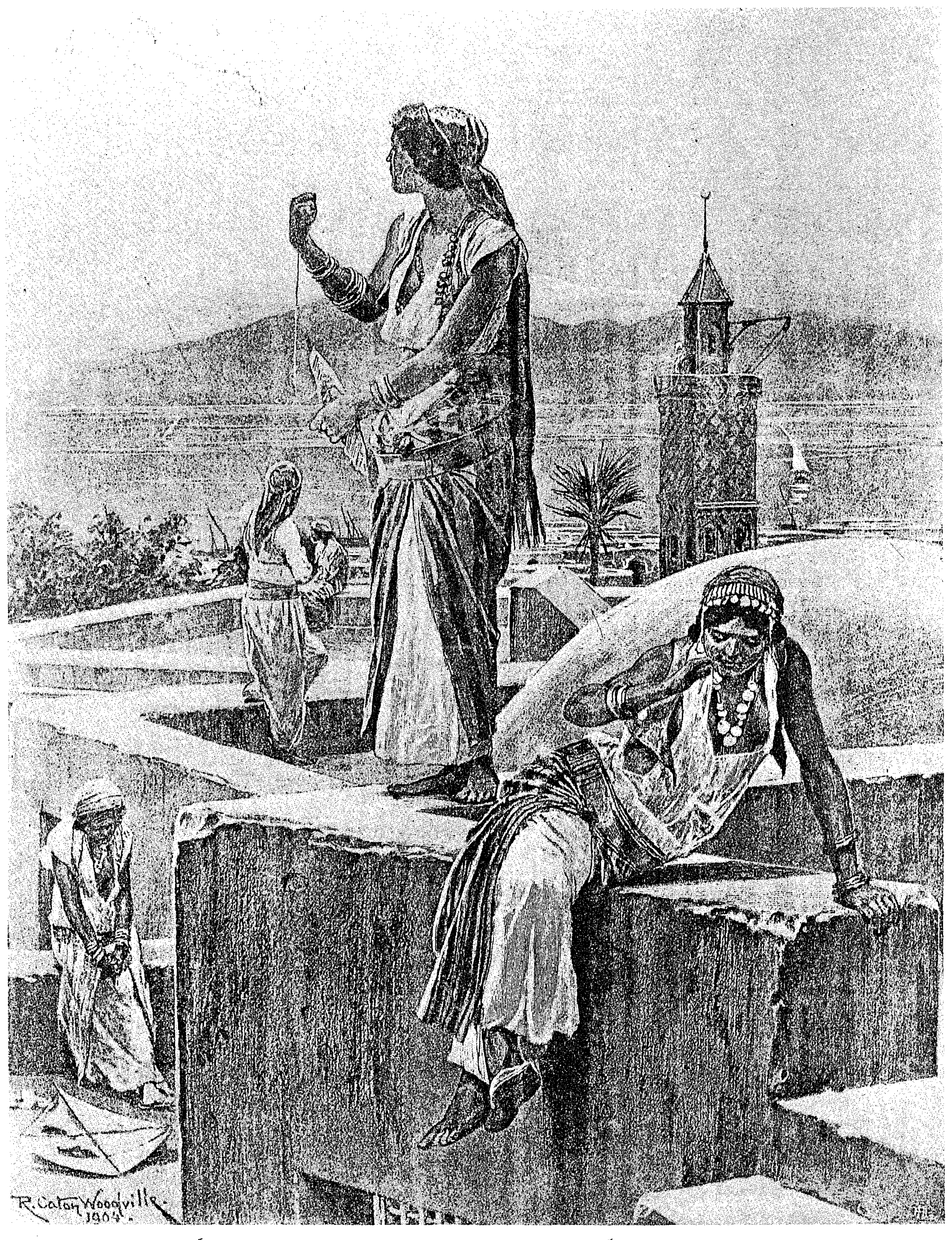


«... وتقدّم السّلطان ربيع 764 هـ بثقوب فهمه إلى اتّخاذ آلةٍ تخبر بمضي ساعات الليل فأنشيء ليلتئذٍ بإشارته (مكّنان) غريبٌ خشبيٌّ أجوف في مثل القامة، صيّر منه شكل الاستدارة إلى ذي جهات، اثني عشر، في أعلى كلّ جهة منها محراب، واستقلت برأس الشكل شمعةٌ موقدة قُسّم جرمها أجزاء بانقسام ساعات الليل، وأخرج من عند كلّ خط يقسم جسدها ويعيّن الساعة فيها سببٌ من الكتان برأس غَلَق المحراب الظاهر فيمنعه من الهَوى والنُّزول وفوق محدَّب المحراب خُرت (ثقب) محكم يُفضي إلى شكلٍ... يعترض مجراه قائمٌ من الحديث مثبت في رأس الغَلَق الذي يسد المحراب وخلفه كرة من النّحاس بندقية الشّكل يمنعها ذلك القائم المتعرض للمَجْرى من الإنحدار، وخلْف الغَلَق شكلٌ يُهدى رقعةً منظومةً تُعرّف بمضي الجزء من اللّيل، فإذا استولت النار على الشمعة وبلغت إلى حدّ الساعة أحرقت السّبب المتصل بما ذكر، فانحدَر الغَلَق وزال المانع عن سقوط الكرة فهوت واستقرت في بعض الصحون النحاسية... وبرزت الرّقعة فأوصلها القيّم على ذلك إلى المُسمّع فأنشدها.

وقد أجرى التجريب بهذه الآلة على ما تقتضيه طبيعة نارها وفتيلها، والهواء المحصور في تجويفها فصحّ عملها وأطرد صدقها وخف نقلها...

ابن الخطيب : نفاضة الجراب، القسم الثالث، المخطوط بقسم الوثائق، الخزانة العامة.

تصميم الساعة من عمل المهندس
عبد الرحيم العامل ←
مكتب ڤيريطاس-الدار البيضاء
Bureau Veritas



كان مما سجله بعض المبعوثين عما تتسلّى به السيدات المغربيات على ظهر سطوح المنازل عند الأَصيل، هذه الألعوبة التي تحمل اسم صِوانة (Cerfs – Volante)، والتي تعني نوعاً من استنطاق المستقبل ! وقد راحوا يتساءلون عن طريق وصول هذه الألعوبة من الصين إلى المغرب، هل انتقلت من آسيا عبر إفريقيا أو عبر أروبا... والرسم عن مجلة الليسطراسيون 30 يناير 1904.

كواهل البعض الآخر إلى أن يكونوا هَرَماً بَشَرياً... لها تعبيرٌ يَكشف عن مهمتها القديمة في التدرب على تسلق القلاع التي يتحصن بها المحتل[2]... وللعبة المصاقرة والمدارعة (والمقارعة[3]) بواعث أبرزها تهييء الأبطال واعداد المقاومين... ولعبة (رقصة الخنجر) التي تتم عادة بين رجل وامرأة ترمز إلى صراع عاطفي بين الجنسين ينتهي إلى استسلام الرجل...!

إن كل فرقة من تلك الفرق، وكل أداء من تلك الأداءات بحاجة إلى تحليل مبني على الأصول التاريخية ومستوحى من واقع المناخ الذي نشأت فيه...

وفي الدبلوماسيين من تحدث بل وحضر حفلات تنصيب (سلطان الطلبة) وهي العادة الفريدة التي دأب المغرب على تنظيمها ربيع كلّ سنة جامعية. وهكذا فكما تعرف الأممُ في أوربا أو غيرها حفلاتٍ تقليدية، وكما تعرف الأوساط الطّلابية في بقية الدول أياماً مرحة وممتعة فقد اعتاد الطلبة في بعض القواعد المغربية أن يقيموا سلْطنة لهم تدوم زهاء سبعة أيام، فحين تتفتّح الزهور عن أكمامها يلتمس الطلبة الإذن من الحكومة بإقامة سلطنتهم الموقتة، حيث يتم اختيار (سلطان الطلبة) الذي يتخذ له «الخاتم» ليجعله على «ظهائره» ومرسوماته ! ويأمر بتأليف هيئة حكومية من نخبة أصدقائه، يكون من بينهم وزير لسلطان الطلبة، وترفع (المظلة الملكية) على رأسه ومن حوله الحِراب التي يحملها الحراس، ثم أصحاب الطبول والمزامر... وتستمر دولة الطلبة مقيمة على ضفاف وادي الجواهر تحت خيام فسيحة رفيعة بديعة، وهناك يأتي في اليوم السابع، عاهلُ البلاد نفسه

---

2) د. عبد الهادي التازي : البحر المتوسط كقاعدة للإخاء والسلام Budgett meakin : the moors P. 336.

3) المصاقرة : نوع من الإعداد للمبارزة بالسيوف، تكون بالعصى كبداية،... والمدارعة : تعتمد على طريق استعمال الأرجل، والمقارعة : نوع من المصارعة...



ممثلون مغاربة في أنجلترا
على عهد الملكة إليزابيث الأُولى

في أعقاب زيارة السفير المغربي الرايس مرزوق لأنجلترا (عام 1588 ـ 89) للتفاوض حول تمكين دون أنطونيو من اعتلاء عرش البرتغال، عُثر في الوثائق الرسمية المحفوظة بالأرشيف البريطاني على أَوراق تشير إلى لاعبين بهلوانيين (ACROBATS) من المغرب قدموا إلى أنجلترا للمشاركة في عروض فرقة الملكة التمثيلية...

وفي مدينة أبسويتش (IPSWICH) دُفع في عام 1590 مبلغ من المال إلى من أُشير إليهم باسم «ضاربي الدفوف» المغاربة ووزعت في مدينة نوريتش (NORWICH) في 22 أبريل عام 1590 مكافأةٌ حينما قام المغربي بالسير على الحبال،. ويبدو أن من أبرز ما اجتذب الأنظار، الرجلَ الذي سار على الحبل، وكذلك في مدينة ليستر (Leicester) في نفس العام، حيث قدمت جائزة إلى بعض اللاعبين على الحبال...

ويرى ي.ك. تشيمبر (E. K. Elizabeth Stage) أن هؤلاء اللاعبين البهلوانيين كانوا من المغرب الأَقصى... وقد تغلبوا على عقبة اللغة التي كانت تشكل عائقاً بينهم وبين جمهور النظارة باللجوء إلى تقديم عروض وتشكيلات من الألعاب البهلوانية، لاتحتاج إلى استعمال اللغة.

عن : (Notes ond Quéries) عدد أبريل عام 1980. بقلم ج.د. ألصوب (J. D. ALSOP) د. أمين الطيبي : ممثلون مغاربة في أنجلترا في القرن السادس عشر، مجلة تراث الشعب، طرابلس، دجنبر 983.

لعب الكرة بالمغرب !

كان مِمّا أثار إنتباه بعض الوارِدين على المغرب أنواع الرياضة التي يتعاطاها المغارِبة الذين عرفوا مختَلف أنواع الريّاضة منذ تاريخ موغلٍ في القدم.. وقد كان في أبرز ما تحدث عنه الأجانب من أنواع الممارسات الرياضية **لعبُ الكرة** بما فيها من ضروبٍ وأشكال !

وقد وردت بالفعل إشارات لِولوع المغاربة بالكرة، إلى جانب ولوعهم بالمسلّيات الأُخرى، وهكذا فعلى نحو عمرو بن كلثوم في قوله بمعلّقته :

يُدهدون الرؤوس كما تدهدي · حزاورةٌ بأبطحها الكُرينا !

على ذلك النحو قال الشاعر المغربي الدغدوغي وهو يصف موقعة وادي المخازن :

وهامُهمُ مثل الكُرين وقد غدت سنابكُ خيل الله مثلَ المهاجن !

ولم يكن غريباً أن نقرأ عن اهتمام المغاربة بالكرة وهم يدرسون في جملة ما يدرسون في معاهدهم القديمة : «رأي الشرع في المسابقات...»

وقد ظهر من التآليف الممتعة التي تحدثت عن الكرة عام 1139 = 1727 مصنّف يحمل عنوان (مختصر الأفارد لزَنُّون التازي)، خصّص فيه فصلاً على حدة للكلام عن الكرة، كتبه بنفس الأُسلوب الذي حرّر به الشيخ خليل مختصره المشهور في الفقه المالكي : تحدث زَنُّون عن كيفية الكرة ووقت لعبها وشروطه وطريقته وشروط النعل الذي يلعب به ! وآداب النظارة وما يصحبها من حمل قبَس من نار على نحو ما نسمع اليوم من شعلة الألعاب الأُولمبية ! قال زَنُّون :

«الكرة : جلدٌ مستدير خُرز الخ...

وقد ألّف المغاربة عن آداب الكرة حتّى بالشعر فقال المسّاري، وقد لاحظ ما يقع من الصّدام والصّراع بسببها :

ولعبُ الكرة ليس مذهبي إذ فيه للقتال أقوى سبب !
يدنس المروءة الحصينَة ويطرد الوقار والسكينة !
فما رأيت فيه شيئاً يُحمد فترك فعله لديَّ أحمد !!

وقد علّق الشيخ البلغيثي على هذا الشعر بأن لعب الكرة جائز بشرطين، الأول : أن يكون بغير قِمار، والثاني أن يقصد به التدرب على الجهاد والرياضة، قال : ويدخل حكمُها في قول خليل في باب المسابقة...

وقد ورد فيها لغز للأديب المغربي اليالصوتي :

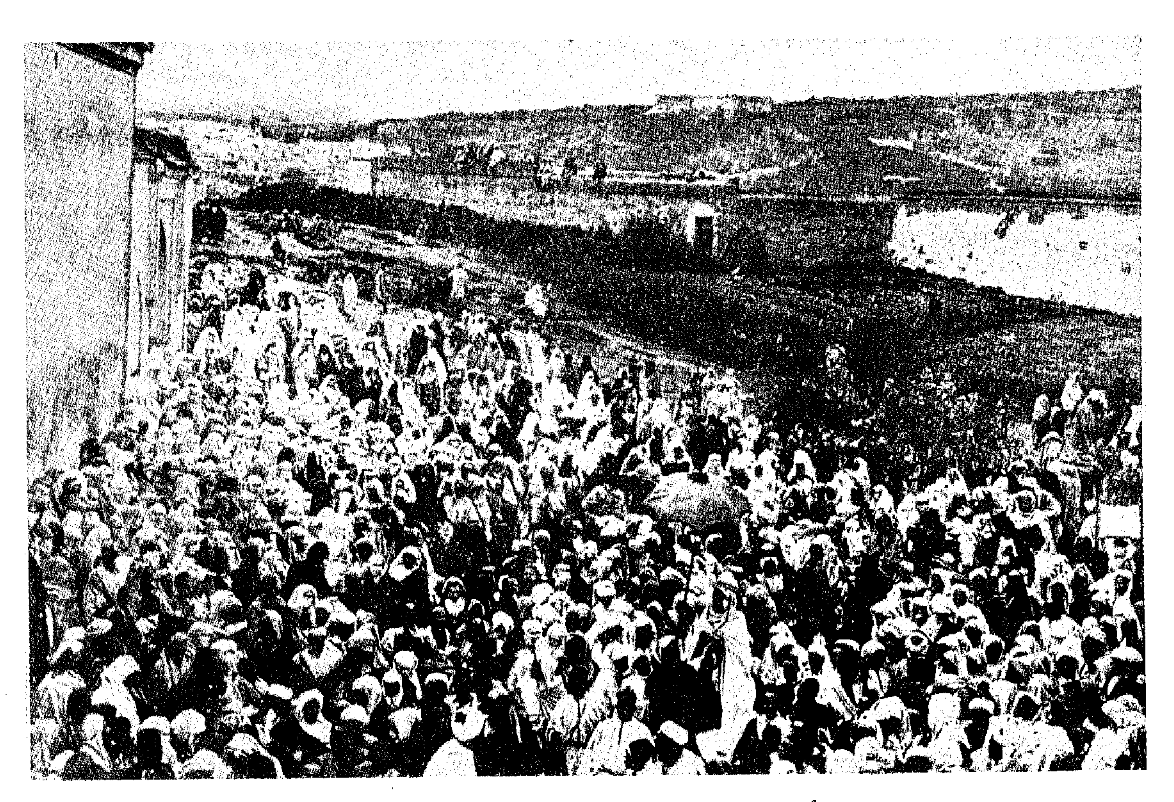
ومظلومةٍ والنّاسُ طبعاً تحبُّها ويلقون في تحصيلها أعظمَ الكدّ
ولكنهم مهما تُنِلْهم وصالَها يجازونها بِالبُعد عنهم وبالطَّرد !!

وعلاوةً على ما تحدثت به كتب التاريخ المغربي المكتوبة باللُّغات الأُروبية عن مباريات المصارعة التي كانت تجري بين الأبطال المغاربة وجيرانهم من البرتغاليين في الجديدة مثلاً... فقد تحدث عدد من الكُتاب الأُروبيين الذين زاروا المغرب، عن لعب الكرة في هذه الديار، بل ووضعوا رسوماً ولوحات لِبعض تلك المشاهد على نحو ما فعله إِيدْمُونضُودُو أميسيس في كتاب بعنوان (المغرب) Le Maroc ص 62.

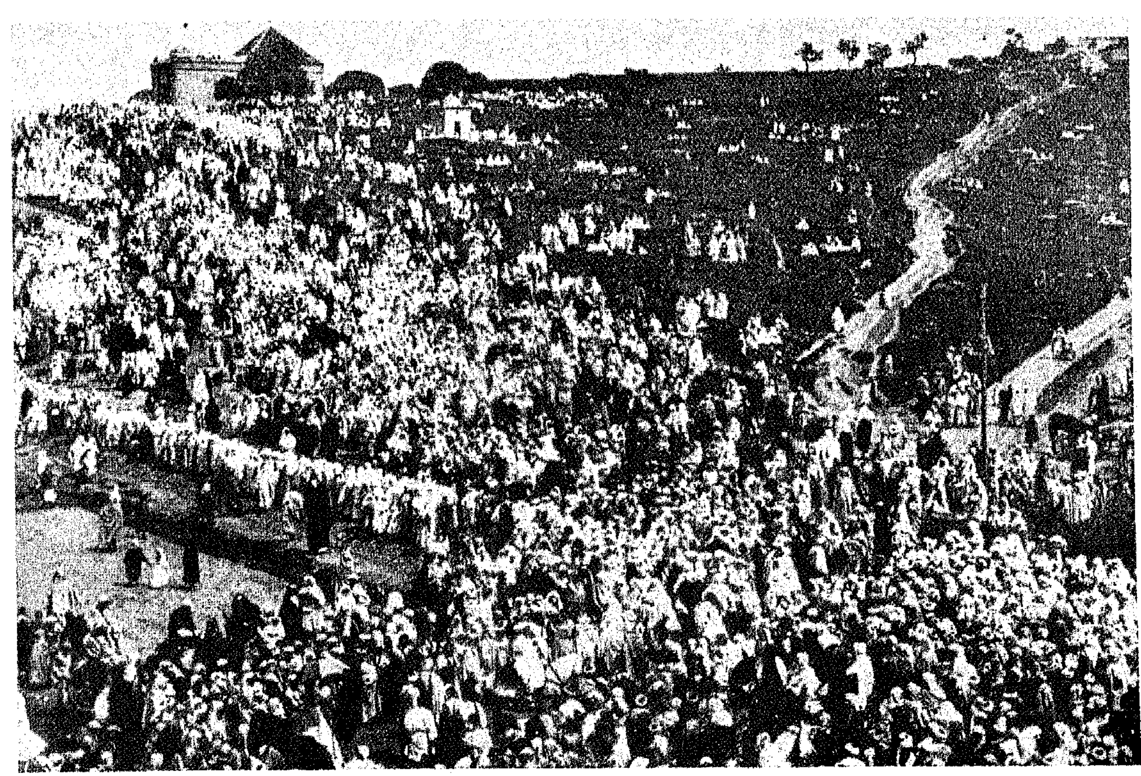


وقد أفاض أحدهم دوطي (Doutté) في كتابه : (مراكش) في ذكر الطرق المتبعة في المغرب لتأدية هذا النوع من الرياضة مما يشبه ما عرف قديماً بفرنسا : قذف بالرِّجل (Soule au pied) التي أصبحت تحمل إسماً جديداً هو (الفوط بول Foot Ball)، وقد ذكر طريقة ثانية تعتمد السيطرة على الكرة بواسطة صولجان، أي عصا معقوفة الرأس (Soule à la Crosse) وهذه اللعبة كانت معروفة بفرنسا وإنتقلت إلى الكانادا»، على أن هناك طريقةً ثالثة للعب الكرة في المغرب تعتمد على القذف بها في الهواء... وهذه الطريقة تعتمد على شخصين اثنين وليس على فرقتين.

من محاضرة للدكتور التازي بمناسبة انعقاد الدورة التاسعة لألعاب البحر الأبيض المتوسط الدار البيضاء 1983



من الصوَّر القديمة التي أُخذت لموكب سلطان الطلبة على مقربة من ضريح سيدي علي بوغالب الذي يُرى على اليسار، في الطريق إلى باب الفتوح : أحد أبواب المدينة التاريخية، ويظهر «السلطان» في مقدمة الصورة وقد علته المظلة...



موكب سلطان الطلبة وقد خرج من باب الفتوح تعلوه المظلة في اتجاه ضريح سيدي حرازم الذي نراه في الأعلى على اليسار... حيث يوجد قبر السلطان مولاي الرشيد الذي يقال إنه الذي سن هذه العادة تكريماً للطلبة عندَ توليه الحكم (1075 = 1664).

عادة سلطان الطلبة

عرف جو الطلاب بفترات مرح كانوا يقضونها أحيانا بصحبة أساتذتهم، وأحيانا فيما بينهم، ظاهر المدينة بين المتعة والفائدة، وقد سمعنا منذ أيام الموحدين عن تقاليد وعادات تجعل على الطلبة رئيساً ينتخب كل عام مرة، كما عرفنا في نظام العطل ما أخذ يتميز منذ دولة بني مرين بترؤس ملوكهم للاحتفالات التي تقام تكريما للطالب المتفوق.

لكن هذا المرح لم يكتس **طابع النظام في الوقت وفي الكيفية** إلا عندما ظهر السلطان المولى الرشيد. لقد وقف الطلبة إلى جانبه للقضاء على أحد الاقطاعيين اليهود بنواحي تازة : هارون بن مشعل الذي استغل فرصة اختلال الأمور بفاس أواخر دولة السعديين، فحدثته نفسه بتأسيس مقاطعة يهودية في نواحي بني يزناسن، فيصبح حاكماً لتازة وفاس ! وهكذا تطوعت طائفة من نحو خمسمائة من الطلبة في فجر الدولة العلوية للإجهاز على تخطيط مشعل.

ونذكر أن الحيلة كانت تواعد الطلبة المذكورين على أن يأتوا متفرقين إلى دار بن مشعل، وكان المولى الرشيد قد تقدمهم، فأحاطوا بالدار.،. على أن هناك رواياتٍ أخرى أشبه ما تكون بقصص ألف ليلة وليلة.

وبهذا نجح الطلبة في لفت الأنظار إليهم على الدوام، وقد كان في صدر من اهتم بهم ورفع من شأنهم المولى الرشيد، فكافأهم بأن نصَّب منهم سلطانا على رأس كل ربيع تقديراً منه لتضحيتهم، وبعد أن كانت القرويين لا تعرف شيئاً عن عطلة الربيع، أصبحت لها أيام ضاحكة خصص للطلبة فيها اعتمادات للقيام بنزهة ربيعية.

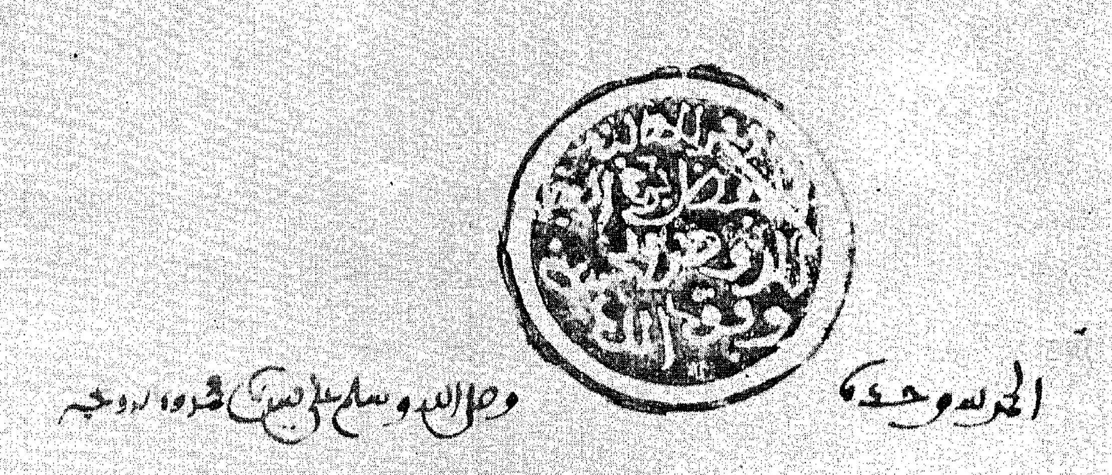
وكما تعرف الأمم في أوربا أو غيرها حفلات تقليدية، وكما تعرف الأوساط الجامعية في بقية الدول أياما مرحة وممتعة فإن القرويين أيضاً تعرف ظروف استرواح وفكاهة، ولكنها لا تصل بحال إلى ما اعتيد عند بعض أصحاب الحي «اللاتيني» كما يقول الأستاذ «لوتورنو»، بل أن الطلبة يقومون بسهراتهم في جو من الدعابة البريئة الطاهرة.

لقد اعتادوا عند كل ربيع حوالي منتصف شهر أبريل أن يقيموا بمدينة فاس وبمدينة مراكش كذلك، منذ أن حل بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، سلطنةً تدوم زهاء ثمانية أيام، فحين تتفتح الطبيعة عن اكمامها، يلتمس الطلبة الإذن من الحكومة لهم بإقامة سلطنتهم السنوية، وعند الترخيص لهم بذلك يجتمعون عصر الأربعاء الموالي، وقد كان هذا الاجتماع يتمُّ في إحدى المدارس العلمية التي يسكنها الطلاب.

وعندما يكتمل الجمع يقف دلاّل خاص، ويكون عادة من دلالي المخطوطات الذين لهم صلة بالعلماء والطلاب وينادي مفتتحا ببيع السلطنة بالمزاد العلني، ويكون لكل طالب الحق في أن يبتاعها لنفسه ما دام يستطيع أن يزيد في ثمنها على غيره، فإذا وصلت المزايدات إلى نهايتها وانتهت الرغائب ووقف ثمنها على طالب ما، سجل العدلان الشرعيان اللذان يكونان حاضرين هذا المزاد وهذا البيع على الطالب المحظوظ، ثم ينفض الطلاب معلنين سلطانهم...

ويلاحظ أن شراء السلطنة خاص بالطلبة الآفاقيين، فهو محظور على غيرهم من الطلبة الفاسيين، ولعل هذا الامتياز قُصد إليه لترغيب الغرباء من الطلاب في ورود مناهل العلم من كليتي القَرَويين بفاس وكلية بن يوسف بمراكش، وتشجيعهم عليه بإدخال أسباب الغبطة والانشراح عليهم...

د. التازي : تاريخ جامعة القرويين ج 3، ص 718



الحمد لله وحده   وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

وحق الحامل ثلاث ريالات
وقالب سكر

«ظهير» سلطان الطلبة بفاس : المفضل بن الحاج المفضل العروصي ؟ الحسني إلى أمناء الدار البيضاء وعلى رأسهم الأمين محمد حصار... يطلب تسليم «الهدايا» المعتاد دفعها «للسلطان»، كما يطلبه بدفع «السخره» للحامل : ثلاث ريالات وقالب سكر !!

«الظهير» بتاريخ ذي الحجة 1317 = أبريل 1900.

أصل الظهير في مكتبة الدكتور عبد الكريم الخطيب.

مصحوباً بهداياه وبوليّ عهده ووُزرائه، ليسلّم على (سلطان الطلبة)، حيث يجري (اجتماع قمة !) بين «العاهلين !» ثم يلقي خطيب سلطان الطلبة كلمته نيابةً عن سلطانه، تكون مليئة بالنكتة والفكاهة على ما يرد في وصف بعض السفراء الفرنسيين من الذين حضروا مثل هذه المهرجانات التي تدل على معاني عميقة(4)...

☆ ☆ ☆

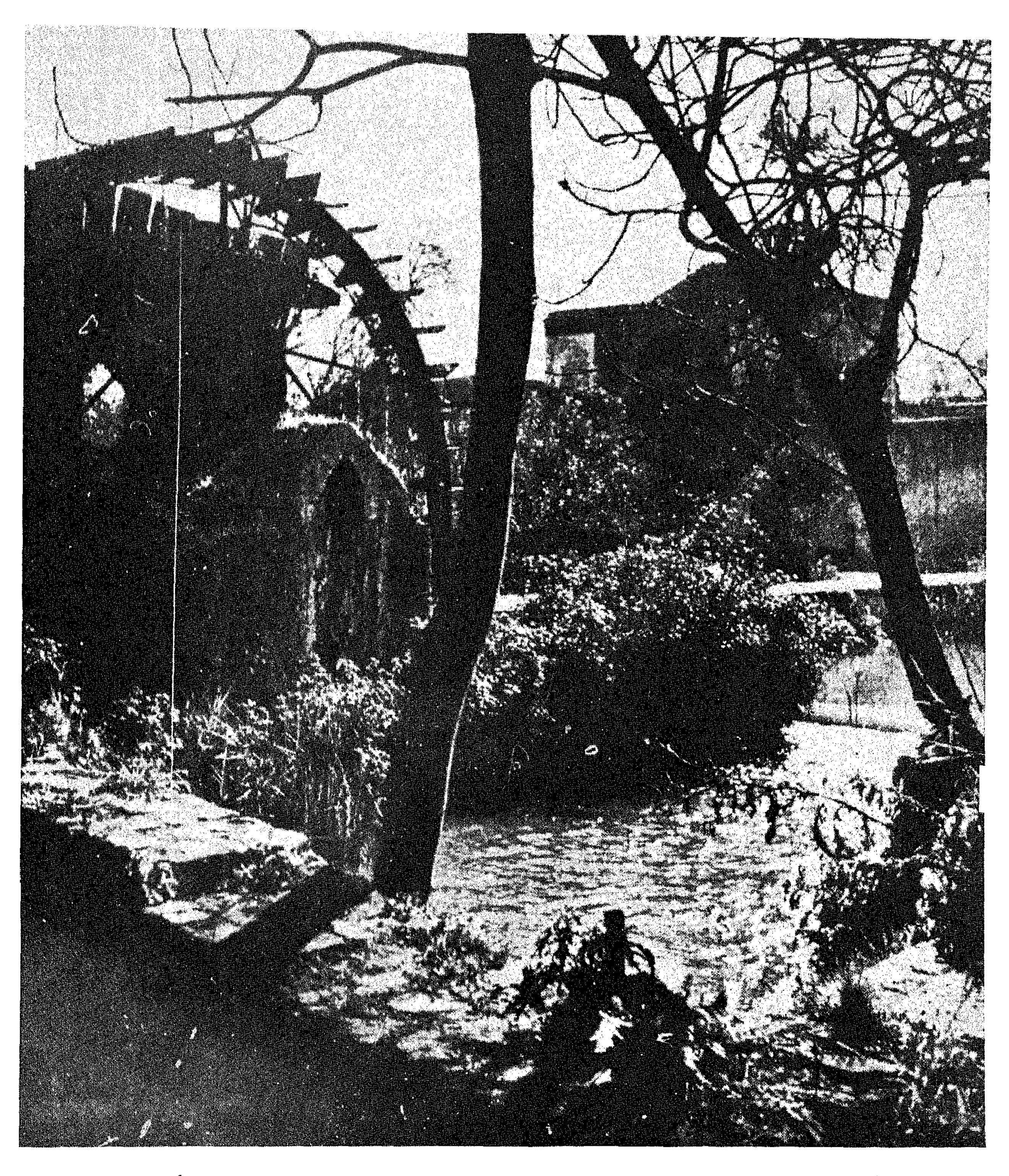
ولكن هل أغفل أولئك أيضا جانب الصناعة المغربية التقليدية وجانب الحلي الذي كانت السيدة المغربية تهتم به وتستعمله بذوق رفيع يتجلى في الترتيب والإنسجام.

لقد كوّن كل ذلك لديهم معرضاً حياً... ولكنه لم يعطهم إلا نظرة بسيطة عن القيمة الفنية والرمزية التي تتمثل في تلك المجوهرات والتي لا يمكن تقييمها تقييما دقيقاً إلا إذا ما وضعت في محيطها الذي كانت تؤدى فيه وظيفتها الحقيقية... تلك الوظيفة المزدوجة التي تستجيب للحاجيات المادية والسيكولوجية.

لقد كانت المنسوجات تعكس نظام الجو الحيوي وسير الحياة الخاص بكل شخص داخل القرية أو المدينة، أما المجوهرات فغالباً ما كانت تعبر عن الاهتمامات الأساسية للمجتمع المغربي، وبعض الأبازيم كانت لها وظيفة يومية ملموسة بصفتها ماسكة، أما الحلي الذي يوضع على الجبين فإنما كان يستعمل في المناسبات، هذا إلى الخلاخيل والدمالج والأقراط التي كانت تعبر عن عبقرية الصانع.

---

4) د. التازي : تاريخ جامعة القرويين (فاس) ج 3 صفحة 718 ـ 719 ـ 720 ـ 721.



أول ناعورة بفاس صنعت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بواسطة مهندس عربي أندلسي.
أنشأها المهندس محمد بن الحاج للسلطان يعقوب بن عبد الحق667 ـ 684 = 1266 ـ 1285.

وقد لفت أنظار بعض السفراء الذين زاروا المغرب مظاهر حضارية أخرى قد تمر على المواطن المغربي العادي، ولكنها بالنسبة لأولئك كانت مدعاة ليس فقط للوصف المجرد ولكن لنظْم الأشعار... ويتعلّق الأمر بآثار الهندسة الهيدرولية ببعض المدن، فإلى جانب شبكات قنوات الماء التي شهدوا بدقتها وفعاليتها سواء بالنسبة لعيون فاس أو عين غبولة بالرباط... استوقفتهم دواليب الماء، وهكذا نجد السفير ابن الخطيب يقف عند (نورية) فاس التي صنعت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري بواسطة المهندس محمد ابن الحاج وباقتراح من السلطان يعقوب بن عبد الحق، فيتحدث عن «الناعورة التي مثّلت من الفلك الدوار مثالاً، وأوحى الماء إلى كلّ سماء منها أمرها فأبدت امتثالاً، ومجّت العذب البرود سلسالاً، وألِفت أكوابها الترفّه والترف فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى» :

وقوراء من قوس الغمام ابتغوا لها	مثالا أدَارُوها عليه بلا شكّ
فبين الثريا والثرى سد جرمها	وللفلك الدوار قد أصبحت تحكى
تصوغ لجين النهر في الروض دائما	دَرَاهِم نور قد خلصن من السبك
وترسل من شهبانها ذا ذؤابة	فتنفي استراق السمع عن حوزةالملك
تذكّرتِ العهد الذي اخترعت به	وحنّت فما تنفك ساجعه تبكي !

ومما قيل في هذا الدولاب من قصيدة طويلة لابن عبد المنان[5] :

وبجانب البيضاء منها مرتقى	جبارة الأرجاء سامية الذرى
كرحى الصياقل ما سقت لتديرها	رجل ولا نسبت لامهاء المدى
فلك مضى في الروض ما حكمت به	أدواؤه والقطب منه وما اقتضى
فقضى برفع الماء إلا أنه	قد خفض الأدواح عيشا والربى

5) د. عبد الهادي التازي : الماء ـ الغذاء ـ الإنسان في التراث الإسلامي والتاريخ المغربي، أكاديمية المملكة المغربية، الدّورة الأُولى 3 ـ 6 رجب 1402 = 27 ـ 30 أبريل 1982. الدورة الثانية 24 ـ 27 نونبر 1982.

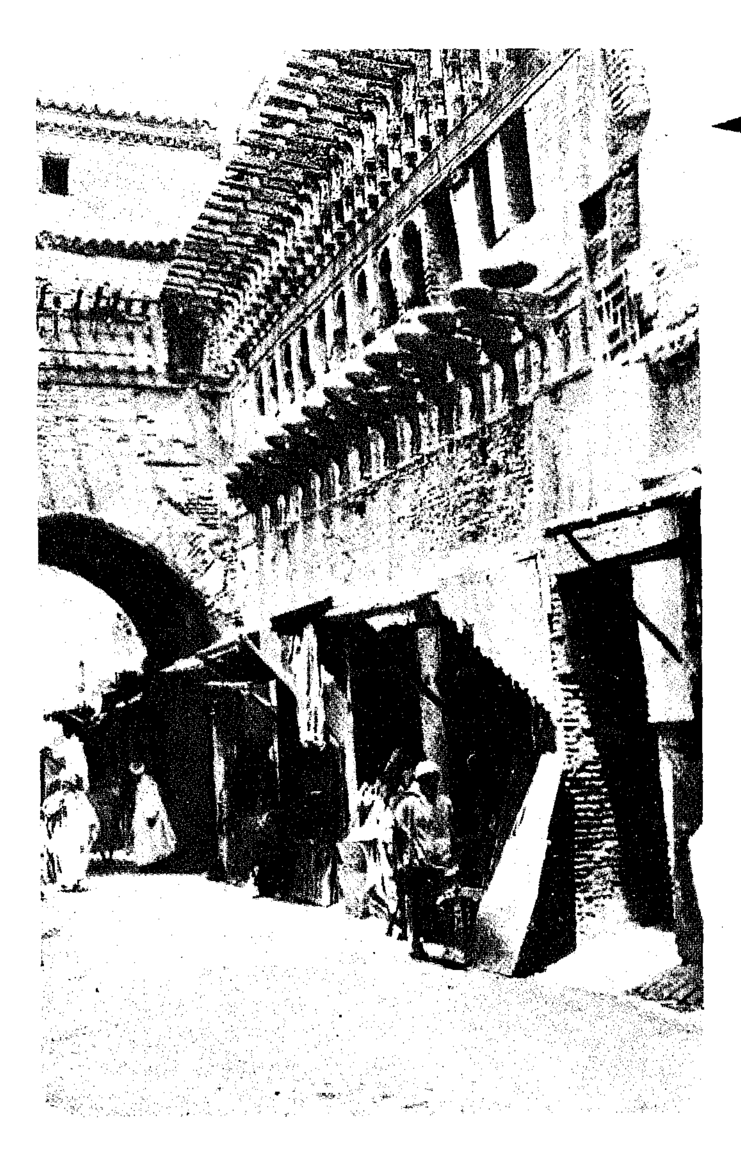
كما كان مما قيل فيه شعر لأبي القاسم الشريف هذه الأبيات :

وذات حنين تستهيل دموعها ... سجاما إذ يحدوا ركائبها الحادى
تعجبت أن ليست تريم مكانها ... ولم تخل من تأويب سير واسئاد
وأرصدتها في الروض أية عدة ... فكانت لدفع المحْل عنه بمرصاد
تخالف ماء المزن حكما وماؤها ... وكل على روض الربل رائح غاد
فيُنجد هذا بعدما كان ُمتهما ... وذاك تراه مُتهما بعد إنجاد
لئن قذفت ذوب اللَّجين على الثرى ... لقد خلصته القضب جليّاً لا جياد !!

ولم تكن (الدواليب) وحدها مما أثار انتباه الواردين فقد كانت (المكَانة) الساعة المائية التي نصبها السلطان أبو عنان على مقربة من مدرسة بطالعة فاس أيضا مما أثار الواردين على المغرب وخاصة من الأندلس أو الشرق، والحديث عن هذه الساعة الأعجوبة حديث في الواقع عن الفكر والعبقرية والإبداع...

وقد استحق هذا الاختراع من ابن عبد المنان أيضا قصيدة يقول فيها :

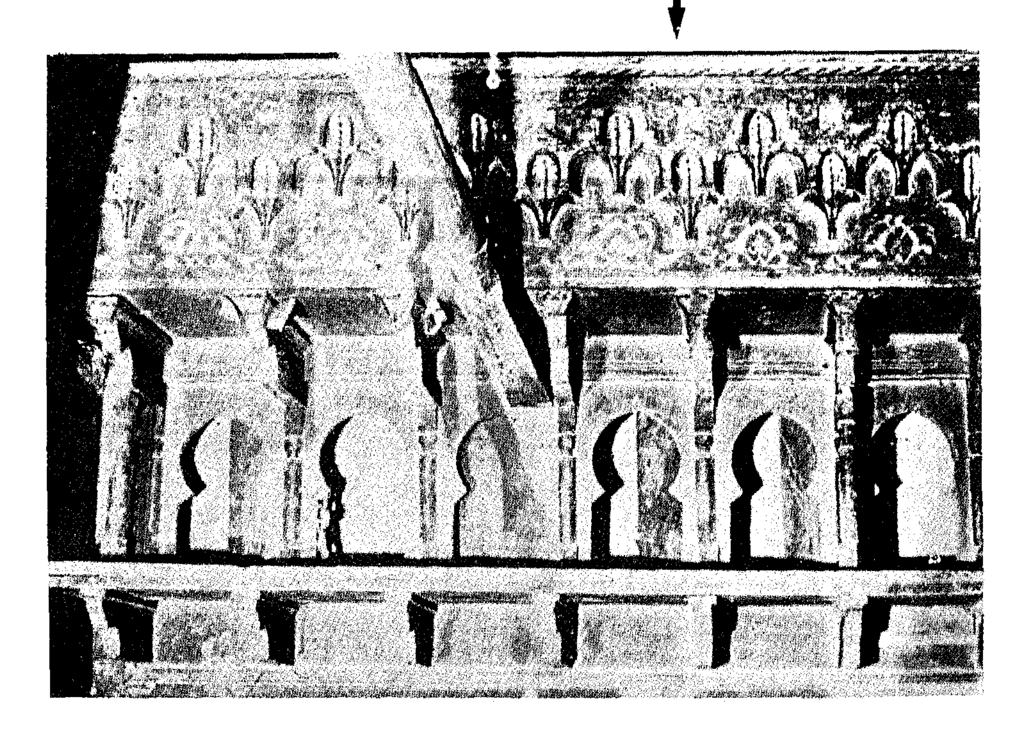
وآلة للمواقيت استقلّ بها ... صنع تفوت النّهى لطفا صنائعه
أبياتها عدّ أبراج السماء، ولا ... قطب ولا فلك تدرى مواضعه
يجري الهلال عليها جريها أبدا ... على المنازل صنع فاق بارعه
وفي البيوت جَوارٍ كلّ واحدة ... منهن خصّت بميقات تطالعه
حتى إذا جدّ إسراعا لوجهته ... وحمّ منه فراق حان واقعه
وأذن الطير من أعلى مراقبه ... ببينه معربا عن ذاك قارعه
ثارت هنالك توديعاً له ودنت ... إلى الغناء على ذعر تشايعه
وفي اليمين كتاب باسم موقتها ... إلى الإمام وقد أومت تبايعه !
وشامخ المرتقى آوى لأفرُخه ... بالوكر وهو أمين السّرب وادعه
أتيح عمدا له مستشفع سبط ... رحب القَذَال صقيل الطّرف لامعه



الساعة المائية التي أنشأها السلطان أبو عنان.

جانب من آثار الساعة المائية الأُخرى أيام السلطان أبي سالم التي ما تزال موجودة في غرفة المؤقتين بمنار جامع القرويين (فاس)

د. التازي : جامع القرويين. ج 2 ص 325.



أحـوى الأديم يجـاري دُونَمـا قـدمٍ	هوج الريـاح حـديـد النـاب قـاطعـه
جمّ التقلّب لم تـؤمن غـوائلـه	غـدرا وتُحـذر من ختـل خـدائعـه
يسعى لـه الحين بعـد الحين يرزأه	ثكـلا فيصفّر خـوفـا أو يقـارعـه
كـذلـك الليـل لا ينفـكّ مختلفـا	إليـه وهـو عن الأفراخ دافعـه
ومثلـه لأخيـه ينتحيـه، ومـا	إن منهمـا ليلـة إلاّ مقـارعـه
كـأنمـا الصلّ أمسى ممسكـا فـإذا	مـا ساعـة ذهبت ثـارت مطـالعـه !
وظنّهـا آخر السـاعـات قـد أذنت	بفطره فسمـا للفرخ لاسعـه
ريـاض حسن بـدا لـولا سعـودك لم	تستجـل يـا ملـك الـدنيـا بـدائعـه !

وإن من أطرف مـا وصلت أصداؤه إلى أروبـا في بـاب الابتكـارات والاختراعات... تلـك العَبّـارات الفضـائيـة (TELEPHERIQUE) التي كـانت منصـوبـة لتحمـل العـابرين لـوادي سبـو، بين ضفتيـه حيث غرس المتخصصون عموداً ضخماً صلباً في كل جـانب وثبتوا بكْرة فوق كل من العمودين ثم مـدّدوا من جـانبٍ لآخر حبـالا غليظـة من الليف في هـاتين البكرتين وقـد ربطت بهـذه الحبـال «قفّـة» متسعـة متينـة تسع لعشرة أشخـاص يجلسون فيهـا بكـل راحـة، وعلى من يرغب في عبـور النهر أن يـدخـل في القفـة وأن يجر الحبلين من الطرفين المثبتين بهـا فينـزلـق هـذان الحبـلان في البكرتين بسهـولـة... لقـد كـان فيمن استعمـل هـذه الوسيلة للعبور الحسن ابن الوزان المعروف بليّون الافريقي على نحو ما ورد في كتابه : (وصف افريقيا...).

وفي هؤلاء الزوار من صادف وجودُه منـاسبـات أعيـاد أو حفلات أو مئاتم كذلك، فراح يتحدث عن تلك المظاهرات والمهرجانات...

ففيهم وبخـاصـة منهم الـواردون من البـلاد الإسـلاميـة ـ من حضر حفلات المولـد التي دشنّت في المغرب منـذ أيام يـوسف بن يعقـوب من بني مرين، وحضر نظم القصائد في إطراء هـذه العـادة، على أن فيهم من حضر إحياء حفلات ليلـة القـدر بمـا تتميز بـه من قيـام ونسـك.. وفيهم

من تحدث عن عيد المهرجان : يوم العنصرة (24 يوليه) التي كانت تستأثر في المغرب بعدد من الفعاليات، وبعض منهم حضروا مراسيم صلاة الملك يوم الجمعة بما يصحب موكبه من حاشيةٍ وجياد وحرس ورماح وطبول وأبواق ورايات ومظلة...

بل واهتم بعضهم بإبراز مغزى وجود الناس يوم الجمعة في مكان واحد يستمعون إلى خطاب ليس فقط خطاباً يذكر الناس واجباتهم الدينية فحسب ولكنه ينبههم إلى «مصالح دنياهم ويخبرهم بما يرد من الآفاق وما يتجدد من الأحوال مما فيه المنفعة أو المضرة».

وقد قالوا أيضا عن طقوس المآتم ومجالس العزاء بالمغرب، إنها مظهر كذلك من مظاهر الإعراب عن تضامن الأسرة الإسلامية وتلاحمها وتعاطفها.

وقد كان مما لفت أنظار الأجانب الذين وردوا على الديار المغربية التزام المواطنين بجانب الأخلاق الرفيعة والتعاطف فيما بينهم والتراحم، وقد قال كلينار : إنه إذا ما أرادت أروبا أن تعاقب محامياً فما عليها إلا أن تبعث به إلى المغرب حيث ستنقطع عنه الأرزاق لأن الخصام معدوم، ولأن القضاء ميسر للكل، وفي سرعة متناهية !!.

☆ ☆ ☆

كما أن مما لفت أنظار الواردين ملاحظتَهم لأيام العطل في المغرب، وهكذا فكما لاحظوا أن العطلة الأسبوعية في قرطبة كانت بالنسبة للجميع - بما فيهم المسلمون - يوم الأحد، يلاحظون أن العطلة الأسبوعية في المغرب كانت يوم الجمُعة باستثناء الجهات التي خضعت للاحتلال البرتغالي والإسباني ! كما يلاحظون أن المغاربة يعطلون ثلاثة أيام على الأقل بمناسبة عيد الفطر وعيد الأضحى... وهم يعطلون يوم

عـاشـوراء ويـوزعـون فيهـا اللعب والهبـات على أطفـالهم على عكس الاحتفـال بعـاشـوراء. لـدى الشيعـة في بعض ديـار المشرق، فهـو يتسم بـالحـزن والحـداد... لكـلٍّ طريقتُـه في التعبير عن الشعـور بـالألم إزاء استشهاد الحسين... فأولئك يذكّرون بالمأساة وهؤلاء يسلّون عنها !!.

وقد كان مما تحدثت عنه معظم البلاطات الأروبية أسلوب المعاملـة المغربية الذي كان يترجم عن أصالة في الحكم وقوة في الشخصية.

لقد كـان المغـاربـة يقـدرون جـداً مراتب الملوك وواجبـات اللّيـاقـة للقادة، فكانوا يشيّعون زوارهم بالرغم من كلّ ما قد يحدث... وقد تحدث التـاريخ عن طريق معـاملتهم لمن يتغلّبون عليـه من الملوك الافرنـج... وتحدث عن معاملتهم للموكب الجنائزي للملك القشتالي ألفونسو الحادي عشر الذي توفى عند حصار جبل طارق... كمـا تحـدث عن طريق تسليم جثة الملك دون سبـاستيـان الـذي لقي حتفـه في وقعـة وادي المخـازن ! وكانو يترفّعون في مخـاطبـاتهم للملوك عن سفـاسف القول والتـافـه من الكلام : «ومكـاتب الملـوك لا يكـون فيهـا إلا كـلام الصـدق بـلا كـذبٍ ولا التواء في المعاني فإن ذلك نقصـان في حق الأمراء لا يرضـاه أحـد» على حد تعبير ملك مغربي لأحد ملوك أروبا...

وكـانوا يعتبرون أن أقـوالهم والاتفـاقـات حتى الشفـويـة منهـا التي تبرم معهم لها نفس الوزن والثقل الـذي للتوقيعـات التي تخطهـا أيـديهم، ولهذا فإن كلام الملوك المغاربة كان يحمل محمل الجد والصّدق.

ويظل هـذا هو التقليـد الجميل المتبع في المراسلات والمخـاطبـات بين الملوك بعضهم بعضا فإن المُلْكَ رَحِمٌ كما تردده أيضا كتبهم...

ومع ذلك فلابد أن نشير هنا إلى طائفة من المؤلفـات التي قرأنـاهـا من التي أثارت الانتباه نظراً لما احتوته من ترهات وأباطيل.


HISTOIRE
DE
BARBARIE ET DE SES

TRAITÉS
DE PAIX ET DE CO
DOCUMENTS DIVERS
CONCERNANT
RELATIONS DES C
RIQUE SEPTENTRIONALE
OU MAGREB
AVEC LES NATIONS CHRÉTIENNES
AU MOYEN AGE,
PAR
LE COMTE DE MAS LATRIE

WEST BARBARY,
OR,
A short Narrative
Of the
Revolutions
OF THE
KINGDOMS
OF
Fez and Morocco.
With an account of the present Customs, Sacred, Civil, and Domestick.

By LANCELOT ADDISON,
Chaplain to His Majesty in Ordinary.

Printed at the THEATER in OXFORD,
and are to be sold by John Wilmot. 1671.

br. ordin. du Roy au Palais 1649.

مجموعة أولى من عناوين جملةٍ من الكتب التي ألفهـا عن بلاد المغرب بعض الأوروبيين
وفيها ما يرجع طبعه كما نرى إلى عام 1649، وعام 1671 وعام 1866 ـ 1886.

هنا كتاب ألّفه أحد الرحالة المقربين إلى البلاط البريطاني، لانسلو أديسّن (LANCELOT Addison) بعنوان : تطوّرات ممالك فاس والمغرب... الذي طبع في اكسفورد منذ 1671، هناك، بكل انصاف، جوانب مفيدة في الكتاب وخاصة حول الحياة الاجتماعية في المغرب : الألعاب الرياضية - هواية الخيول - الموسيقى، أدواتها من رباب وعود... احتفاظ كلّ إقليم بطابعه في الفن كما يقول أديسن. هنا حديث عن أشجار المغرب ونباته وفلاحته ومياهه وشبكات طرقه، علاوة على حيواناته... وثروته المعدنية وتجارته وصناعاته.. حديث عن توزيع الأيام عند المغاربة وتفصيل عن أيام الأعياد طيلة العام..

وتظهر أهمية الكتاب من حيث إنه يؤرخ للفترة الانتقالية التي مر بها المغرب بين نهاية الحكم السعدي وبداية الحكم العلوى...

لكن المؤلف الذي أجهد نفسه في نقل عشرات الجزئيات التي لا نرى لها أهمية تذكر إن لم تكن عدوانا على المغرب، ذلك المؤلف عندما وجد نفسه مضطراً للحديث عن تاريخ المغرب القديم عمد إلى اعتذارٍ في منتهى السخف ؟ إنه يذكر أن هذا البلد لا يتوفر على تاريخ ! ولذلك فإنه أي المؤلف سوف يترك الحديث عن هذا الموضوع لينتقل إلى المواضيع الأخرى !! وهكذا - وهو انجليزى الأصل - بخل على قرائه حتى بذكر الإفادة التاريخية التي أجمعت على نقلها كتب التاريخ الإنجليزى حول ورود الملك جوهن ملك أنجلترا على الملك الناصر ملك المغرب يعرض عليه أن يعتنق الإسلام هو وسائر الشعب الانجليزي تلقاء المساعدة المغربية للعاهل الإنجليزي !!.

☆ ☆ ☆

وهناك كتاب طبع عام 1882 ألفه أحد الطلاينه إيدموندو دي أميسيس EDMONDO De Amicis، وقد ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان (المغرب) - Le Maroc، ترجمه هنرى بيل HENRI Belle.



مجموعة ثانية من عناوين بعض الكتب التي أُلّفها عن المغرب بعض الأُروبيين من الرَّحّالة أو المراسلين أو الدبلوماسيين... وهي كما نرى بين مكتوبٍ بالإيطالية أو الإنجليزية أو الفرنسية.

وهذا الكتاب ـ وهو من تأليف كاتبٍ رافق السفارة الإيطالية إلى ديار المغرب ـ بالرغم من أنه التزم جانب المجاملات الدبلوماسية فلم يجرح ولم يعب، لكنه بدوره لا يخلو من همزات ولمزات سواء فيما كتبه أو فيما اختار رَسْمه من لقطاتٍ ربما يعتبر إيرادها غير لائق..

☆ ☆ ☆

وكان من الكتب التي تناهت إلينا كتاب من صنع «فنان» حمل اسم ج. مونبار G. Montbard طبع عام 1886 تحت عنوان (من خلال المغرب) : A TRAVERS LE MAROC.

لقد كان في إمكان هذا الفنان ـ على ما نرى ـ أن يكتفي بوضع رسومه الجميلة الأصيلة والتعليق عليها بما تحمله وما تدل عليه... لكنه أبى إلا أن يشفع ذلك بما سماه مذكّرات... لكن الأدهى والأمر، هو المقدمة القاسية التي جعلها للكتاب والتي كانت من أول حروفها إلى آخرها عبارة عن حصيلة من الشتائم والنقائص التي كالها مجّانا للمغرب دون علم المغاربة الذين استضافوه دون شك وأكرموه... لقد عنْونها هكذا : أمبراطورية تنهار : UN EMPIRE QUI S'ECROULE.

ونال فيها من حاضر المغرب على نحو ما نال من ماضيه وحذّر من مستقبله !.

إن البلاد بالنسبة إليه محكوم عليها... وإن الخصال التي تميز رجالها تتلخص في نعوت سمحَ لنفسه باختلاقها ظلماً وعدواناً...

إن النماذج من هذه الكتب كثيرة... وبصفة خاصّة في المؤلفات التي حررها بعض الأسرى ممّن انقلبوا إلى ديارهم وأخذوا يصنعون من الأساطير ما يرونه مثيرا للاستطلاع.! ومع هذا فإن هناك عدداً ممن اغتنموا فرصة وجودهم في المغرب فأفادوا واستفادوا حيث وجدنا طائفةً منهم تُقبل على التأليف وجمع المعلومات... ولابد أن نذكر من أمثال

R5. 17

HISTOIRE
DES CONQUESTES
DE MOULEY ARCHY,
CONNU SOUS LE NOM DE
Roy de Tafilet ; Et de Mouley
Ismaël, ou Semein son frere, &
son Successeur à present Regnant.

Tous deux Rois de Fez, de Maroc, de Tafilet, de Sus, &c.

Contenant une description de ces Royaumes, des Loix, des Coustumes, & des Mœurs des Habitans.

Avec une Carte du Païs, à laquelle on a joint les Plans des principales Villes & Forteresses du Royaume de Fez, dessinées sur les lieux.

Par le Sieur G. MOUETTE, qui y a demeuré Captif pendant onze années.

A PARIS,
Chez EDME COUTEROT, rue S. Jacques, au bon Pasteur.
M. DC. LXXXIII.
AVEC PRIVILEGE DU ROY.

D E S C R I P T I O N

B A R B A R

D A N S   L ' E M P I R E

M A R O C

Par Marcus B E R G

qui, à l'égal de nombreux autre
deux ans et sept jours et en a
temps que huit autres Suédois,

sous le doux règn
d'A... éri
Grâ

e l

par

C A ...
de l'Université de Stockholm
l'Université de Provence

...UR

...R R T Ä L J E   Suède

LA RELATION DE THOMAS PELLOW

UNE LECTURE DU MAROC AU 18e SIÈCLE

...agali Morsy

...itions Recherche sur les Civilisations

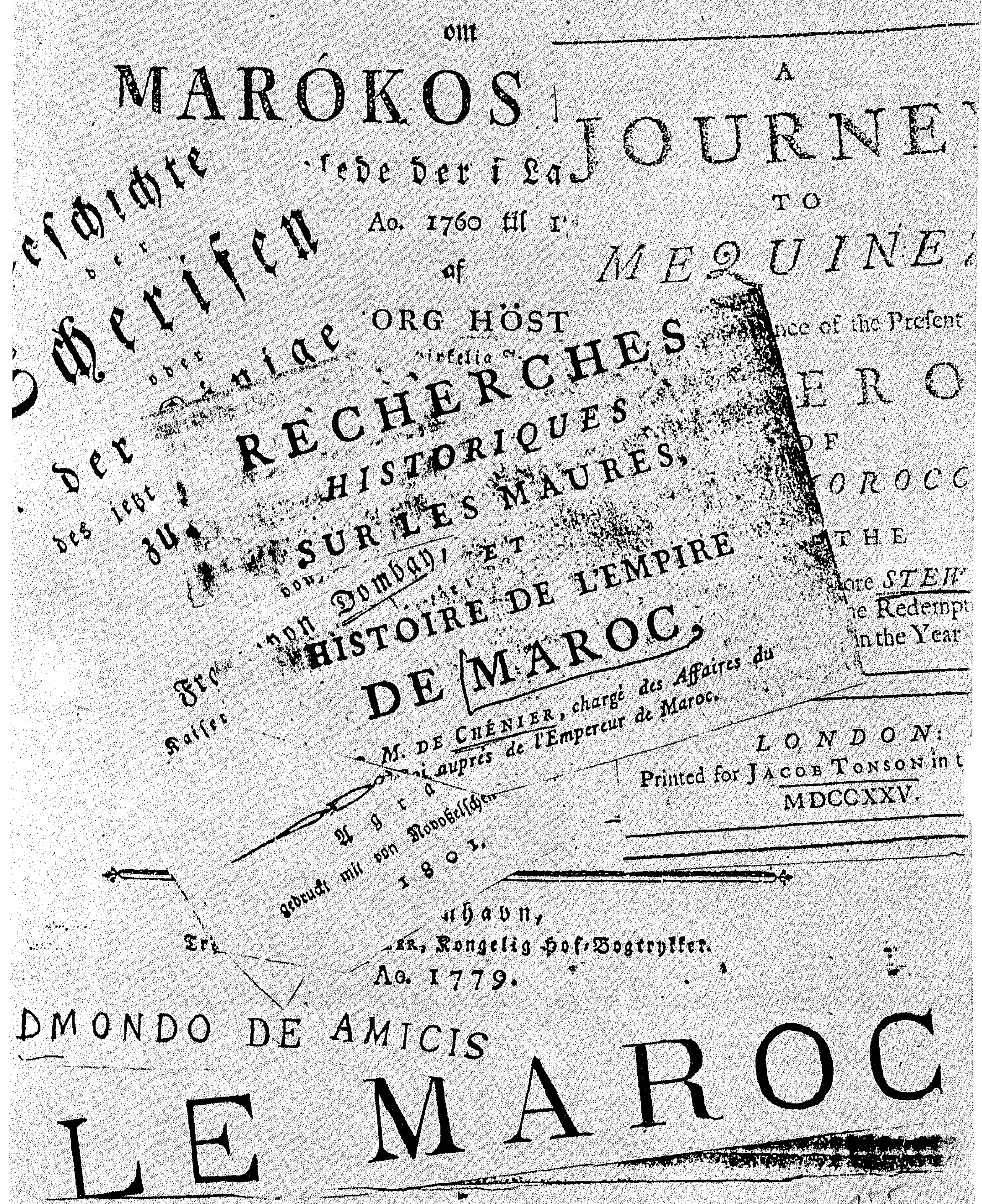
PARS ... HIS...
...RE ... ANTICUM
Cadiz
Ras Spartel
Tanagi
Elkaraisch

BLACK SUNRISE

The life and times of
MULAI ISMAIL, EMPEROR OF MOROCCO
1646–1727

by
WILFRID BLUNT

مجموعات من «المذكّرات» التي ألفها بعض الأسرى الأُروبيين فيها ما كتب بالإنجليزية، وبالسويدية، والفرنسية، وفيهم مَن كان أسيراً بالمغرب على عهد السلطان مولاي إسماعيل وفيهم من كان أسيراً على عهد السلطان مولاي عبد الله...



مجموعة من الكتب ألفها الدبلوماسيون الأجانب المقيمون بالمغرب أو المبعوثون في مهمات موقوتة، ونرى فيهم ستيوارت الذي كان سفيراً على عهد السلطان مولاي إسماعيل، كما نرى فيهم جورج هوست ودوشيني ودومباي وقد عاشوا فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وأخيراً إيدموندو دي أميسيس الذي رافق السفارة الإيطالية للمغرب أيام السلطان مولاي الحسن..

هؤلاء هوست القنصل الدانماركي الذي ترك لنا بعض الوثائق عن مقامه بالمغرب أيام السلطان سيدى محمد ابن عبد الله، والقنصل الفرنسي دوشيني الذي خلف لنا هو الآخر كتابه الذي احتوى على عدد من المعلومات القيّمة... كذلك أمثال الدبلوماسي النمساوي ضومباى الذي أفادنا بكتب جليلة ألّفها عن اللهجة المغربية الدارجة وعن تاريخ ملوك المغرب من «الأشراف» وغير هذين الكتابين، علاوة على ما احتفظ به من وثائق مغربية كانت لها قيمة للذين يؤرخون لتاريخ المغرب.



المُواكبات والمبادرات

- ◻ لقاءات القمة ـ المشاركة في المعارض الدولية.
- ◻ تناسي المغاربة لخلافاتهم إذا ما داهمهم خطر أجنبي.
- ◻ سياسة الصّمت ـ تتبع المغرب لأَقوال الصحف الأُوربية والشرقية.
- ◻ الاحتجاجات والتعقيبَات ـ الاستخبارات المغربية ـ استقدام البعثات العلمية ـ
- ◻ تشجيع الدراسات الرياضية.
- ◻ إنشاء المطابع وتنظيم تعريب العلوم ـ تعميم الدراسات الحربية.
- ◻ استيراد الكتب ذات الطابع العسكري.
- ◻ تشييد الرباطات وإنشاء البروج على السواحل المغربية ـ الخونطة ـ المنار.
- ◻ سوء الظن بمضاعفات النهضة الغربية.
- ◻ كيف بدأ في المغرب الاحتفال بالمولد النبوي.

المواكبات والمبادرات...

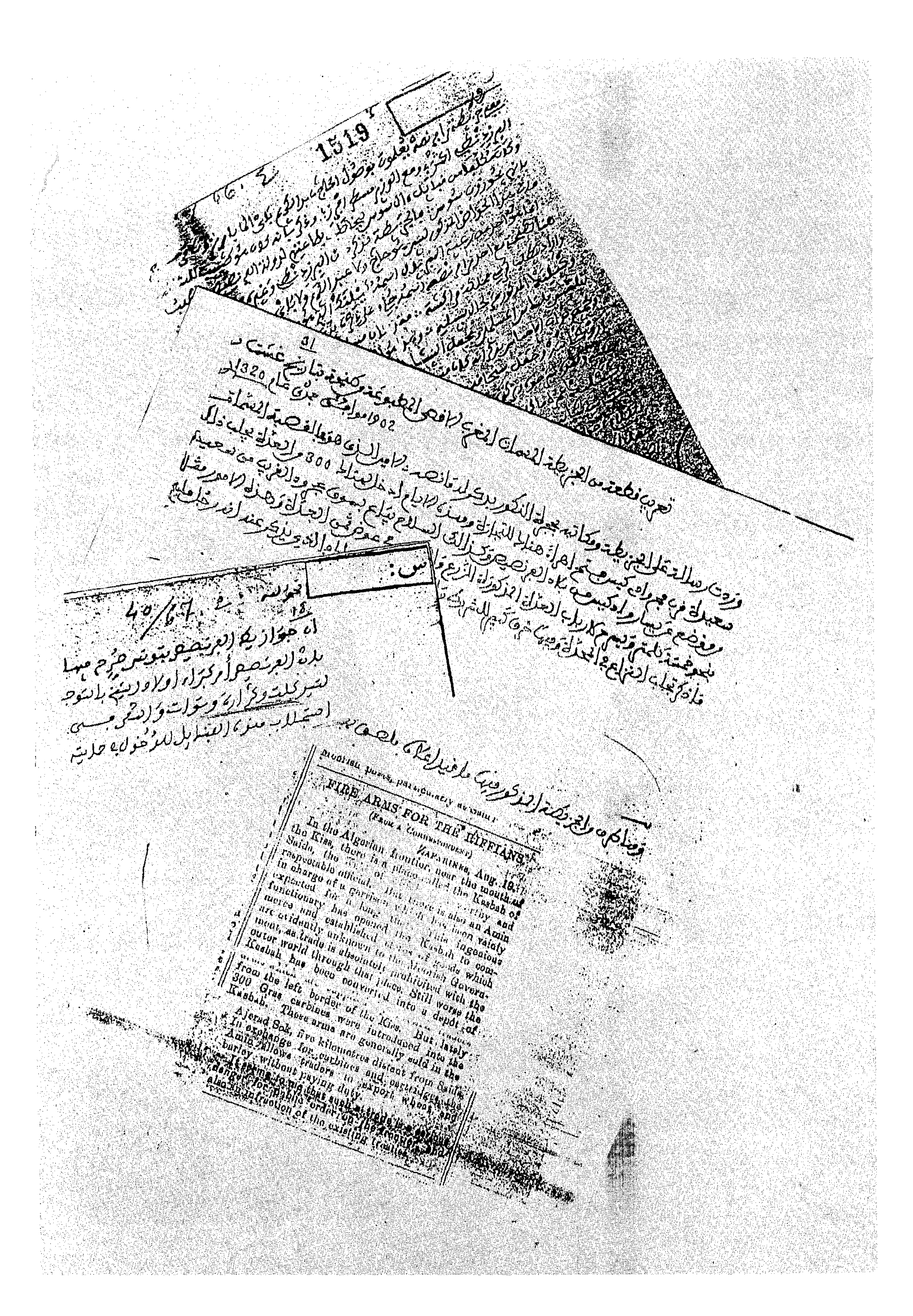
وقد شاع عند بعض المعلقين أن في أبرز ما طبع السياسة الخارجية للمغرب تقصيرَها في باب المواكبات والمبادرات...

والواقع أن المغرب ظل حريصاً على أن يتتبع، جهد المستطاع ما يجري من حواليه، وقد سمعنا عن لقاءات على مستوى القمة تمت بين ملوكه وبين بعض ملوك أُوروبا، وسمعنا عن مقام عددٍ من الأُمراء الأَجانب في العاصمة المغربية لفترة طويلة من الزمن سواء أَيام الموحدين أو بني مرين.. وبني وطاس وحتى أيام السعديين، والعلويين... كما وقفنا على المئات من الاتفاقيات والمُعَاهدات، والآلاف من الرسائل المتبادلة بين المغرب وغيره من الأُمم، بل وشاهدنا مشاركة المغرب في المعارض الدولية التي كانت تقام في دول أُروبا : أنجلترا فرنسا وألمانيا على الخصوص وفي ولايات أمريكا كذلك، وهكذا يتضح أن تلك المقولة مبالغ فيها إلى حد كبير على ما سنرى.

وإذا كان هناك من تحفظ - ولا نقول «إنعزال» - في التعامل مع أُروبا... فإن ذلك يرجع للأَخذ بأسباب الحيطة والحذر من مضاعفات تدخلات أُروبا واقتحاماتها لسائر الميادين لقصد سيّئ وغرض استغلالي على نحو ما أفصحت عنه بعض المصادر المغربية منذ العهد الموحّدي عند ما شاهدنا حرص المغرب في بنود المعاهدات - على تحديد مجالات النشاط الأَجنبي... إلى العهد العلوي عند حديث تلك المصادر عن إنشاء

«السّلْك» أي التلغراف، وعن «بابور البر» أي القطار الحديدي... وإلاّ فإن المغرب ظل يبحث عما يجدّ من تطور في الصناعات والتقنيات، وظل سفراؤه ينقلون إليه بصفة خاصةٍ عن أحدث ما شاهدوه وعاينوه من تقدم وترقي... ويدلُّ على تتبع المغرب لما جريات الأَحداث وخاصةً منها التي تمسه، تكليفُه لسفيره المقيم في هولاندا بالتدخل لدى حكام الأَراضي الواطئة لتوقيف شحنة الأَسلحة التي كانت تهيأ للزعيم العيّاشي زعيم مدينة سلا، والإلحاح على إيثار السلطان الشرعي بتصدير الأَسلحة والذخيرة... لقد كان المغرب يعرف كيف يُفهِم الذين يتجاهلون واجباتهم نحوه، في حكمة ويقظة، وأعطى الدليل للعالم الخارجي على أن المغاربة قد يختلفون ولكنهم إذا اعتُدي على كيانهم فإنهم ينسون خلافاتهم... وقد كان لصمت المغرب عندما لم تتّضح له الرؤية حول مشكلٍ من المشاكل قواعدُ لا تختلف عن قواعد النحو والكلام : فيها المرفوع والمنصوب والمجرور..!

كما يدلنا على ذلك تتبع المغرب، وبصفةٍ تسترعي النظر، لما كان يكتب عنه في الصُّحف الأُوربية سواء بأنجلترا أو إسبانيا أو فرنسا، حيث رأينا القصاصات تصله في الوقت المناسب ليتدخل في الوقت المناسب بما تُمليه الظروف من احتجاجات واستصراخات وتدخلات، وهكذا كان للمغرب رجال استخبار عبر الأَيام، كان منهم من يقيم في أُوربا وكان منهم من يختار الاعتماد عليه من بين أعضاء السلك المقيم في المغرب، أَفَلَمْ نسمع عن رسائل السلطان المولى إسماعيل للبرلمان البريطاني حول جبل طارق منذ تاريخ 1118 = 1706 وعن تتبع المغرب للحروب التركية الروسية أولاً بأول حسبما نقرأه في رسالة عمر بن أيوب إلى القنصل الهولاندي فان نيوويرْكِيرك (Van Nieuwerkerke) بتاريخ 9 محرم 1202 = 21 اكتوبر 1788..؟ أَلَمْ نسمع الحديث في المصادر المغربية عن إنشاء جمعية كُونْفانسِيُون ناسيونال (Convention



FIRE ARMS FOR THE RIFFIANS.

(FROM A CORRESPONDENT.)

ZAFARINES, Aug. 19.

In the Algerian frontier, near the mouth of the Kiss, there is a place called the Kasbah of Saida, the [illegible] of [illegible] worthy and respectable official. But there is also an Amin in charge of a garrison which has been vainly expected for a long time. This ingenious functionary has opened the Kasbah to commerce and established [illegible] of goods which are evidently unknown to the Moorish Government, as trade is absolutely prohibited with the outer world through that place. Still worse the Kasbah has been converted into a depôt of [illegible] from the left border of the Kiss. But lately 300 Gras carbines were introduced into the Kasbah. These arms are generally sold in the Ajerad Sok, five kilometres distant from Saida. In exchange for carbines and cartridges the Amin allows traders to export wheat and barley without paying duty.

It seems to me that such a trade is a serious danger for public order on the frontier and also an infraction of the existing treaties.

- قصاصات من تقارير ديبلوماسية مغربية حول ما تنشره الصحافة الأجنبية وهي تعكس الاهتمام البالغ للحكومة المغربية ببعض قضايا الوضع الراهن :
- قضية علي باي الذي كان موجودا بالمغرب في وضع مشبوه (6 شعبان 1303 = 10 ماي 1886).
- قضية التآمر على احتلال توات وضمها إلى المستعمرة الفرنسية (الجزائر) (10 رمضان 1309 = 8 أبريل 1889) مما جاء فيها (إن كوازيط الفرنصيص بتونس صرح فيها بأن الفرنصيص أمر كبراء أولاد الشيخ بالتوجه لتِدِكِلْت وكرارة وتوات والسعي في استجلاب هذه القبائل للدخول في حمايته.
- تهريب السلاح عن طريق الجزر الجعفرية لتغذية التمرد ضد السلطة المركزية (26 جمادى الأولى 1320 = 31 غشت 1902).
- الرسوم كلها من الأرشيف التاريخي بتطوان، باستثناء الأخير.

(National) التي قررت إلغاء الأنظمة الملكية، وعن الإعلان الذي نشرته حول استعداد فرنسا لمساعدة كلّ أُمةٍ ترغب في خلع ملكها وتقيم عوضاً عنه سلطان الأمة !!

وهل يمكن أن نسم المغرب بالعزلة عما يجري خارج حدوده مع أنه كان يفكر في استقدام البعثات للاستفادة منها، وهو الذي، بتوجيهٍ من مليكه محمد الثالث ـ أثرى الدراسات العلميةَ بجَامعة فاس وأحضر الاسطرلاب وعمّم دراسة الحساب وقصر الفلسفة على البيوت الخاصة !!

وقد قام المغرب بإنشاء المطابع بمختلف المدن المغربية تمهيداً لتعميم الثقافة ونشر العلم على نطاق واسع كما قام بتنْظيم قَلَم للترجمة يهتم بتعريب بعض الكتب التي تتناول طائفة من العلوم وخاصة منها الموضوعات الرياضية والأعمال اللوغاريتمية والتوقيت والتعديل...

وقد نبّهت الظروف العصيبة التي مر بها المغرب في أثناء حروب إيسلي وتطوان، على اتخاذ خطواتٍ جديدة لإصلاح الحالة بالمغرب وإنقاذه من الأزمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية، وهي مبادرات تدل أيضا على أن المملكة لم تأل جهداً في مواكبة الركب ومعاصرة الأحداث، ومن هنا سمعنا عن تأليف عددٍ من الكتب في «نظام» الجيش ودراسة الفنون الحربية، وسمعنا عن تأسيس مدرسة لتكوين المهندسين ومدرسة لتعليم اللغات، كما سمعنا عن تأسيس عددٍ من المعامل لصناعة السكر والقطن... إلى جانب مصانع البارود والقرطوس.

وقد وردت كتبٌ من مصر على الملك محمد الرابع تتعلق بالنظام أي العسكرية، وقد جعلت تلك الكتب السفيرَ الفرنسي في المغرب يتشوق لمحتواها ويتوق للإطلاع عليها ويغضب من عدم إرسالها إلى العاهل المغربي بواسطته..! الأمر الذي يدل على أهمية تلك الكتب وجدّيتها... ولابد أن لحركة تشييد إنشاء الرباطات و(البروج) على

ص :

MISSION I. ET R.
D'AUTRICHE-HONGRIE
AU MAROC.

TANGER, ...

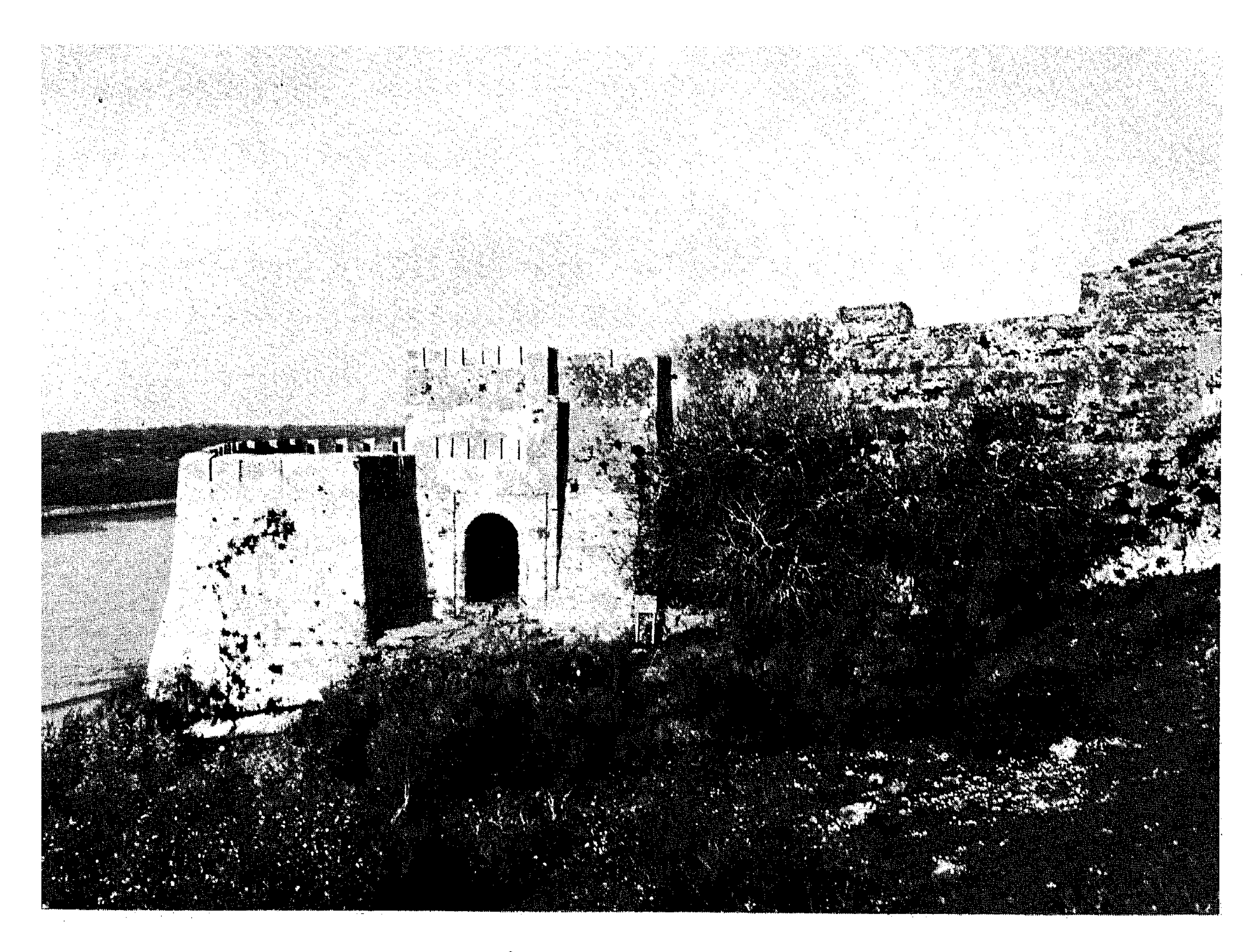
خديم المقام العالي بالله ونائبه السعيد الأجل الأمثل السيد الحاج محمد الطريس بعد السلام
اللائق عليكم والسؤال عن أحوالكم محبة أن تكونوا بخير وإنه قد كنا قدمنا لسيادتكم كتابنا
بتاريخ 18 يليه طالبا منكم فيه توجيه كتابنا لسعادة الصدر الأعظم الوزير السيد احمد
الذي طلبنا منه فيه ارجاع التراجم الثمانية المتضمنة على القوانين الحربية بأسطريا انكريا
التي دفعناها له بواسطة الضابط هنكر الحراب وبعد ذلك توصلنا ببعض من التراجم المذكورة على يد نائب
أشغال دولة [illegible] وجهت له على يد [illegible] ومع ذلك لم تسلمني هنكر المذكور بعد ما
توصلنا بجميعها على ذلك فنطلب من سيادتك أن تؤكد على جانب المخزن في توجيه الترجمة
الثامنة المسماة هنكر عاجلا ليتم الكلام في ذلك حيث ظهر بعد أن الترجمة الباقية هي المسماة
روح العمل هذا وعلى المحبة والسلام في 20 يليه 1895 موافق 26 محرم 1313
منسط دولة أوسطريا انكريا

جواب وزير دولة النمسا ـ هنغاريا على طلب المغرب الاطِّلاع على القوانين الحربية المتبعة...
وهو موجه إلى النائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس بتاريخ 20 يوليه 1895 موافق 26 محرم 1313 :

بناءاً على طلب المغرب فقد وجهت إليه ثمان وثائق مترجمة للقوانين الحربية بأسطراليا ـ انكَريا، بواسطة الضابط الحراب هنكر...

وقد تبين ـ بعد استرجاع الوثائق ـ أن هناك وثيقةً ناقصةً كانت هي «روح العمل»، لذلك فإن الوزير النمساوي يطلب التأكيد على المخزن في توجيه الترجمة الثامنة.

السواحل المغربية علاقةً بحركة التفتح وسياسة التدارك التي ظلت مطمحا للمغرب ومأمله... ولو أن المغرب كان يتردد أحياناً حول ما يقبله وما يرفضه من المخترعات والمكتشفات الأوربية...



برج المعمورة التي حررها السلطان المولى إسماعيل، وأعطاها اسم «المهدية»

إن هناك تساؤلاً يطرح في أغلب الأحيان حول ما نعت عند بعضهم بالتقصير المغربي إزاء الاستفادة من النهضة الأوربية التي لا تفصلها عنه إلا بضعة أميال... لقد كان على المغرب أن لا يتخلى عن مساعدة أولئك الجيران على ما يقول هذا البعض.

وسنردد هنا ما أشرنا إليه مرارا من أن المغرب كان يدرك جيّداً ماذا يجنيه عليه الركض وراء تلك الأمم التي لم تكن بحال من الأحوال وفي أي وقت من الأوقات مستعدّة لأن «تعطي» بدون أن «تأخذ» !!

و«الأخذ» بالنسبة للقادة المغاربة كان معروف النّوع والبعد والحجم !! لكن «الأخذ» عند الآخرين كان يعني الغزو الفكري، والغزو الروحي. والقضاء على مقوّمات البلاد...

ولأمر مّا وجدنا أوائل الموحّدين (المنصور بالذات) يحدّدون للبعثات الأوربية المساحة التي يقتصر عليها نشاطهم «التجاري» ووجدناهم يمنعون الاتصال بالمواطنين إلا بواسطة تراجمة تابعين للدولة... أو لم نقرأ مخاطبة حفيد المنصور الموحدي الرشيد في أمر اعتناقه للمسيحية هو وما يتبعه من أقاليم واسعة إذا كان يرغب في الاستفادة من المساعدة المسيحية ؟!

وهكذا فعندما تثار قضية «الأخذ» ينبغي أن نتصوّر أمامها قضية «العطاء»، وهل كنا سنستطيع الاحتفاظ بمقوّماتنا وتراثنا ولغتنا وشخصيتنا ؟ أم إننا كنا سنتخلى عن الرسالة التي تحملناها منذ ظهور الإسلام بهذه الديار ؟!

ان سفيرنا ابن عثمان حمل إلينا أنباء العلماء في قادس وهم يقومون بتجاربهم حول حاجتنا للأوكسيجين... ولكنه حمل إلينا أيضا أنباء القضاة في الجزيرة الخضراء وهم يأخذون بخصور النساء يراقصونهن وينادمونهن فكيف نقيم الحاجز بين المعطيات ؟!

كيف بدأ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب ؟

لم يكن هناك بالنسبة للعالم الإسلامي، في فجر أيامه، غير أعياد ثلاثة دأب المسلمون على الاحتفاء بها وإيثار أيامها بمظاهر خاصة، عيد الفطر الذي يأتي في أعقاب شهر رمضان المعظم، وعيد الأضحى الذي يأتي مباشرة بعد يوم عرفات حيث يؤدي المسلمون فريضة الحج، ثم يوم الجمعة الذي يكون عيداً ثالثاً له حرمته حيث يذر المسلمون بيعهم وشراءهم ويتجهون إلى سماع الخطبة وأداء فريضة الجمعة.

وهكذا فلم يكن هناك ما نسميه اليوم (عيد المولد) أو (عيد الهجرة) أو (عيد أول السنة) ومن ثمة ظلت كتب التاريخ الإسلامي القديمة خالية من كل إشارة تدل على أن الجماعة الإسلامية سواء على مستوى الحكومات أو على مستوى الأفراد، كانت تقوم بإحياء أعياد غير الأعياد الثلاثة السالفة الذكر... ومن ثمت لم نر ذكراً لها في عهد الأدارسة والمرابطين والموحدين...

إلا أن بعض الجهات الإسلامية لم تلبث أن تنبهت إلى ضرورة الاهتمام بالحدث العظيم الذي يتجلى في ظهور النبي ﷺ. ولا بد أن المفكرين من المسلمين آنذاك وازنوا بين أيام الإسلام المحجلة ليختاروا منها يوما يكون هو المناسبة... وهكذا وقع الاختيار على حادث ميلاد النبي ﷺ، باعتباره طالع يمن على الكائنات البشرية.

ومن الموافقات الغريبة أن نجد أن الاهتمام بالموضوع، بصفة منتظمة، يأتي من المغاربة تقريباً في نفس الوقت الذي أخذ فيه القادة بالمشرق يقيمون احتفالات المولد، هل هو توراد خواطر أم كان مما يدخل في إطار التنافس بين قادة المشرق والمغرب... قد يكون هذا وذاك...

ولقد كانت الجهات التي تنبهت إلى هذه المنقبة هناك أواخر القرن السادس الهجري أسرة بيكَتيكَين (BEGTEGIN) في شخص زعيمها مظفر الدين كوكبوري (KOKBÜRI) صاحب إربل...

فقد تحدث ابن خلكان في وفياته عن احتفال هذا الملك بمولد النبي ﷺ، حيث كان يصل إليه في كل سنة من البلاد القريبة كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول حيث تتميز الاحتفالات بإنشاد السماع واستعراض سيرة النبي ﷺ، وإيقاد الشموع الموكبية التي تحمل على البغال، كما تتميز بإطلاق البخور وتقديم السماط للحاضرين...

وقد كان ابن دحية المغربي في جملة الذين حضروا إربل سنة 604 وشاركوا في تلك الاحتفالات وألفوا لمظفر الدين حولها كتاب «التنوير في مولد السراج المنير»...

أما الذين تنبهوا إلى الموضوع في ديار المغرب فهم أُسرة العَزَفِي أصحاب سبتة الذين سنوا عيد المولد أواخر القرن السادس في بلاد المغرب «وأتوا بزلفى تدنيهم إلى الله وتقرب» على حد تعبير المقري، وقد رأينا أبا العباس العزفي يشرع في تأليف كتاب «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» الذي ينهيه ولده أبو القاسم، كما سنرى ابن مرزوق يؤلف كتابه «جنى الجنتين في فضل الليلتين».

ولم تلبث هذه المناسبة أن أصبحت في عداد الأَيام التي تحتفل بها الدولة على المستوى الرسمي في سائر الجهات المشمولة بحكم بني مرين سواء في بلاد المغرب أو الأَندلس، وهكذا وجدنا السلطان أبا يعقوب يوسف يصدر ظهيراً (مرسوماً ملكياً) شتاء سنة 691 = 1292 في أعقاب جواز العاهل المريني إلى الأندلس لرد عدوان المغيرين على الثغور التابعة للمغرب... وجدناه يشرّع الاحتفال بعيد المولد في سائر جهات

المغرب ويعتبره يوماً رسمياً للدولة، تتلقى فيه التهاني من سائر طبقات البلاد، الأمر الذي استمر عليه التقليد إلى اليوم في المغرب الأقصى.

وإذا كانت مجالس الاحتفال بهذه المناسبة قد أصبحت عادية عند بني مرين بفاس... فإنها عند إخوانهم بني عبد الواد في تلمسان أثارت انتباه يحيى ابن خلدون الذي تحدث هو الآخر عن المشاعل التي كانت تحكي الأسطوانات القائمة، كما يحكي عن المباخر الضخمة، ويحكي عن السماع الذي يسترسل إلى آخر الليل علاوة على نصب السماط !!

ولا بد أن نلاحظ أن الدواعي التي كانت وراء إنشاء مثل هذا الاحتفال بعيد المولد لم تكن فقط التعقيب على الشيعة الذين اعتادوا الاحتفال بمولد الإمام علي والحسين، ولكن الأمر يتعلق أيضاً بتقليد العادة التي جرى عليها المسيحيون في احتفالهم بعيد السيد المسيح وإقامتهم المهرجانات لأجل تلك المناسبة.

إن أهل سبتة أقرب الناس جواراً للمسيحيين وقد تتبع المسلمون دون شك اهتمام ذلك العالم المسيحي بأعياد الميلاد ومطالع العام فقاموا أي المغاربة هم كذلك بسن عيد المولد اجتهادا منهم وتعبيراً عن تشبث المسلمين بدينهم واعتزازهم بنبيهم...

وما من شك في أن أهل (إربل) انطلقوا من نفس المنطلق سيما وهم يحتكوّن هناك بالمسيحيين من كل جانب... لقد كان الأمر يقتضي ضرباً من المنافسات والمفاخرات والمتابعات... ولا بد أن نلاحظ أن فترة التقليد من جانب المسلمين اقترنت باحتفال العالم المسيحي بمطلع القرن الثالث عشر الميلادي الذي اهتزت له المحافل الدينية مما زاد في حماس المسلمين لتشريع منقبة الاحتفال بالمولد.

الجيش كان وراء الصّيت الدبلوماسي

- اهتمام المغرب القديم بجهاز الدفاع ـ دولة المرابطين.
- اللفيف الأجنبي : الافرنج والصقالبة والغز ـ أدوات القتال ـ الحروب نوع من التسلية عند المغاربة القدامى.
- المناورات والاستعراضات ـ اختراعات الأسلحة النارية ـ المعارك الكبرى.
- علاقات الجيش المغربي بالجيش العثماني ـ المؤلفات الحربية.
- جيش البواخر ـ أصداء الجيش المغربي في البرتغال وانجلترا واسبانيا وفرنسا... والشرق... وإفريقيا الغربية.
- الحرب النفسية كعنصر من العناصر التي كانت تعتمد عليها القيادة المغربية ـ الأيام الدامية بفاس كانت احتجاجاً من الجيش المغربي ضد الضغط الذي مارسته فرنسا على العاهل.
- الأسطول المغربي ودار الصنعة (Darsenal) في المعمُورة ـ عدد قطع الأسطول.
- أنواع القطع البحرية ـ أهداف الأسطول.
- مقاومة القراصنة الأوربيين ـ إنشاء المراكب الجهادية المغربية ـ محمد الثالث وفكرة إعادة (دار الصنعة) ـ الطلبة البحريون.
- التخطيط لوصول الأسطول المغربي للهند وأمريكا ـ تواطؤ الدول الأوربية ضد الأسطول المغربي.
- معاهدة إيكس لاشابيل ونهاية الأسطول المغربي ـ.

الجيش كان وراء الصّيت الدبلوماسي

وقد كانت الدبلوماسية المغربية مرآة لواقع مغرب قوي بجيشه المتطور المتحرك، وإذا ما استعرضنا مغرب ما قبل الفتح الإسلامي فسنجد المقاومة الضارية ضد نزول الرومان على السواحل المغربية وسنجد أن أولئك يضطرون في الأخير للجلاء عن البلاد... وسنجد أن أولئك المغاربة أنفسهم لم يذعنوا للفاتحين العرب إلا عندما اقتنعوا بصدق الرسالة الإسلامية. وبعد أن نشأت الدولة المغربية الأولى التي أرسى أسسها الإمام إدريس في الديار المغربية، عمل إدريس بجيشه الفتي على تقليص المذاهب المناوئة في الوقت الذي كان يقضي فيه على ما تبقى من رواسب العهود الماضية...

وبظهور الدولة المرابطية أمسى الجيش المغربي يحسب له حسابه سواء من حيث الكم أو من حيث النوعية أو من حيث التنظيم. فقد ارتفع عدده، وتخصصت فرقه، وتنوعت أسلحته وتعددت رسائله، وتميز ـ أكثر مما كان عليه في عهد الأدارسة ـ بطبوله وبنوده واستعراضاته وحرسه الخاص... ثم بوجود لفيفٍ من الافرنج والصقالبة والأغزاز والأعراب الذين كانوا يجدون في المغرب ملاذاً لهم من الرَجَّات التي كانت تعيشها بعض الجهات سواء في أوربا أو في المشرق... وهل ننسى أن المغرب كان من أقدم الدول التي أنشأت وزارةً منذ العصر الوسيط، شبيهةً بما يسمى اليوم بوزارة الدفاع.

وقد تحدث المؤلفون عن طريقة المغاربة في القتال وما كانوا يتوفرون عليه من قسي ورماح ودروع وبيضات وسيوف وخناجر... واهتم الشعراء والأدباء بإبراز مزايا هذا الجيش الذي حقق في «الزلاّقة» وفيما أتى بعدها أكبر نصر رددت صداه ممالك أوربا والخلافة في بغداد... لقد كانت الحروب بالنسبة للمغاربة نوعاً من التسلية على ما يقوله الإخوة : (طارو) في (أزهار البساتين)..!!

وعندما أتى دور الموحدين أولوا الجيش المغربي أيضا من عنايتهم فاستطاعوا أن يطووا الفيافي والقفار ويخترقوا الجبال والشعاب ويسمعوا أصداءهم للجهات النائية... لقد كانوا يصارعون في أوربا جيشاً يحاول أن يقصي العرب خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، وكانوا يصارعون مع ذلك زعماء المشرق الذين كانوا ينافسونهم ويتطلعون لنسف زعامة المغرب من أمثال قراقوش... وكان من شأن هذا ـ ولو أنه أضر بالقضية الأندلسية ـ أن يزيد في شوكة الجيش المغربي ويشحذ من عزمه...

وما بالك بجيش كان يتوفر على أسرع الطرق التي تربط بين شرق المغرب الكبير وغربه وبين جنوب أوربا وتخوم افريقيا السوداء... ولقد كانوا ـ كسلفهم المرابطين ـ لا يجدون غضاضةً في استقدام الخبراء الأجانب ـ على ما يلاحظه ابن خلدون، وكذلك في استعمال الأمراء من خارج البلاد والإغداق عليهم بالجامكيات عند كل شهر...

وكان عهد بني مرين أيضا ـ بالرغم من الحركات الانفصالية التي ظهرت في تونس وتلمسان ـ مثلاً للجيش اليقظ الذي اعتمد على المشاة والفرسان.. كما اعتمد بدوره على الخدمات التي كان يقدمها الخبراء الأجانب الذين يعملون ضمن قطاعات الجيش، وقد كان كسلفه يسهر على تنظيم الاستعراضات والمناورات الدورية حتى لا تخمد فيه جذوة الحماس وتتعطل دروس التمرين في الجند، وحتى تظل الروح المعنوية

يقظة لدى المقاتلين، لقد كانت تلك الاستعراضات والمناورات بمثابة حروب خفيفة أمام الملك... وقد كان جيش المرينيين أول جيش استعمل الأسلحة النارية في مقارعة خصومه ومنافسيه، واعتمد على الأنفاظ القاذفة في إسكات المتمردين والمتطلعين وذلك قبل أن تعرف ذلك أوربا بنحو ثلاثة أرباع القرن على ما سترى.[1]

وقد تميز الجيش على عهد السعديين بتنظيمات محكمة دقيقة جعلت منه بطلاً في أعنف وأقوى معركة عرفها العالم : معركة القصر الكبير أو وادي المخازن حيث شاهدناه يركّع الجيش البرتغالي ومن ورائه أوربا بكاملها... ويجهز على أمبراطوريةٍ كانت إلى الأمس القريب سيدة الدنيا..! بل رأيناه أي الجيش المغربي ينساب في مجاهل الصحراء ليقطع الطريق على الذين كانوا يخططون لتطويق المغرب، وذلك في أعظم وأضخم وأتقن وأقوى مسيرة نحو أمبراطورية (سُنْغاي) التي أمست أثراً بعد عين !.

وإذا كانت جزائر بني مزغنة قد اضطرت ـ أمام فراغ جهازها وعجز حاميتها ـ للاستنجاد بالباب العالي وتسليم أمرها إلى الأتراك، فإن الجيش المغربي لم يدر بخلده أن يفعل ذلك بالرغم من ابتلائه أيضا بالاستعمار الايبيري... بل إن الغالب بالله أجهز على من تسلل من الأتراك إلى بلاده أواخر الوطاسيين... فكان المغرب بذلك (مدرسة) أيضاً لصنع الرجال والأبطال... وكان بذلك مثلا للتدليل على الوجود العسكري المستمر. وقد احتفظت المكتبات العربية بعددٍ من المؤلفات التي كانت تعالج على ذلك العهد، المواضيع العسكرية من أمثال كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع، لابراهيم الأندلسي[2]..»

1) الاستقصا، طبعة البيضاء ج 3 ـ 36.

2) هو إبراهيم ابن أحمد بن زكريا... الذي ألف هذا الكتاب بالإسبانية في حدود 1008 = 1599 ثم ترجمهُ أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي ترجمان السلطان زيدان ابن المنصور السعدي وفرغ من ترجمته يوم 10 ربيع الثاني 1048.

وأتى دور العلويين بعد فترة عصيبة اجتازها المغرب في أواخر الدولة السعدية تمكن فيها الأجانب من احتلال عدد من الثغور... وهنا اتجه اهتمام هؤلاء إلى إعادة تنظيم (الجيش الوطني) الذي كان ابتداه المنصور السعدي، وهكذا كان ما يسمى في التاريخ المغربي : (جيش البواخر)، وقد جاء هذا الإسم من أن الجنود أقسموا يمين الإخلاص مع العاهل المغربي[3] على صحيح الإمام البخاري، وهكذا كان أيضا ما يعرف بكتائب القبائل[4]... وبواسطة الجيش تحرّرت جل الثغور... واستمر هذا الجيش يعمل على صد العدوان غير متهيب مواجهة الجيوش الأوربية القوية سواء منها انجلترا أو البرتغال أو فرنسا التي أصبحت جارته عوض تركيا كما عرفنا.. أو إسبانيا التي تطاولت على المغرب بعد أن تخيلت أن الجيش المغربي أمسى منهوك القوى... وإن من أبرز ما يثير الانتباه في الجيش المغربي اعتمادَه من قديم على عنصر الحرب النفسية أيضا كخطة من خططه فهو لا يتردد في استعمال كل الوسائل التي من شأنها أن تفت في عضد خصومه بما في ذلك التهديد بتصفية الرهائن الغالية على نحو ما كنا نسمعه عندما حاصر البرتغال مدينة طنجة.. والتاريخ كما يقال سلسلة حوادث يحرك دائرتها لولب الانفعالات.

وحتى بعد أن تحالفت قوى الشر جميعا على إرغام الحكومة المغربية على قبول بنود معاهدة الحماية التي تجعل حدّاً لنشاط

---

3) كان ذلك على عهد المنصور السعدي أوّلا ثم على عهد السلطان المولى إسماعيل...

4) كان العاهل يستنفر من كل قبيلة عددا من الكتائب، فيها ما يصحب ركبه، وفيها ما يوزع على مواقع العواصم والمدن، وكل من النوعين يقسم إلى ما يسمى بالأرحاء الست وإلى حناطي داخلية وبرانية، والرحى في الاصطلاح المغربي، كما أسلفنا، عبارة عن تجريدة من الجند تصل إلى ألف ما بين فارس وراجل وتحت كل قائد رحى قائد للمائة... أما الحناطي وتعني الوظائف فإن البرانية منها تعنى الفرق المكلفة بحراسة المشور وأصحاب المظل وكلها ترجع لقائد المشور بينما الحناطي الداخلية تعني أصحاب الأتاي والسجادة الخ...

وجاءتنا ببيعتها مسطرة بخط علمائهم وخطاب أعيانهم ولما
ان كانت تنبعث عندنا وجملة حواضر الغرب تعين علينا ان نبشركم
بما فتح الله به على المسلمين من فتح مدينة العرائش وها هي من جملة مدن
الاسلام يتلى فيها كلام الله وتقام فيها حدود الله ومكن الله عباده
المسلمين من جميع ما احتوت عليه من سائر ما كان فيها من نصارى ونحاس
وانفاض وبارود وعدد وعدة وملكنا سبحانه رقابهم وطهرها الله من
جميعهم وكان فتحا على المسلمين مبينا فوجدنا فيها من النصارى الذين
دخلوا ايدينا اسارى سبع عشر مائة وستة وعشرين كافرا وقتل منهم
نحو الالف ايام حصارنا لهم ومقاتلتهم ووجدنا في المدينة من الانفاض
مائة وعشرين من الابكام يوجد مثلها في بلد النصارى كلها والفينا
بها خمسمائة مدفع من الحديد والعين من المكاحل ومن البارود خمس
مائة قنطار ومدهرا ساعدنا النفير للبنبات واما الكور والرصاص
وآلة الحرب والاثاث فشيء تجاوز العد والحد وحيث احتوت
حواضركم تنبعث على طلباء واخيار وكنتم حتى انتم مجاورين للعبد
العبارة فناسب بهذا الفتح وبعثنا اليكم الرقاص بالعبور فان هذا
الفتح فرح به كل موحد وحزن له كل جاحد

كانت أثمنَ هدية قدمها السلطان مولاي إسماعيل إلى شعبه بمناسبة مطلع القرن الهجري الثاني عشر هي استرجاع العرائش يوم 18 محرم 1101 = 1 نونبر 1689.

تبشير تُنْبُكْتَ بفتح العرائش !

ورد في جواب السلطان مولاي إسماعيل على بَيْعة أهل تُنْبُكْتَ ما يلي :

«... جاءتنا بيعتكم مسطَّرةً بخطّ علمائكم وخطاب أعيانكم... ولما أنْ كانت تُنْبُكْتَ عندنا من جملة حواضر الغرب... تعين علينا أن نبشركم بما مَنَّ الله به على المسلمين من فتح مدينة العرائش، وها هي من جملة مدن الإسلام يُتلى فيها كلام الله وتقام بها حدود الله... ومكن الله عبادهُ المسلمين من جميع ما احتوت عليه من سائر ما كان فيها من نصارى وذخائر وأنفاض وبارود وعَدَد وعُدَد، وملكنا سبحانه رقابهم وظفَّرنا الله من جميعهم... وكان فتحاً على المسلمين مبيناً فوجدنا فيها من النصارى الذي دخلوا أيدينا أسارى سبع عشر مائة وستة وعشرين كافراً، وقُتل منهم نحو الألف أيامَ محاصرتهم ومقاتلتهم ووجدنا في المدينة من الأنفاض مائةً وعشرين لا يكاد يوجد مثلها في بر النصارى كلها، وألفينا بها خمسمائة مصفح من الحديد وألفين من المكاحل ومن البارود خمس مائة قنطار ومهراساً عديم النظير للبُنْبات... وأما الكور والرصاص وآلة الحروب والأثاث فشيء تجاوز العدّ والحدّ... وحيث احتوت حاضرتكم تُنْبُكْتَ على صلحاء وأخيار وكنتم حتى أنتم مجاورين للكفار عرفناكم بهذا الفتح وبعثنا إليكم الرَّقّاص بالفور فإن هذا الفتح فرح به كلُّ موحِّد، وحزن له كل جاحد...».

عن المخطوطة التي وقفتُ عليها بالمكتبة الوطنية بباريز..

استغلال الطاقة الشمسية

يقـول ابن الهيثم البصري : إن من أشرف مـا استنبطـه المهنـدسـون وتنـافس فيـه المتقـدمـون وظهر فيـه بـديـع خـواص الأشكال الهندسيـة ومـا ينشأ عنهـا من الأُمور الطبيعيـة اصطنـاعَ المرايا المحرقة بانعكاس شعاع الشمس فسلكوا من اتخاذها وجوهاً مختلفـة... حيث تتخـذ صفيحـة من الفـولاذ ذات سمـك خـاص... وهي لا تكون إلا في ساعات معينة وباتجاهات خاصة.

لقـد ألف كثيرون حـول المـوضوع، وقـد عرف العرب هـذا «الجهاز الحربي» على نطـاقٍ مـا نزال نحن بحـاجـة فيـه إلى مَسْحٍ أوسع لمعرفة مـدى تصنيع العرب لـه... **ومن خلال قراءة كتب الحسبـة التي أُلفت في الغرب الإسـلامي يظهر أن النـاس في الأندلس والمغرب كـانوا يعرفون عن استغلال الطـاقـة الشمسيـة، فقـد تحـدثـوا عن الـذين يتـوسلـون بـواسطـة تعريض المرآة للشمس لإحراق الأوراق، أمـام السـذّج من النـاس...**

رسالة ابن عبد الرؤوف : هيسبيريس 1960
القلقشندي : الصبح 14: 127
كشف الظنون 2، 416
عبد الجبـار السـامرائي : المرايـا المحرقـة، مجلة المورد العراقية مجلد 15 عـدد 1 ـ 1406 ـ 1986 ص 15 ـ 18.

الجيش، نجد أن هذا الجيش يتحرك بعد نصف شهر فقط من التوقيع على المعاهدة المذكورة ليسجل، وفي مدينة فاس، ما عرف في التاريخ بالأيام الدامية التي دشنت سلسلة من مظاهر المقاومة المسلحة لا تختلف عن الحركات الجريئة التي قامت في مختلف جهات المغرب... وكان على الجيش الفرنسي والإسباني بما يملكه كل منهما من تنظيم وانضباط أن يقفا مرغمين أمام شمم جبال الأطلس وجبال الريف... وأمام تمرّد المغاربة رجالهم ونساءهم على السواء !

إن كل هذا الرصيد كان وراء سمعة الجندي المغربي في الخارج وبالتالي وراء أصالة النضال من أجل السيادة ووراء الذين كانوا يمثلوننا في الخارج...



والحديث عن (الجيش) كعنصر من العناصر التي تفرض على الغير احترامنا لا ينسينا تخصيص بعض الكلمات لأسطولنا الذي كان أسطورة البحار وكان فعلاً وراء تهافت الممالك على كسب صداقة المغرب، وكان وراء السرّ في وجود ذلك العدد الضخم من سفرائنا في الخارج، أو من سفراء تلك الممالك في المغرب...

إن للمغرب تقاليد بحرية ضاربة في جذور التاريخ، ذلك لأن وضعه الجغرافي الممتاز، باعتباره مطلاً على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، جعله ينعم بذلك المركز المرموق، تضاف إلى هذا أهمية بوغاز جبل طارق الممر الذي يصل المحيط بالبحر المتوسط ويربط إفريقيا بأروبا...

وهكذا فمن خلال استعراض القوة البحرية للمغرب عبر التاريخ سنقف على عدد من الومضات المضيئة التي تتصل بحياة سكان المغرب الأولين قبل أن يصلهم أسطول الفينيقيين ومن تبعهم من القرطاجيين،

ثم الرومان والوندال والبيزنطيين إلى أن يظهر الإسلام ويقدم موسى بن نصير ويقوم طارق ابن زياد بعبوره التاريخي إلى القارة الأخرى...

سنقف على مبادرة دولة الأدارسة... ثم على التنافس الطاحن بين الأمويين في الأندلس وبين العبيديين في افريقية حيث شاهدنا مئات القطع من أسطول هذا الفريق أو ذاك تتضارب في عرض البحر المتوسط... سنقف على اهتمام المرابطين الذين أصبحوا سادة المَغرب والأندلس معاً، فأخذوا بمخنق الساحلين الإفريقي والأوربي.

وهكذا فإذا كانت صناعة الأساطيل قد ضعفت في المشرق، فإنها أي هذه الصناعة صمدت في ديار المغرب حيث وجدنا ابن خلدون يؤكد أن «الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد كان موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيّفه عدو ولا كانت لهم به كرة»... على حد تعبيره، ومن ثمت استعاد المغاربة السيطرة على المتوسط وغدا من المعروف، «أنه لم تسبح للنصرانية فيه ألواح» على نحو ما تحدث التاريخ عن إخوتهم في المشرق أيام عزة أسطولهم.

فمع ظهور دولة المرابطين أواسط القرن الخامس الهجري = أواسط القرن الحادي عشر الميلادي - برزت «السياسة المتوسطية» للمغرب في أوضح صورها، فقد كان المغرب يتتبع عن كثب ما يجري في الساحة الأندلسية من استعدادات محكمة لنسف الوجود الإسلامي بتلك الديار، وكان معنى هذا أن عمليات النسف ستتجاوز البوغاز لتنزل ضربتها القاضية بالدولة المغربية، ولهذا وجدناهم، أي المرابطين يأخذون في إنشاء السفن والمراكب استعداداً للعبور للقارة الأوربية بقيادة الرؤساء من أسرة بني ميمون، وأمثال داود بن عائشة وعليّ بن عُمَر...[5]

---

5) د. التازي : البحرية المغربية عبر التاريخ، محاضرة 14 يناير 1983، بمعهد الدراسات البحرية.

لقد أمسى كافياً أن يذكر إسم المرابطين لتخويف المتغطرسين والمتربصين للمسلمين في كلّ مكان، سواء في غرب أروبا أو وسطها من الممالك التي تشاركنا في البحر المتوسط... لقد بنى المرابطون أسطولاً قوامه مائة بارجة حربية كانت موزعة على الموانئ الرئيسية في المغرب والأندلس وخاصة بميناء ألْمرية التي كانت مركزاً لقيادة الأسطول المرابطي.

وبما أن للمغرب على هذا العهد صلةً قارةً ببلاط بغداد، فقد وجدنا أنه يعتمد على قطعه البحرية أيضاً في الوصول إلى أقرب نقطةٍ تربط اتصاله بعاصمة الخلافة بالمشرق.

ولابد أن يرجع المرء إلى أرشيف أقوى جمهورية على ذلك العهد : جنوة، ليعرف عن صدى قوة ملك المغرب في عرض البحار...

وقد جعل الموحدون من المغرب دولةً بحريةً تتمتع بأقوى أُسطول، وقد احتفظ بنو مرين بمركز الأُسطول كما ـ كان الأَمر كذلك بالنسبة للوطاسيين والسعديين والعلويين.

كلّ الحركات الاستعمارية التي عرفها المغرب وردت عليه طمعاً في منافذ البحار... الفينيقيون شيّدوا مؤسساتهم على طول الساحل الأطلسي والمتوسط... والوجود الروماني بالمغرب كان يعتمد على سبتة والقصر الكبير وطنجة وأصيلة وشالة كقواعد تحميه... وكذلك فإن المحاولات القشتالية والبرتغالية على طول الساحل المغربي كانت تعبيراً عن تلك الأطماع... فلم يلبث الاستعمار أن احتل بعض الثغور المغربية سواء في الشمال أو الجنوب، تمهيداً لاكتساح البلاد، وأخيراً فإن الاستعمار الفرنسي بدوره لم يكن له من سبيل لإحكام قبضته على المغرب غير البحر.

وثيقة تاريخية وقفت عليها في بيزا
عن أيام المرابطين..

إن أقوى ما يعبر عن مكانة الأُسطول المغربي على **عهد المرابطين** هذه الوثيقة الفريدة التي وقفت عليها بأرشيف الدولة في جنوة. كلُّنا يعرف عن القوة البحرية لِجنوة ومرسيليا في العصور الوسطى، ومع ذلك فإننا، من خلال هذه الوثيقة المؤرخة عام 1138 = 532 أيام عليٍّ بن يوسف بن تاشفين، نقف على اتفاقية تعهد بمقتضاها «المرسيليون» بحلف دفاعي وهجومي مع جمهورية جنوة لمدة عشر سنوات، وقد التزم المرسيليون أمام الجمهورية بمراعاة السلام بالنسبة **لرعايا ملك المغرب، كما التزموا بمنع قراصنتهم المسلّحين من قِبَلهم، من مهاجمة المغاربة، ويشترط المرسيليون لهذا أن تحصلَ لهم الجمهورية المذكورة على عقد سلام مع ملك المغرب أو تَعدّهم بالدفاع عنهم ضد هجماته فيما يتجاوز السنوات العشر، وبتعويضهم عن جميع الأضرار التي قد تلحقهم ابتداء من الفترة المحددة المذكورة.**

ومن هنا نتصور مدى رد الفعل المغربي إزاء كل تلك التحركات وعمله أي المغرب على أن يكون دائما مزوداً بأسطول قوي على الواجهتين معاً في الأطلسي والمتوسط... وندرك معنى إنشاء المغرب لوظيفة أمير البحر، ثم لوزارة البحر... وندرك بالتالي صمود المغرب إلى آخر نفس من أجل الحفاظ على أسطوله إلى أن اضطر إلى التخلي عنه ـ مؤقتا ـ عندما قصفت فرنسا مدينة طنجة والصويرة انتقاماً من المغرب الذي ساند المقاومة الجزائرية بعد قضاء فرنسا على الوجود التركي بالجزائر(6).

وما تزال آثار (دار الصنعة) (L'ARCENAL) التي بنيت في بداية العهد المريني مشاهدة للعيان في سلا، وخاصة بابها الكبير المعروف بباب المريسي، وهي الدار التي كانت تصنع فيها الأساطيل البحرية ويجلب إليها العود من غابة (المعمورة) المجاورة، وترسل من هناك في الوادي، وقد خطط بناءها المهندس أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الإشبيلي، المتوفى بفاس الجديد، عام 714 هـ = 1314م، وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الأجرام، ورفع الأثقال بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية على حد تعبير المؤرخين المغاربة، وهو تعبير ـ على قصره ـ يدل على ما يقصد مما يتعلق بدار الصنعة تلك، من آلاتٍ ثقيلة رافعة، ومن متخصصين بارعين في الموضوع...

وحتى نأخذ فكرة عن حجم ذلك الأسطول ينبغي أن نعي خبر المؤرخين حول مسيرة عبد المؤمن إلى المهدية في سبعين شينيا وطريدة وشلندى..! وينبغي كذلك أن نعرف أن سنة 557 = 1162 شهدت أربعمائة قطعة بحرية : منها بحلق المعمورة مائة وعشرون وبطنجة

---

6) د. التازي : الأسطول المغربي عبر التاريخ... مجلة البحث العلمي، عدد 34 ـ 1984.

وسبتة مائة قطعة، ومثلها بافريقية، بينما وضعت ثمانون قطعة بالثغور الأندلسية، تلك هي الأربعمائة قطعة..!

وقد حدث ذات يوم أن اتصل بأبي يوسف يعقوب المنصور أن الخصم أو عز لأساطيله باحتلال مضيق جبل طارق فطير الأمر لمواقع أسطوله لتبعث له بنجدة عاجلة فتوافت له في الحين ست وثلاثون قطعة من سبتة وطنجة وثغور الريف ورباط الفتح والمنكّب والجزيرة (شُقْر) وطريف ممّا صرف الخصوم عن تنفيذ خطتهم !.

وكما كان الشأن بالنسبة للجيش البري، فقد اعتاد القادة المغاربة بين الفينة والأخرى أن يقوموا بمحضر الملوك من الموحدين والمرينيين بمناورات بحرية على شكل معارك خيالية لكي تظل البحرية على أهبة الاستعداد في كل وقت وحين حيث كان البحارة «يتجاولون ويتناطحون ويتطاردون» على حد تعبير المؤرخين، وحيث كان الملوك ينثرون على الرؤساء المكافآت تشجيعاً لهم واحساناً...

وينبغي أن نميّز بين القطع الثقيلة من الأسطول... والقطع الخفيفة التي تختص بمراقبة الشواطىء وإبلاغ البريد المستعجل على ما يشير إليه المؤرخ ابن صاحب الصلاة، على أن هناك نوعاً ثالثاً من القطع أُنشىء للرد على حركات القرصنة الأوربية التي ظهرت في عرض البحر منذ هذا التاريخ، وهذا النوع يحمل قديما اسم المراكب الجهادية أو المراكب القرصانية على ما اصطُلح عليه فيما بعد تقليداً للاستعمال الغربي...

لقد انتشرت بالفعل القرصنة الأوربية... وكان من ضحاياها الأولين بعض الأميرات الموحديات ممن كن في طريقهن إلى إفريقية..! كما كان من ضحاياها مراكب للحجاج المغاربة برياسة القائد مسعود ايام الناصر الموحّدى... وكان من ضحايا القرصنة أيضا مدينة سلا، عندما انقضوا

عليها عام 658 = 1260... وهنا كان على الأسطول المغربي أن يجيب عن العدوان بمثله، بعد أن استعصى على الحكومة اقناع المتصدين للقرصنة بضرورة حرية الملاحة في المتوسط، وبعد أن لم تؤد المعاهدات والاتفاقيات إلى نتيجة تذكر في بعض الظروف.

وعبثاً كان تشكي ملوك المغرب لدى بعض ملوك أوربا من مضاعفات عمليات القرصنة والإرهاب، على ما نجده في المراسلات المتبادلة، وعبثاً كان وعد أولئك الملوك بقمع قراصنتهم، وهكذا كان رد الفعل من طرف «المراكب الجهادية» التي أصبح عددها يفوق عدد المراكب العادية.

وعندما اعتدي على الخزانة العلمية للسلطان زيدان، وسيقت إلى إسبانيا، وعندما طرد المسلمون (الموريسكوس) لآخر مرة من إسبانيا، تكونت حركة مقاومة بحرية شلّت من نشاط البحرية الأوربية وأخذت تلحق أفدح الأضرار بالمتسللين، الأمر الذي يفسره وجود المئات من الأسرى من هنا أو هناك في هذه المنطقة أو تلك، ويفسره كذلك تبادل السفارات بين المغرب وغيره من أجل الوصول إلى حل لمشاكل القرصنة...

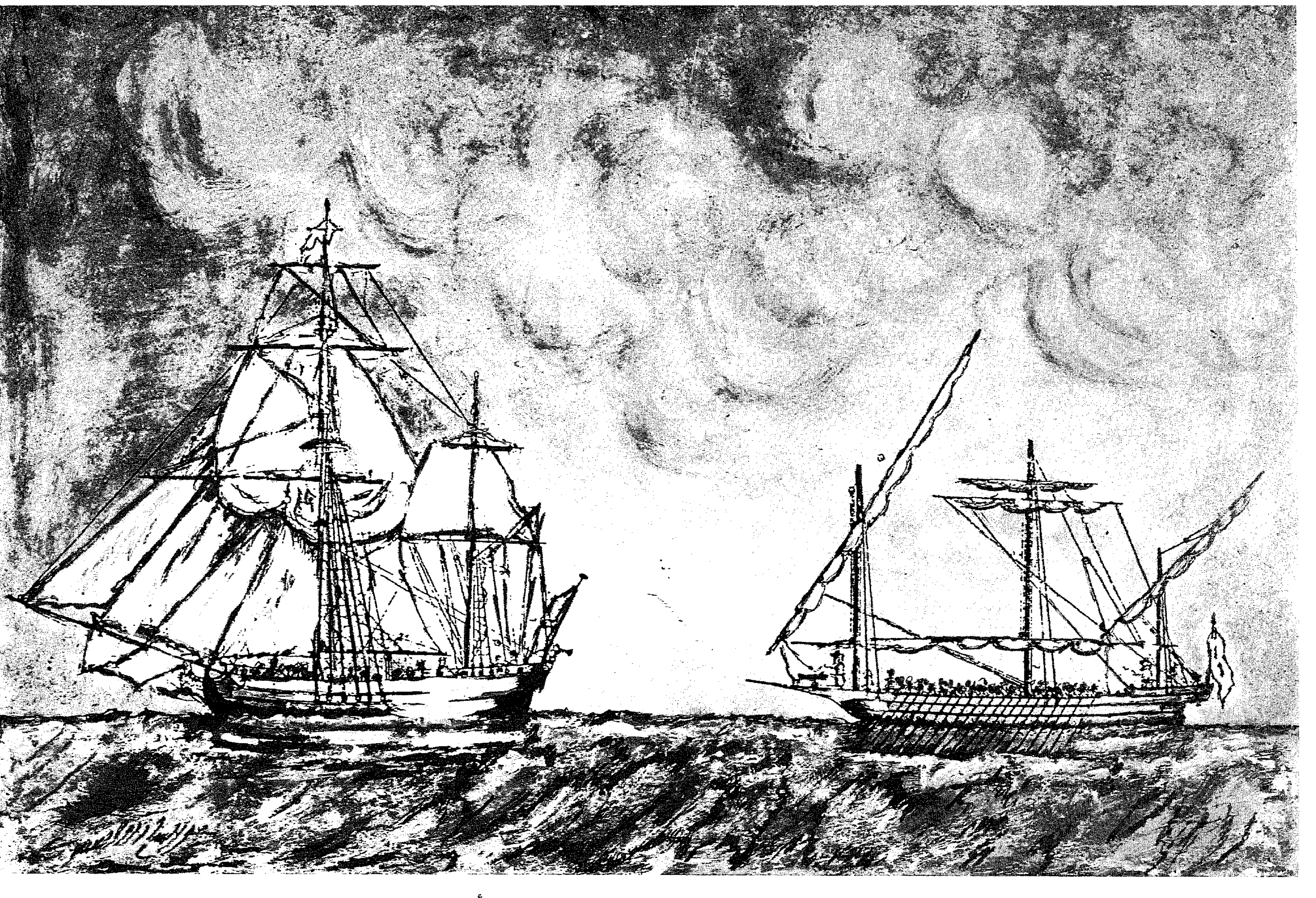
وفي أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله استدعى خبراء من اسطانبول في محاولةٍ لإحياء دار الصنعة، حيث استمع إلى وجهة نظرهم وتسلم منهم التصميم الذي رسموه على قرطاس...

وقد أعطى القنصل الدانماركي هوست ـ وكان معتمدا لدى الملك، وصفاً للأسطول المغربي أواسط القرن الثامن عشر، حيث ذكر عدد السفن الموجودة بمرسى سلا بأسمائها وأسماء رؤساءها وعدد بحريتها وعدد ما تحمله من المدافع... كما تحدث عنه عدد من الدبلوماسيين من أمثال دوشيني الذي نوه بالسمعة التي خلفتها هذه السفن بين دول أوربا...

فلقد بلغ عدد الرؤساء ستين وبلغ عدد الجنود البحريين أربعة آلاف جندي، وما فتىء العاهل المغربي الملك محمد الثالث يستنفر الشباب الذين وصل عددهم في بعض الدَّورات التدريبية إلى ألف نسمة كان السلطان يعهد بهم إلى من يقوم بتدريبهم على ظهر المراكب والسفن حتى تزول عنهم دهشة البحر» على ما يقوله صاحب الروضة...

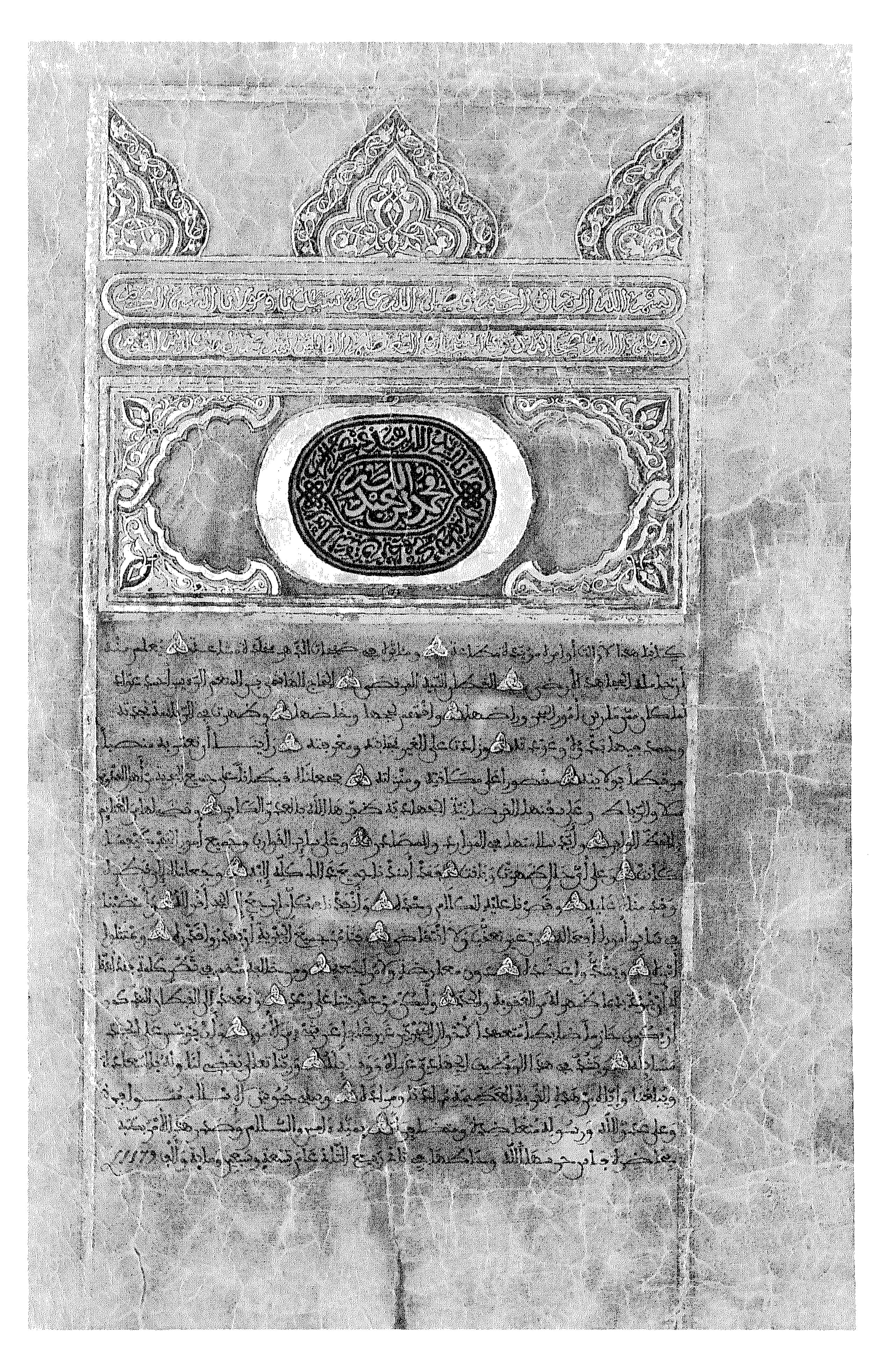
وقد كان المغرب حريصاً جداً على أن يواكب أسطوله التقنيات الحديثة، الأمر الذي تفسره مئات الفاتورات والكشوفات التي تزخر بها أرشيفات المصانع الكبرى في الدول التي اشتهرت بصنع السفن وقطع الغيار... وقد وقفنا في بعض الوثائق على المواصفات التي كان العاهل يقترحها لهذا المركب أو ذاك... وهل ننسى أن (محمد الثالث) هو الذي كان يعتزم أن يصل أسطوله إلى الهند وأمريكا حسب رسالةٍ منه موجهة إلى السلك الأجنبي ؟ وستمر بنا مواقف هذا الأسطول سواء ضد إسبانيا أو ضد فرنسا أو ضد بريطانيا أو ضد النمسا كذلك... وكمظهر من مظاهر الأمن الذين كان المغرب يحرص على بسطه في البحار نجد موافقة المغرب على مبدإ «الجواز البحري» الذي ينبغي أن يحمله الرؤساء حتى تقطع الطريق على القرصنة... وكمظهر من مظاهر الترتيب والتنظيم نجد أن العاهل يكافىء ـ كما أسلفنا ـ الرؤساء البحريين بسيف يسمى بالتركية (الياتغان) «يكون ذلك بمثابة وسام شخصي للرئيس البحرى لا يستغله غيره، وهو كما قلنا عبارة عن سيف ذي رأسين محلى بالفضة له قبضة من عاج مرصع بالذهب والأحجار الكريمة وله غمد من الذهب مما يشبه أن يكون خنجرا خاصا...

وقد استمر الأسطول المغربي يؤدي مهمته إلى إن كانت الأزمة المغربية الأمريكية أيام السلطان المولى سليمان بسبب وقوف المغرب



رسم فريد عن وثيقة سويدية نادرة يعطي صورة دقيقة لاستيلاء سفينة من الأسطول المغربي (على اليمين) أيام السلطان مولاي عبد الله على مركب يوم 23 غشت 1754، في أعقاب خروجه من قرطاجة في اتجاه نابولي وكان آتيا من إيرلاندا... كانت السفينة المغربية تتوفر على عشرة مجانيق.

عن مذكرات ماركوس بيركَ راجع صفحة 138 ـ 139 من هذا المجلد الثاني.

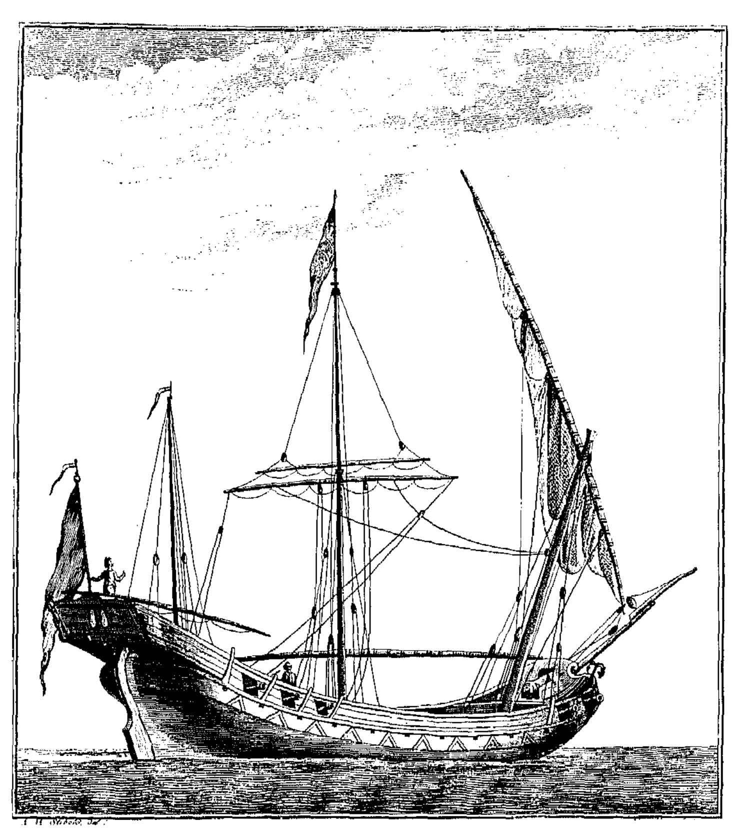


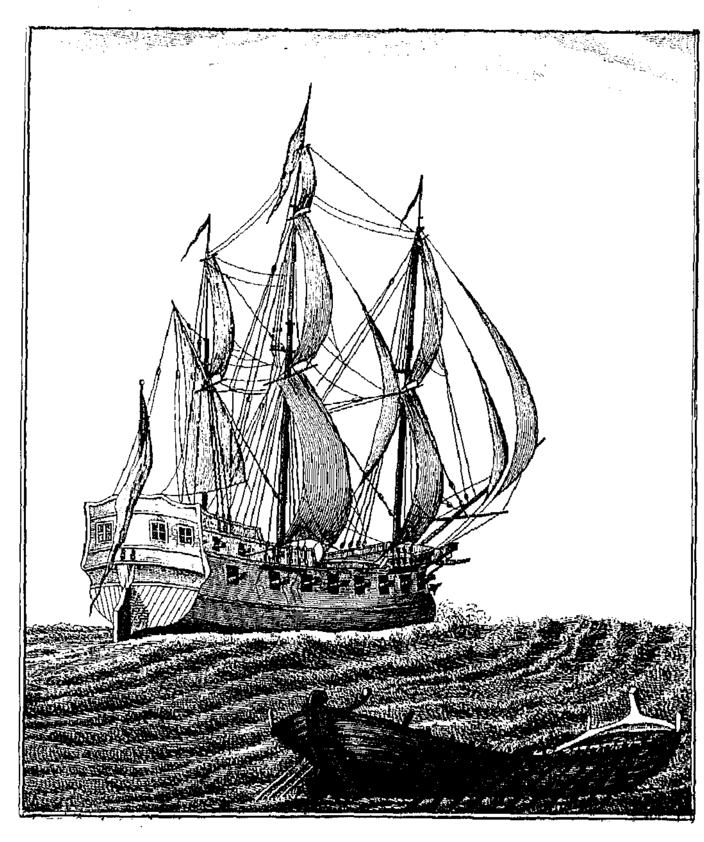
صورة للظهير الذي أصدره السلطان سيدي محمد ابن عبد الله بتعيين القبطان الحاج الهاشمي عواد الدكالي الهلالي السلوي قائدا على الأسطول المغربي. والظهير يحمل تاريخ 2 ربيع اثاني 1199 = 12 يبراير 1785

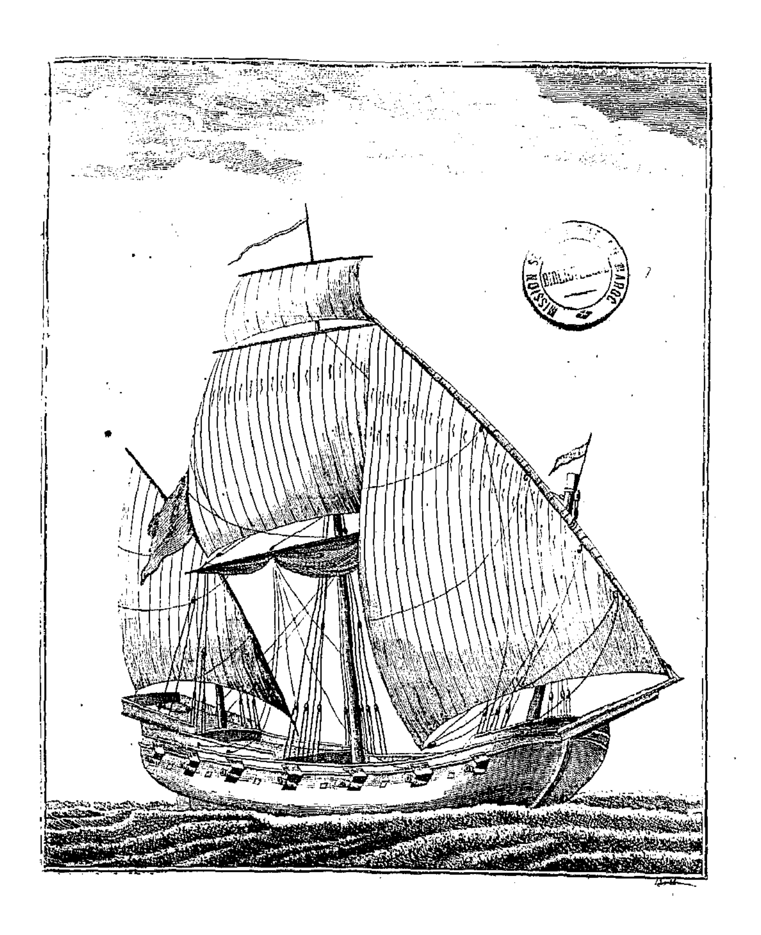
«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم؛ وعلى آله وأصحابه ذوي التبجيل والتعظيم؛ القائمين بشريعته، الناصرين لدينه القويم؛

نص طابعه : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً : محمد بن عبد الله» ونص خطابه :

«كتابنا هذا لا زالت أوامره مطاعة؛ ومآثره في صفحات الدهر مخلدة مشاعة؛ يعلم منه أن حامله المجاهد الأرضى؛ القبطان النبيه المرتضى الحاج الهاشمي بن المنعم الرئيس أحمد عواد لما كان ممن مارس أمور البحر وراضها؛ واقتحم لججها وخاضها؛ وظهرت في الرياسة نجدته؛ وحمدت فيها بدؤه وعودته؛ وزادت على الغير نجابته ومعرفته؛ رأينا أن نعمر به منصبا يبقى مرتبطا بولايته؛ مقصوراً على مكانته ومنزلته؛ فجعلناه قبطانا على جميع البحرية؛ أهل العدوتين سلا والرباط وعلى سفنها القرصانية الجهادية؛ ظفّرها الله بالعدو الكافر : وقضى لها من الغنائم بالحظ الوافر؛ وأبد سلامتها في الموارد والمصادر؛ وعلى سائر القوارب وجميع أمور البحر كيف ما كانت؛ وعلى أي حال ظهرت وبانت؛ فقد أسندنا جميع ذلك كله إليه؛ وجعلناه إلى نظره وقدمناه عليه؛ وقصرنا عليه الكلام وحده وأنفذنا في كل ما يرجع إلى البحر أقواله؛ وأمضينا في سائر أمورها أفعاله من غير تعقّب ولا انتقاض فنأمر جميع البحرية أن يقدروا قدره؛ ويمتثلوا أمره؛ ويشدّوا عضده دون معارضة ولا مراجعة ومن خالفه منهم في شطر كلمة فقد أذنا له أن يؤدبه بما ظهر له من العقوبة والحد؛ وليكن من عقوبتنا على وعد؛ ونعهد إلى القبطان المذكور؛ أن يكون حازما ضابطاً متعهداً لأحوال البحريين غير غافل عن شيء من الأمور؛ وأن يؤسس على الجد مسائله؛ ويشد في هذا الوظيف الجهادي عراه ووسائله؛ وربنا تعلى يقضي لنا وله بالسعادة؛ ويبلغنا وإياه من هذه القربة العظيمة مرادنا ومراده؛ ويبقي جيوش الإسلام متوافرة؛ وعلى عدو الله ورسوله متعاضدة ومتضافرة : بمنه آمين صدر منا الأمر بكتبه بحاضرة فاس حرسها الله وحاطها في ثاني ربيع الثاني عام تسعة وتسعين ومائة ألف».







قطع من الأُسطـول المغربي عن
كتاب هوست الدانماركي.

بجانب طرابلس ضد تصرُّف بحرية الولايات المتحدة الأمريكية... فهناك تعرضت بعض قطع الأسطول المغربي المتبقيـة إلى امتحـان عسير من قبل الأسطول الأمريكي القوي...

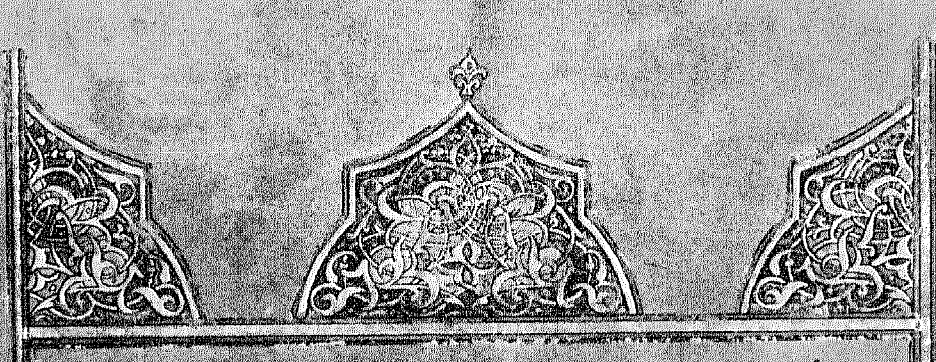
وقـد فكر السلطـان المـولى سليمـان سنـة 1233 = 1817 ـ 1818 في إبطـال «المراكب الجهـاديـة» التي أصبحت، مـع ضُعف المغرب، مجلبـةً للمشـاكل دون مقـابل ! وهكـذا أهـدى قطعـة لكل من داي الجـزائر و بـاشـا طرابلس... وعندما جلس السلطان المولى عبـد الرحمن على العرش سنـة 1234 = 1822 قرر إحياء الأسطول وإعادة النشاط للمراكب الجهـاديـة... ولكنـه سرعـان مـا اصطـدم بـالـدول الكبرى التي كـانت تطـالـب بتعطيـل الأسطول وعدم التشويش على مراكبها المتجولة عبر البحر... وهو الأمر الذي استعصى على رؤساء المغرب قبوله بعد ذلك العمر المديـد في حيـاة الأسطول المغربي...

وقـد صـادف أن أمر السلطـان مـولاي عبـد الرحمن الرئيسين البحريين : بريطـل وبركـاش بمتـابعـة مراكب بعض الـدول التي لم تف بالتزاماتها للمغرب على ما ينص عليه الظهير المؤرخ يوم 19 ذي الحجة 1243 = 2 يـوليـه 1828، حيث تم حجـز بعض السفن الأوربيـة من لـدن أولئك الرؤساء المغـاربـة، الأمر الـذي أثـار حفيظـة الـدول المعنيـة، التي أجمعت كلمتها على قصف السواحل، وضرب الحصار على المغرب[7].

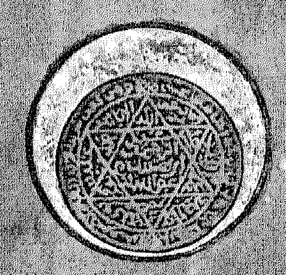
☆ ☆ ☆

لقـد ظل الأسطـول المغربي أسطـورة خـالـدة رددتهـا جنبـات البحر المتوسط والمحيط ردحاً طويلاً من الزمان، حتى كانت هذه الحادثة التي وجدت فيها الدول الغربية فرصةً لإنزال النقمة بـالمغرب في الوقت الـذي دق فيه ناقوس الخطر بعد أن كـان الاتفـاق قـد تم بين الـدول في (ايكس

Hesp 1950, P : 429 (7



الحمد لله   والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه



ظهير للسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام بتاريخ 19 ذي الحجة 1243 = (2 يوليه 1828).

إلى خدامنا المجاهدين الرئيس عبد الرحمن بريطل والرئيس عبد الرحمن بركَاش وكافة خدامنا المجاهدين المسافرين معهم من أهل سلا ورباط الفتح وتطوان...

وبعد أن أمرهم بتقوى الله والمحافظة على الصلوات، وبقرأءة حزب البحر صباح مساء... يطلب إلى الجنود البحرية أن يسمعوا ويطيعوا لرؤسائهم...

«فإذا نشرتم القلاع على بسيط البحر فسيروا على بركة الله... وليكن سفركم بحيث لا تفترقون ولا يغيب أحدكم عن رؤية الآخر... وسيروا في البحر الكبير... من أشقار إلى فارو إلى قبُوسينط إلى جزائر بريكش. وإذا اضطررتم إلى دخول مرسى فادخلوا مرسى جبْوة لمصلحة تعينت، فإذا لقيتم أحداً من أجناس النصارى الذين نحن معهم على الصلح والمهادنة فالْقوهم بهمم نفسيَّة عالية، كريمة أبية على القانون المتعارف وعاملوهم بألطف معاملة وانصرفوا عنهم بمجاملة... ونسأل الله أن يعينكم على الجهاد وأمره، وأن يمدكم بعونه ونصره... وأستودعكم الله وهو خليفته عليكم...

حزب البحر...

كلُّ الذين اهتموا بتاريخ الأُسطول وبرجال البحرية في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً عثروا أثناء مطالعاتهم على أن هناك مصطلحاً مألوفاً لَدَى قادة تلك السفن ويتعلق الأمر بما يُسَمَّى «حزْب البحر» الذي سمعنا به ونحن نترجم للشيخ أبي الحسن الشاذلي على نحو ما سمعنا به ونحن نقرأ للملاَّح العربي الشَّهير ابن ماجد، كتابَه : «الفوائد في أصول البحر والقواعد». هذا إلى ما نقرأه الآن ونحن نستعرض التعليمات الصادرة لقادة الأُسطول المغربي من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام الذي رأينا حفيدَه السلطان مولاي عبد العزيز يقتفي أثر المتقدّمين فيدعو الرؤساء البحريين إلى (حزْب البحر) !!

ولا بُدَّ أن نعرف أنه لا يقصد بالحزب هنا المعنى الحديث الذي ينصرف إلى جماعةٍ من الناس تشاكلت مبادئهم وأعمالهم، ولكن القصد بكلمة «الحزب» إلى جملة مختارة من الأَدعية يتلوها المرء التماساً لِلنجاة من أخطار البحار.

وقد كان أوَّل مَن أنشأ حزباً للبحر لتلامذته هو الإمام الشاذلي بعد أن كان زودهم بما عرف بحزب البر... وأن أبرز ما يلفت نظرنا في الابتهالات التي يتميز بها حزب البحر هو **ما يتصل بالقَرْصنة التي عرفت** بها البحار عبر التاريخ... فإن هناك مقاطعَ من «الحزب البحري» تتوسل إلى الله في أن يحفظ المسافرين من قراصنة البحر ومن المعتدين الأشرار الذين اعتادوا أن يضايقوا الأَبرياء...

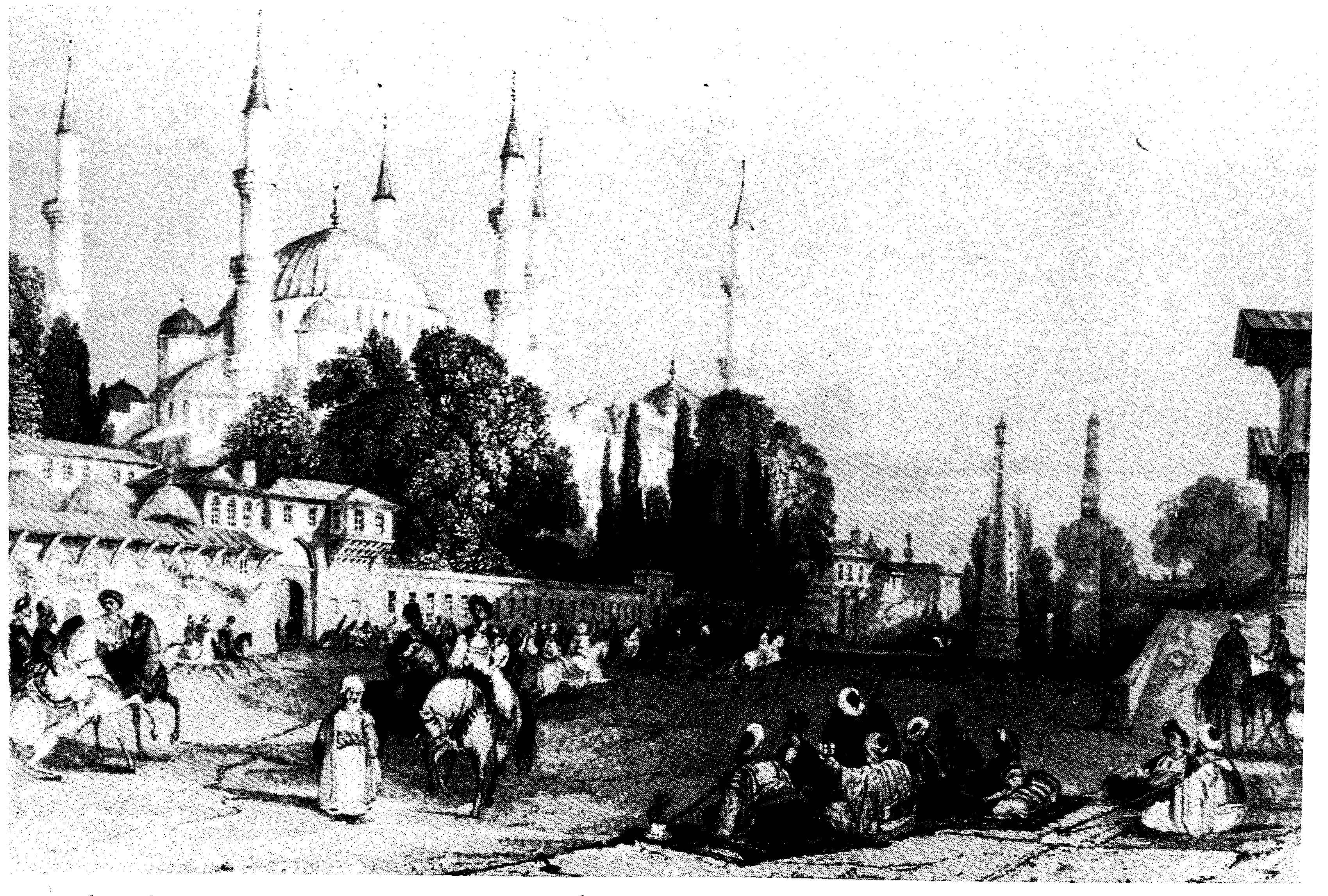
إن مجرد الدعوة لملازمة حزب البحر يدلُّ على أن طريق البحار لم تكن مفروشة بالزهور والورود، وإنها علاوة على ما يحفُّ بها من أهوال الطبيعة والمناخ، فإنها إلى جانب ذلك ـ وهذا هو المقصود ـ تزخر بقوم ظَلُّوا محلَّ شكوى من الجميع وتذمر من الجميع ألا وهم القراصنة الذين رأينا عن موقف الأُسطول الموحدي من عدوانهم...

د. التازي : موقف المغرب من القرصنة في العصر الوسيط
ندوة أبريل 1986 لأكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط

لاشابيل، 30 شتنبر 1818) على تصفية الأساطيل المضايقة لأوربا وقر العزم على توزيع تركة تركيا «الرجل المريض» !.

وهكذا داهم الأسطول النمساوي ميناء العرائش، على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، قبل أن يستيقظ السكان، ويأخذوا بمئات المناجل ليحصدوا رؤوس المغيرين ويرغموهم على الفرار، ولكن العملية جسّرت الاستعمار على التسلل بحراً نحو بعض ثغورنا في الشمال والجنوب !.





ظلت عاصمة العثمانيين : اصطنبول مقصد السُّفراء المغاربة وخاصة في العصر العلوي الأوَّل والثاني، وقد كتبوا عنها كثيراً سواءً في التقارير أو المذكِّرات التي حرروها واحتفظوا بانطباعات طيبة عنها تجلت في صدر ما تجلت فيه، في بناء جامع على شكل جوامعها بقصر المحنشة بمكناس أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله على ما يذكره الزياني في مخطوطته : بغية الناظر والسامع، وهذا مشهد لساحة حلبة مدينة اصطنبول يرجع للقرن التاسع عشر.

البعثات الطلابية إلى الخارج
والاستفادة من الخبرة الأَجنبية

- □ بعض الخبراء الأَجانب في خدمة الدولة.
- □ بعثة السعديين إلى أنجلترا.
- □ الوفود الطلابية المغربية في مصر.
- □ دور المذكِّرات التي يدوِّنها السفراء المغاربة في تنوير الرأي العام بالمغرب.
- □ نموذج من إجازة طلابنا في مصر.
- □ البعثات الطلابية إلى أُروبا لدراسة المواد المدنية والعسكرية، في أنجلترا ـ في إيطاليا ـ في إسبانيا ـ في فرنسا ـ في بلجيكا ـ في جبل طارق.
- □ سفراؤنا يتفقدون الطلبة المغاربة الذين يدرسون بالخارج.
- □ طلبتنا في أَلمانيا ـ في الولايات المتحدة الأَمريكية.
- □ توزيع المنح على الطلبة ـ مذكِّرات بعض الطلبة.
- □ نموذج من إجازة طلابنا في أُوربا.
- □ التآمر لتعويق جهود الطلبة...

البعثات الطلابية إلى الخارج والاستفادة من الخبرة الأَجنبية...

لقد أُشيع عن المغرب كما قلنا، أنه ظل يفضل الانعزال عما يجري من حواليه على الضفة الأُخرى من الحوض المتوسط، أَو المحيط الأَطلسي، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك، وهكذا شاهدناه ـ كما أسلفنا ـ يهتم شديد الاهتمام بما يتناهى إليه من أخبار عن العلم وعن مظاهر التقدم.

ولابدّ أَننا نذكر جيداً أنه لم تخل فترة من فترات التاريخ المغربي دون أن نسجل فيها صدى لوجود خبراء يعملون ضمن مصالح الدولة ابتداءً من عهد المرابطين.. ولم يجد الحكام غضاضة في ذلك حسبما تدل عليه الإفادات التاريخية...

ونحن نذكر أنه في عهد المنصور السعدي راحت بعثة مغربية هامة إلى أنجلترا برئاسة السيد عبد الواحد عنون وقد كان في صدر ما كلّف به المبعوث المغربي التعاقد مع أحد العلماء الأَنجليز للتعليم بالمملكة المغربية كما تكشف التقارير عن ذلك...

وقد ظهرت منذ أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) بوادر العمل الواضح في إطار الاستفادة من الخبرات الأَجنبية والبعثات الطلابية إلى الخارج... وبخاصة إلى بعض القواعد الإسلامية،

وهكذا سجلنا عدداً من «الطلبة»[1] يروحون في عهده إلى مصر بإشراف الكاتب ابن كروم على ما نقرأه في رسالة تحمل تاريخ 18 ذي الحجة 1200 = 12 اكتوبر 1786.

ولا ينبغي أن ننسى، ونحن نتحدث عن هذه الظاهرة، الآثار التي كانت تتركها المذكّرات التي كان يكتبها سفراؤنا أثناء قيامهم بمهامهم الدبلوماسية في الخارج فإنها لم تكن مُجرَّد رحلات مدوّنة بقصد الإمتاع والمؤانسة، ولكنها تقارير تتحدث عن التقدم الذي تحقق في بلاد أُروبا سواء من الناحية العسكرية أَو الإنشائية... ولابدّ أن نستعرض مثلاً ما كان يحكيه بعض سفرائنا عما جدّ من المخترعات وعما شاهدوه من التطورات...

لكن حركة توجيه الطلاب إلى الشرق إنما برزت وتجسدت أَيام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (محمد الرابع) الذي نعته المؤرخون الأُوربيون بأنه «شخصية تقدّمية».

لقد توجهت على عهده عدة إرساليات إلى الخارج وعلى الخصوص مصر، ويمكن تصنيف تلك البعثات إلى ست : الأُولى بين عام 1276 = 1860 وعام 1280 = 1864 على عهد خديوي مصر محمد سعيد باشا حيث ذهب فيها عدد من الطلبة لمع فيهم ابن شهبون وابن كيران...

الثانية والثالثة بعثتان تشير لهما معاً رسالة من الخديوي إسماعيل باشا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن وهي تتحدث عن طلبةٍ يهتمّون بمعرفة الطباعة وآخرين بتعلّم الفنون العسكرية...

هذا إلى بعثةٍ رابعة توجهت لمصر لتتعلم خطط الفنون البحرية والمدفعية، وكانت تتألف من نحو ثلاثين طالباً على ما تفيده رسالة

---

1) شاع في الصياغة المغربية نَعْتُ الكتاب والموظفين والعدول وأمثالهم «بالطلبة»، ولا نعتقد أن القصد هنا لهذا الاستعمال ولكن القصد، على ما سيتأكد في المراحل المقبلة، إلى طلبة العلم..

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

خديمنا الأرضى الطالب محمد بركاش وفقك الله وسلام عليكم ورحمة الله
وبعد وصل كتابك وبطيه كتاب باشدور الالمان لك قبل صحبته بيان أحد الطلبة
الذين يتعلمون ببلادهم كتب له خليفته في تعليمه ويستأذن في تعلم علوم
الهندسة أو علوم المعادن وكذا غيره من الطلبة فيتعلمهم علم البحر والمعادن أحب
إلينا نعم أن اقتضى نظركم تعليم ما ذكر فيزاد له من يتعلمون علم البحر فلا حرج
في ذلك وجازاه خيرا على توجهه واعتنائه بأمر تعليمهم ورده إليك بالشيم
والسلام في 23 شوال الأبرك عام 1300

عرفت المعاهد الألمانية عدداً من الطلاب المغاربة الذين قصدوها بأمر من الحكومة المغربية، وهذه رسالة حول أحد الطلبة... كان يريد أن يتخصص في علوم الهندسة أو علوم المعادن...

وهي بتاريخ 23 شوال 1300 = 27 غشت 1883 وهي واحدة من بين العديد من الرسائل في هذا الشأن.

موجهة إلى قائد سلا الحاج محمد ابن سعيد بتاريخ 5 حجة 1283 = 10 أبريل 1867 من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان.

وقد عرف عهد السلطان مولاي الحسن نشاطاً كبيراً في هذا الميدان منذ البداية، وهكذا نجده يرسل بعثةً تتألف من عدد من الطلاب بلغوا من الكثرة بحيث قسموا، بالنسبة للمنحة، إلى ثلاث رتب، وذلك حسب رسالة بتاريخ 28 رجب عام 1292 = 30 غشت 1895.

وقد نبغ من هؤلاء الطلاب عبد السلام العلمي الذي حصل على إجازة في الطب من المدرسة المصرية بقصر العيني بالقاهرة تحمل تاريخ 1291 = 1874 ـ 1875، يقول فيها عميد المدرسة على الخصوص :

«... إني منذ كلفت بتعليم علم الطب بدمشق الشام المحمية قبل مجيئي إلى المدرسة الخديوية المصرية... لم أجد أحداً اشتغل بغيرةٍ شديدة، وطريقةٍ مستمرة حميدة، مثل هذا الطبيب النحرير الذي هو بالمدح جدير. وإني لأشكر صائب رأي السلطان مولانا الحسن... أن عمت منفعة هذه المعارف العلمية والعملية... ومن حظي الأوفر أني اجتمعت مع هذا الطبيب الماهر فوجدته في العلم والعمل وحيداً وفي المعارف بالنسبة لأقرانه فريدا...»

وكما عرف الطلبة المغاربة طريقهم نحو مصر... فقد توجهوا نحو البلاد الأوربية كذلك، وبهذا الصدد نجد أن السلطان مولاي عبد الرحمان ـ حفيد الملك محمد الثالث ـ يبعث بعدد من الطلاب إلى أوربا لدراسة ـ علوم الهندسة على نحو ما قام به ولده السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان أو محمد الرابع...

ولكن البعثات المغربية إلى أوربا إنما ازدهرت على عهد الملك الحسن الأول، وقد كان الاتجاه الغالب على تعليم هذه البعثات هو

الناحية العسكرية ولو أن فيهم عدداً درس المواد المدنية حيث شاهدنا طائفةً منهم يشتغلون بعد عودتهم، في بعض مرافق الدولة...

وبالرغم من أن عدد أفراد هذه البعثات وتفاصيل دراساتهم غير معروف، فإن اللوائح التي تحتفظ بها بعض السجلات المغربية تعطي فكرة عن الأهمية التي كان يوليها المخزن لهذه الإرساليات...

وهكذا سجل تاريخ 1291 = 1874 أمراً ملكياً بتعيين عددٍ من الطلاب راحوا إلى أوربا، وقد توزعوا فعلاً على أنجلترا... وإيطاليا... وإسبانيا... وفرنسا... وبلجيكا...

كما سجل تاريخ 25 رجب 1292 = 28 غشت 1875 أمراً ملكياً آخر إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري يتعلق بإعداد خمسة عشر طالباً مغربياً على رأسهم علي بن بَلّة المراكشي يتوجهون إلى أوربا لتعلّم الهندسة والفنون الحربية...

وسجل تاريخ 23 صفر 1293 = 20 مارس 1876 تكليفَ السلطان لولاته بالمدن والأقاليم بأن ينتخبوا من الطلبة نجباءهم ويعلموهم مبادئ العلوم الرياضية والطبيعية تمهيداً لإرسالهم للخارج على نحو ما نراه في رسالته إلى النائب بركاش حول أمر العاهل للسيد عبد السلام السويسي قائد مدينة الرباط بتاريخ 20 محرم 1293 =[2] 16 يبراير 1876 بأن ينتخب سبعةً من صغار أبناء الحاضرة النجباء، الرسالة 20 محرم 1293 ورسالة إلى قائد الصويرة الحاج عمارة الذي استمرت معه المكاتبة أيضا حول الموضوع بتاريخ 9 جمادى الثانية 1293 = 2 يوليه 1876...

---

2) كانت الرسالة إرضاءً لبركاش الذي كان قد قام باختبار عدد من الطلبة المرشّحين للتعليم بالخارج فوجد فيهم «من لا يقبل التعليم أصلاً ووجد فيهم من هو ثقيل الفهم مع أجنبيته عن التمدن» !

هذا إلى ما سجله تاريخ 3 رجب 1293 = 25 يوليه 1876 حول بعثة تتألف من خمسة وعشرين طالباً يرسلون من فاس إلى جبل طارق للتدريب على الفنون الحربية الحديثة كان منهم طالبٌ تاقت نفسه لتعليم الطب.

وكدليلٍ على الآمال المعلقة على نجاح الطلبة من طرف المخزن... سمعنا السفير المغربي السيد محمد الزبدي الذي توجه سنة 1293 = 1876 في مهمة إلفات النظر لمشاكل الحمايات القنصلية بالمغرب، سمعناه في خطابه أمام جلالة ملك وملكة بلجيكا يثني على مساعدة السفير البلجيكي (دالْوِين) في شأن الطلبة المتعلّمين الأمر الذي يعطي الدليل على «قوة المحبة ورسوخها وتأكيدها» على حد تعبير السفير...

وقد قرأنا رسالة بتاريخ 7 رمضان 1297 = 13 غشت 1880 موجهةً من السلطان إلى نائبه حول تسديد نفقات دراسة الطلاب المغاربة الذين توجّهوا لفرنسا من أجل الدّراسة...

وقرأنا رسالة بتاريخ 12 جمادى الثانية 1304 = 8 مارس 1887 من الطالب المغربي المعروف محمد ابن الكعّاب الشركي إلى الوزير بّاحماد تتحدّث عن مغادرة المغرب صحبةَ عددٍ من إخوانه بتاريخ 18 حجة 1227 = 21 نونبر 1880 إلى باريز بعد أن أمضوا بطنجة نحواً من ست سنوات في تعلم اللغة وقد كان يشتكي باسم زملائه من تأخر المنحة عنه... وعن الطلبة السبعة الذين يدرسون في بلجيكا... لقد كان مما سجله التاريخ من مشاكل الطلاب أن العاهل المغربي الحسن الأول بعث برسالة للطلبة تعثرت طويلاً وهي في طريقها فقد خرجت يوم 15 أكتوبر 1884 ووصلت يوم 11 يبراير من السنة التي بعدها الأمر الذي أثار غضب العاهل...



صورة الطالب محمد بن الكعاب الشركّي الفاسي

من وثائق حفيدته...

وقد قرأنا رسالة من النائب السلطاني محمد بركاش إلى السلطان مولاي الحسن تتعلق بثلاثة شبان أتموا دراستهم بلندن ويتعلق الأمر بطلبة كانوا قد راحوا منذ سنة 1293 = 1876.

ثم قرأنا خطاباً من السلطان نفسه إلى نائبه بطنجة يحمل تاريخ 10 رجب 1299 = 28 مايه 1882 يخبره بما اقتضاه نظره الشريف من إرسال عدد آخر من الطلاب الذين يوزعون على «النجليز والفرنصيص والصبنيول والألمان والطليان»...

ولم يكن غريبا علينا أن نقرأ «تنويهاً» بنبوغ أحد الطلاب المغاربة وهو صادر عن الأكاديمية الألمانية حسبما تكشف عنه رسالة صادرة عن السلطان مولاي الحسن بتاريخ 23 شوال 1300 = 27 غشت 1883 إلى بركاش نائبه في طنجة... «وصل كتابك وبطيّه كتاب باشدور الألمان لك بأن أحد الطلبة الذين يتعلمون ببلادهم ظهرت نجابته في تعلمه ويستأذن في تعلّم علوم المعادن»...

ونتيجةً لهذا التفوق، فقد أمر السلطان في هذه السنة (1301 = 1883 ـ 84) بتوجيه بضعة وعشرين طالبا للتعلم في ألمانيا وفيهم من التحق بمصانع (كروب) للتمرس في استعمال المدافع... كما أرسل الملك في هذه السنة أيضا عدداً آخر من الطلبة على يد النائب محمد بركاش وأمين الأُمناء محمد مُخَا التازي حيث رافق بعضهم الحاج محمد بركَاش بن النائب السلطاني الذي حمل معه رسالة تحمل تاريخ 24 محرم 1302 = 13 نونبر 1884.

كما بعث في 11 رمضان من سنة 1302 = 24 يونيه 1885 طائفةً أُخرى إلى بلاد فرنسا للتخصص في شتى الميادين : البريد، تشييد القناطر، المواد الحربية...

وهذه الطائفة هي التي راحت إلى المدرسة العسكرية في مونبّوليي (Montpellier) من عام 1303 = 1885 إلى سنة 1305 = 1888، وكانت تحتوي علىإثنى عشر طالباً توجهوا صحبة ميكيل دوكاسترو قنصل البرتغال السابق الذي أسلم ودخل في خدمة السلطان...

وقد ذكرت المصادر التي تحدثت عن هذه البعثة أن الطلبة المغاربة كانوا يرتدون في البداية لباسهم الوطني، لكنهم لم يلبثوا أن (تكبّطوا) على نحو ما يقتضيه الزي الغربي بيد أنهم احتفظوا بطربوشهم..!

وحسبما تفيده رسالة بتاريخ 20 ذي القعدة 1302 = أول شتنبر 1885 فإن عدداً آخر من الطلبة المغاربة الذين يدرسون الفنون العسكرية قد أتموا دراستهم بألمانيا وهم بصدد العودة إلى بلادهم.

ومن الطريف أن نجد أن المغرب لا يكتفي باستمداد الخبرة من البلاد الأوربية، ولكنه يتعداها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا وجدنا السلطان مولاي الحسن يبعث برسالة إلى نائبه في طنجة السيد محمد بن العربي الطريس مؤرخة يوم 23 حجة 1302 = 3 اكتوبر 1885 تتحدث عن زمام الصائر على المتعلمين الذين كانوا توجهوا لبلاد (المركان) على يد القائد (ماكلين) يتعلمون حلّ المكاحل (يعني تركيبها...) وتزْديجها...

وتحتفظ أرشيفات تطوان بعددٍ كبير من الرسائل التي تتعلق بالبعثات الطلابية، وهكذا نجد رسائل تتناول منح طلبة بلجيكا وترجع لتاريخ جمادى الثانية 1304 = يبراير 1887، ونجد رسائل تتعلق بالتحاق طلبة آخرين بالبعثة.

كما يحتفظ أرشيف تطوان كذلك برسالة من الأمين محمد مُخا التازي إلى الطريس حول البعثة التعليمية التي تدرس اللسان العجمي، وكانت بتاريخ 19 جمادى الأولى 1304 = 13 يبراير 1887...

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه



خديمنا الارضى الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله
وبعد فقد وصل كتابك وبطيه زمام الصائر على المتعلمين الذين كانا توجها لبلاد
المركان على يد مكلين يتعلمان حل المكاحل ومسحها وتزديجها ووردا على حضرتنا
الشريفة برباط الفتح وقد تضمن خمسمائة واربعة وخمسة ريالا وسبعة وثمانين
سنطيما وطلبت امرنا الشريف للامناء برفع العدة المذكورة لكاتب باشدور
النجليز المتولي قبضها فقد امرناهم بدفعها له على يدك وكتابنا لهم بذلك
يصلك طيه والسلام في 23 من ذي الحجة عام 1302

صورة رسالة الطلبة إلى أمريكا 23 ذي الحجة 1302 = 3 اكتوبر 1885

ظهير السلطان مولاي الحسن (الأول)

بتاريخ 23 ذي الحجة 1302 = 3 اكتوبر 1885

إلى نائبه بطنجة محمد بن العربي الطريس

يخبره بوصول كتابه «وبطيّه زمام الصائر على المتعلمين اللذين كانا توجها لبلاد المركان على يد (مكلين) يتعلمان حلّ المكاحل ومسحها وتزديجها، ووردا على حضرتنا الشريفة رباط الفتح : وقد تضمن (الصائر) خمسمائة وأربعة وخمسة ريالاً وسبعة وثمانين سنطيماً، وطلبت أمرنا الشريف للأُمناء برفع العدة المذكورة لكاتب باشدور النجليز المتولى قبضها، فقد أمرناهم بدفعها له على يدك وكتابنا لهم بذلك يصلك طيّه».

وقد عثرنا على مراسلاتٍ ترجع لتاريخ 11 شعبان 1304 = 5 مايه 1887 يطلب فيها السفير البلجيكي الإذنَ للطلبة المغاربة بالعودة إلى بلادهم... وجواب المغرب بأنه لا يمكن رجوعهم إلا بعد حصولهم على (السّرتيفيكة) من معلميهم... وقد كلف (ابن الكعاب) بتحقيق واجبات نفقتهم...

وتحتفظ خزانة الرباط كذلك بلائحةٍ تتضمن الأسماء الكاملة لنحوٍ من خمسة وخمسين طالبا ممن وردوا من بلجيكا،[3] وهي بتاريخ متم ربيع النبوي 1305 = 16 دجنبر 1887، وقد أرسلوا أيضا على يد النائب بركّاش والأمين التازي، وقد كانوا ينتمون لمختلف المدن المغربية، وقد كان فيهم من تخصص في «تركيب أو استخدام قطار السكة الحديدية» (بابور البر)، الأمر الذي يدل على ما كان يُزمع عليه السلطان مولاي الحسن من إنشاء عددٍ من المشاريع التي توقفت بوفاته !، وقد عرفنا من هؤلاء الطلاب الذين درسوا في المملكة البلجيكية عدداً من أبناء فاس ومكناس والرباط والبيضاء.

وقد اتفق السلطان مولاي الحسن مع حكومة إيطاليا منذ أواخر القرن الماضي على إرسال بعثةٍ علمية تتألف من عددٍ كبير من الطلبة ينتسبون لمختلف القواعد المغربية للدراسة في المدرسة الملكية الدولية بمدينة (طورينو) بيد أن تنفيذ الفكرة تأخّر إلى فاتح سنة 1306 = شتنبر 1888 حيث رأينا وفداً هاماً من الطلاب يقصد المدرسة المذكورة، ومن حسن الحظ أن نجد مذكرةً حية لأحد طلبتها السيد الحسين الزعري

---

3) يتحدث هذا التقييد عن زمن العودة، وهناك تقييد آخر يتحدث عن وصولهم بمدينة صيرن (بلجيكا) في 17 يونيه 1884 = 24 شعبان 1301 كما يتحدث عن وصول فوج آخر إلى لييج (Liège) بتاريخ 24 مارس 1885 = 8 جمادى الثانية 1302... ومع ذلك فإنّ اللائحة تتحدث عن عودة فريق من (لُييج) يوم 10 نونبر 1885 = 2 صفر 1303 وعودة فريق من أنفيرس (Anvers) يوم 13 نونبر 1885 = 5 صفر 1303.

وهي تتحدث عن ظروف الدراسة ونوعها ونهايتها وتكشف عما أجملته المراسلات المغربية حول موضوع هذه البعثة مما نجد أثره في مكتبة تطوان بتاريخ 16 ذي القعدة 1305 = 25 يوليه 1888 حيث يتحدث عن توزيع الطلبة إلى ثلاث مراتب، وبتاريخ 30 جمادى الأُولى 1307 = 22 يناير 1890 ويتحدّث عن «الواجبات» التي ترتبت على مقام الطلبة في مدرسة (تورين) والتي كانت تبلغ في فترة ثلاثة أشهر إلى 9375 فرنك وهي ما هي على ذلك العهد..!

وكما رأينا السفير الزبدي يعرب عن اهتمام العاهل بالطلبة في بلجيكا، شاهدنا السفير عبد السلام ابن رشيد يقوم بنفس المهمة لدى ملك إيطاليا عام 1309 = 1892 بالنسبة لطلبتنا هناك...

وفي نفس السنة رأينا طالباً آخر يتوجه إلى ألمانيا، وكان الأمر يتعلق بالحاج محمد زنيبر حسبما تفيده رسالة موجهة إلى قائد سلا الحاج محمد بن سعيد السلاوي بتاريخ 15 شوال 1306 20 غشت 1888.

ويتجلى من خلال المراسلات أن تردد الطلاب المغاربة على المعاهد الأُوربية لم ينقطع، وهكذا وجدنا فوجاً آخر يتألف من سبعة طلاب يتوجه إلى إيطاليا حسبما تفيده وثيقة بتاريخ 20 جمادى الأُولى 1309 = 22 دجنبر 1891... كما وجدنا فوجاً ثانياً تلتزم له الحكومة المغربية بأداء واجبات الكسوة السنوية علاوة على المساعدات الدورية وذلك حسب رسالة موجهة من العاهل إلى النائب الطريس بتاريخ 25 ذي الحجة 1310 = 10 يوليه 1893 حول الطلبة الذين يتعلمون الطبّ على طبيب إسباني. وقد كان العاهل المغربي طلب من إسبانيا تعليم طلاب مغاربة الطب والهندسة إضافة إلى البعثات التي كانت تتجه نحو الخارج...

واستمرت سياسة إرسال البعثات إلى الخارج حتى أيام السلطان مولاي عبد العزيز حيث نشهد سنة 1315 = 1897 عودة لفيف من الطلبة المغاربة في نهاية السنة الدراسية للعام المذكور، يحملون شهادات مسجلة بتاريخ 2 يوليه 1897 = (12 صفر 1315) تقول في جملة ما تقول : «إنه (أي الطالب الذي تسميه الشهادة) يعرف علم الجبر والمقابلة وعلم المساحة ويعرف التصرف في علم اللّوغاريتمات ويحسن اللّغة الإيطالية ويعرف مبادئ اللغتين الفرنسية والإنجليزية، ويعرف كيفية السفر في البحر وعلم الجغرافية وعلم التنجيم وعلم حرب السفن وصنعها ومبادئ علم الكمييا وعلم الأجواء...»

لقد كانت الحكومة المغربية تعلّق أملاً كبيراً على تلك البعثات الطلابية رغبة منها في إعطاء نفس جديد للإدارة والمصنع والمدرسة... وهو ما كانت تعبر عنه المراسلات المتعددة وما تدلّ عليه السفارات التي كانت تتدخل أحيانا لصالح طلبتنا بل والتي كانت تروح خصّيصاً لمرافقتهم تعبيراً عن تعلق المخزن بمصير أبنائه وعن الآمال التي يعلقها عليهم... وقد ورد في رسالة من العاهل المغربي إلى الامبراطور غليوم ملك ألمانيا التأكيد لما اقتضته المصلحة من «توجيه أشخاص نجباء من هذه الإيالة لبلادكم الرفيعة المصونة بقصد تنقيح ذكائهم بآداب السياسات العالمية من العلوم العسكرية والطبجية وما في معناهما ممّا فقتم فيها وانفردتم بتحرير علومها وتدقيقها ومعرفتها على حقيقتها...»

وبالرغم من تواطؤ المصالح الاستعمارية على تعويق نتائج هذه الجهود وتثبيط همم الذين تخرجوا من هؤلاء الطلبة فقد احتفظت لنا المكتبات الخاصة بجملةٍ وافرة من نتاج الطلائع الأولى، ونشير بالخصوص إلى آثار الشيخ العلمي وإلى آثار أحمد شهبون وزملائه الآخرين من الذين برعوا في رسم الخرائط على الطريقة الحديثة من

أمثال الحسين الوديّي وصالح التادلاوي ومحمد المسفيوي. كما نشير أيضا إلى أُولئك الطلبة الذين أصبحوا أساتذة في جامعة برلين من أمثال الجيلالي بن البشير سنة 1896. والجيلالي الشرقاوي عام 1899، والأُستاذ الميلودي في مطلع القرن العشرين...

إن كل تلك الوفادات كانت أيضا دليلا، وبشهادات سائر الدول - على أن المغرب بذل وإلى آخر رمق، كلّ جهده في الحفاظ على كيانه والدفاع عن حوزته...

☆ ☆ ☆

ومن خلال تتبع علاقاتنا بالأُمم الأُخرى يمكن أن نضبط العادات وبعض الملامح التي تسربت إلينا من هؤلاء، أو سارت منا إلى أُولئك، وهكذا نعرف كيف أثرنا وكيف فعلنا وانفعلنا...

☆ ☆ ☆

ومن جهة أُخرى فقد تجلى من خلال هذا التاريخ مدى كون المغرب على حق في سوء الظن بالتسرب الأُوربي.

فقد انكشفت له على مر الأَيام المؤامرات والمناورات التي كانت تحاك له ليس فقط عن طريق الممثليات السياسية التي كانت تقيم في المغرب، ولكن كذلك - وهذا أخطر - عن طريق البعثات العلمية والدينية والطبية، وهكذا رأينا أن الأَطباء الذين كانوا - بحكم مهنتهم - يدخلون البلاط الملكي لعلاج المريض، كانوا يقومون بدور التجسس والاستطلاع... وقد قرأنا تقرير الدكتور آرنول دوليسل (A. De Lisle) حول مهمة أنطوني شيرلي لدى البلاط السعدي وكيف أنه استطاع أن يعتمد على أميرةٍ فيما رفعه لبلاده من تقارير... وعرفنا عن آخرين من بعده بمن فيهم الإنجليز والفرنسيون والإسبان... إلى مطلع القرن

العشرين عندما سمعنا عن الدور الهام الذي كان يلعبه الدكتور ليناريس...

لقد كان يتأكد بصدق أن المغرب يستهدف لغزو شامل كامل لثقافته وعاداته وتقاليده حيث وجدنا أحد علمائه وهو أبو العباس أحمد الناصري صاحب كتاب الاستقصا يكتب في فتواه عن علاقات المغرب الدولية سنة 1883 مؤكداً على الأضرار الناجمة عن الانفتاح : «ولعمري أن في اختلاطهم بنا... وممازجتهم لنا لمضرةً وأي مضرة...» !

وقد كتب مُباركاً رفضَ السلطان مولاي الحسن (الأول) إحداث القطار والتلغراف بالمغرب من قبل الأوربيين يقول : «وفي هذه المدة (يعني سنة 1878) وفد على السلطان أيده الله عدة باشادورات... مثل باشدور الفرنسيس والأصبنيول والبرتغال وغيرهم... وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر (القطار) والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هو بسائر بلاد المعمور، وزعم أنّ في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى وهو ـ والله عَيْنُ الضرر : وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد..!!



وسائل المواصلات في اهتمامات الأجانب

- □ البريد في المغرب ـ البريد السريع والبريد العادي ـ الحمام الزاجل ـ ساعي البريد أو الرقّاص كما يعرف عند المغاربة.
- □ الظهير الذي ينظم البريد منذ عام 543 = 1148.
- □ الوسائل التي يستعين بها الرقاص.
- □ «النّزالات» أو مراحل البريد.
- □ أمثلة قياسية.
- □ المراسلات بواسطة السلك القنصلي.
- □ حرص الحكومة على سريّة المراسلات.
- □ ظهور أول خط سلكي.
- □ المبادرة الحاسمة لإنشاء أول إدارة عصرية للبريد عام 1308 ـ 1891.
- □ الأختام البريدية.
- □ ظهور مراكز بريدية أخرى محلية وأجنبية ـ فرنسية ـ إنجليزية ـ ألمانية ـ إسبانية.
- □ استيلاء الحكومة على هذه المراكز.
- □ أول مجموعة لطوابع البريد.

البريد المغربي والرقّاص
في اهتمامات الأَجانب

ويتجلى من خلال هذا التاريخ، مظهر آخر من مظاهر الحضارة في تنظيم البريد، بل وفي سرعته والتمييز فيه بين البريد المستعجل والبريد العادي، الأَمر الذي لفت أنظار الذين كتبوا عن المغرب من الأَجانب، فراحوا يتحدثون عن سرعة تناقل الأَخبار في هذه البلاد بكيفية مدهشة، ولأَمر مّا كان سؤال المغاربة الأَول، عندما يلاقونك : «أَش أخبارك»، إنهم لا يسألون عن الزيّ كما في مصر، ولا عن اللّون كما في بغداد ! إن ذلك يدلّ عن اهتمامهم بالأَخبار دون شك...

ومن غير أن نتحدث عن أَيام الحمام الزاجل، عندما كان الوزير البازوري المغربي، وزير المستنصر بالله الفاطمي يوجه الحمام من إفريقية إلى مصر، وعندما كان الاتصال في الأَندلس عن هذا الطريق على نحو ما كان بين مطارات الحمام الرسائلي وأبراجها بالديار المصرية والشامية... ولكننا نتحدث عن البريد الأَرضي في أعقاب الأَدارسة وأَيام المرابطين والموحدين وبني مرين، فمن بعدهم من الدول المتعاقبة على الحكم بالمغرب...



الرقّاص في طريقه لتبليغ الرسالة...

ومن المهمّ والمطرف كذلك أن نذكر بأن اللفظ المغربي المستعمل لصاحب البريد هو الرقّاص (ج رقّاقيص) وهي كلمة عربية فصيحة، تأتي من الرقَص (بفتح القاف) بمعنى الخَبَب،قال حسان :

بزجاجةٍ رَقصت بما في قعرها   رقَص القَلُوصِ براكبٍ مستعجل !!

ومن الطريف أن نعرف أنه يوجد بالمملكة المغربية «ظهير مشهور» منذ سنة 543 = 1148. عهد الموحدين يضبط واجبات الرقّاص ضبطاً دقيقاً...[1]

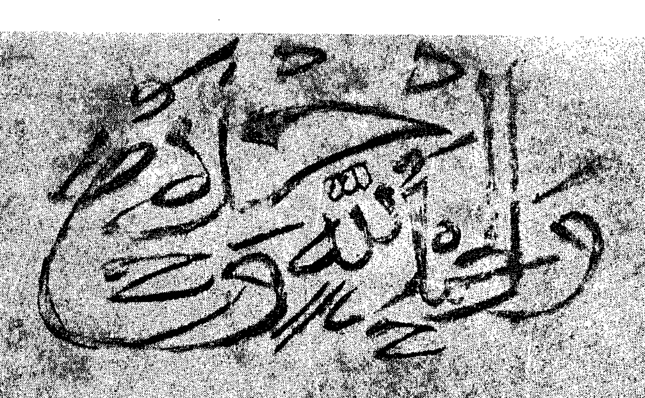
وبعد هذا عرفت تقاليد المغرب الرقّاص المعتاد والرقّاص الذي يكون على شرط التعجيل، وصاحبه يتوفر عادة على العدد من الخيل وكذلك الجِمال التي تنام طويلاً وتسْرح طويلاً، وهي تتحرك بمنتهى السرعة من (نزالة) إلى أُخرى لتجد في (النزالة) القابلة مطية مماثلة تنقل البريد إلى محطة لاحقة... ومما يذكر أن رقّاص الشرط قطع المسافة في بعض الظروف بين طنجة وفاس في اثنتي عشرة ساعة.!!

وقد تحدث صاحب «نبَذ تاريخية» في العصور الوسطى عن أن العبور من ميناء سبتة إلى الجزيرة كان يتم في ثلاث ساعات على ما قام به فعلاً عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر عام 389 = 999 !

وقد سمعنا قبل هذا عن عبد الله بن الزبير الذي قطع المسافة بين سبيطلة وبين المدينة المنوّرة في ظرف ثمانية عشر يوماً حتى يزفّ لِعثمان ابن عفان خبر الفتح من إفريقية... وسمعنا عن الرواد الذين كانوا يجتازون المرحلة بين طنجة والقيروان خلال ثمانية أيام... وقد

---

1) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي. الطبعة الأولى بيروت صفحة 307. ابن القطان : نظم الجمان، تحقيق د. محمود علي مكي، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي. الرباط صفحة 150 ـ 167.



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره، وأمده بمعونته، إلى جميع الطلبة الذين بـ[illegible] العدوة والأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان [illegible]

[illegible]

الحمد لله وحده

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

من أمير المؤمنين أيّده الله تعالى بنصره، وأمدّه بمعونته، إلى جميع الطلبة الذين ببلاد العدوة والأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد.

فالحمد لله، وهو اللطيف الكريم، الرؤوف الرحيم الذي بعدله قامت السماوات والأرض وبه تقوم. وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم. ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي بعثه رحمة للمومنين، ينيلهم به الروح والنعيم. ويريهم رحيقها المختوم، وكتابنا هذا، كتب الله تعالى لكم رأفة ورحمة. وسوغكم من اليمن والأمر أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه، من الحضرة العلية بتينملل حرسها الله تعالى. في **سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة**، وقد وصلناها والحمد لله وجناح الرحمة مخفوض، وطرف المكاره مغضوض. وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض. وشأن الظلم بإذن الله تعالى مكفوف مقبوض. والحق أبلج لا كناية ولا تعريض...

«وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد، ويستصحب الاضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون، فإنّه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها؛ وإن من جملة ما حكي عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعا، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعا، يكلفونهم مؤوناتهم تكليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى إنهم لا يرضون في ضيافاتهم إلا بأسمن الجزر. وناهيكم بهذا الإجتراء العظيم الضرر؛ فسارعوا - وفقكم الله تعالى - إلى حسم هذه العلة من أصلها، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة

وفصلها، وتخيروا لرسائلكم إرسالا، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا، وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيء والإنصراف، ويقطع شأنهم عن التلكيف والإلحاف، وارسموا لهم أياما معروفة العدد، معلومة الأمد، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة. والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الجور».

ولما كان هذا الأمر عندنا... وفقكم الله تعالى أهمّ أمرٍ وأوجَبَهُ رأينا أن نجعل في كتابنا هذا **علامة بخط يدينا**، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة، وصلوا ابتداء شأنها بالمواصلة له والمتابعة، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع مَن في تلك البلاد من الطلبة والعمال، وكافة المقدّمين للأعمال... وأقرأوه على الكافة أعالي المنابر، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحواضر... فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النّظر... وحذروهم من التعرض لمخالفته... ونحن بمرصد **التطلع والتسمّع** لما يكون منكم ومنهم، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم... فانظروا هذا ـ وفقكم الله تعالى ـ نظر أُولي الألباب، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

ابن القطان : نظم الجمان

تحقيق د. محمد علي مكي

طبع بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي ص 150 ـ 162 ـ 164

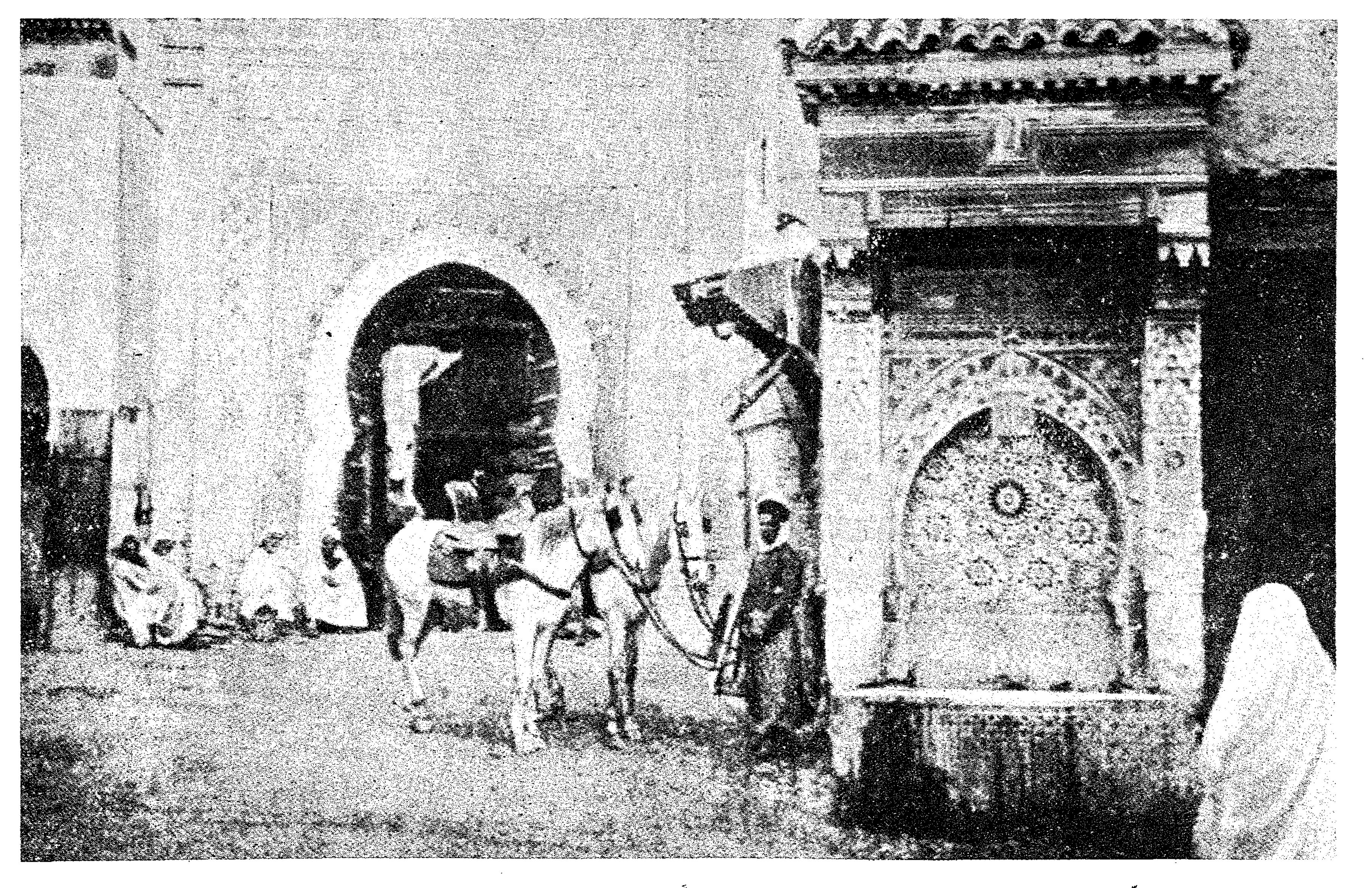
علمنا من ابن صاحب الصلاة صاحب تاريخ الموحدين (أن الرقّاص ركب بالجواب مركباً من مدينة بجاية سابحاً في البحر في طريق غير يبس، ويسر له أن ساعدته الريح بنفس، وسار أسرع من كوكب إذا خنس، وخرج في (ألمرية) مرساه، وحمد سبحه في غدوه وممساه، ووصل اشبيلية وغرناطة في أقرب تاريخ دون تعب في مسراه).

ويكفي لنتصور سرعة البريد أيام العهد المريني أن نذكر أن هجوم الإسبان على سلا الذي تم يوم ثاني شوال وصل إلى علم العاهل وهو بمدينة تازة زوال يوم رابع شوال فقصد سلا بعد صلاة عصر هذا اليوم وصلى العصر بظاهر سلا في اليوم الموالي..!

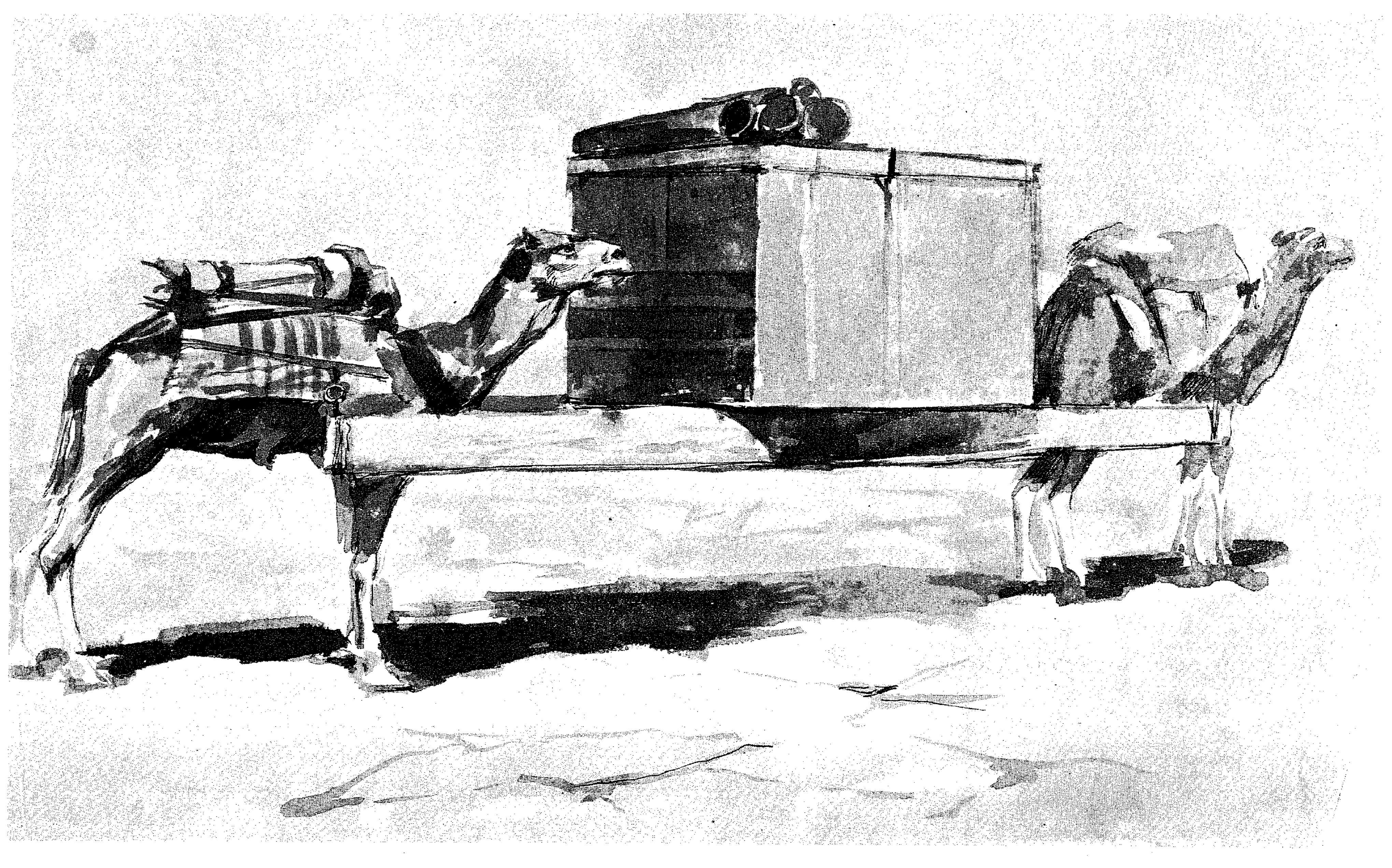
وقد ظلت المواصلات بين أطراف المملكة بعضها بعضاً معتمدة على الرقاقيص أو الرقاصين الذين كانوا مزوّدين بحقائب جلدية، كما ظل البريد المخزني مسمُوحاً له بنقل رسائل الأفراد من مدينة إلى مدينة وبواسطة الحمّار[2] أحياناً لقاء أجر معلوم إلى أن غلب المغرب على أمره في حرب تطوان سنة 1860، فهنا أنشأت إسبانيا أول مكتب بريدي كان في البداية خاصّاً بالجيش الإسباني الموجود بالمغرب، ثم أسند بعد إبرام الصلح إلى المفوضية الإسبانية بتطوان...

ولم تلبث فرنسا التي كانت اتخذت لها بطنجة مكتباً بريدياً ثانوياً يربطها بالجزائر ـ أن فتحت مكاتب أُخرى في عدد من المدن على نحو ما فعلته إسبانيا..!

2) الحمّار: استعمال مغربي قديم يطلق على رئيس القافلة التي تقوم بنقل المسافرين والسلع بين المدن على ظهور الخيول والبغال والحمير، وكان للحمّارين نقيبٌ عليهم يعرف بقائد الحمّارة.



لقد اهتمّ المعلّقون المعاصرون بهندسة باب فندق النجارين وبجمال السقّاية التي توجد على مقربةٍ من الفندق، ولكنهم لم يلتفتوا للركن الذي يوجد بين السقاية والفندق حيث كان مركز البريد في مغرب الأمس: دكاكين الرقّاصة... حيث يقف الجوادان المسرجان... لقد اختفت هذه الدكاكين اليوم وعوضتْها المكاتب العصرية للبريد...



إحدى وسائل النقل لحمل الأغراض الهامة للدولة وقد كانت تستعمل عند تنقلات الجيش والركب الملكي وتحركات البعثات الدبلوماسية.

ولم يكن غريباً أن نجد بريطانيا بدورها ـ وهي مقيمةٌ بجبل طارق ـ تقوم بإنشاء مكاتب لها كذلك هنا وهناك...

وقد وردت إشارات بتاريخ 10 محرم 1279 = 8 يوليه 1862 حول حرص المخزن على أن يكون بريده مضموناً حتى لا تتسرب أسرار المراسلات !

وقد وجدنا السلطان مولاي الحسن (الأول) يصدر أمره لنائبه بطنجة (27 رجب 1296 = 27 يوليه 1879) لاتخاذ الخطوات اللاّزمة لجعل حد لتسابق الأجانب إلى إنشاء المكاتب البريدية...

وقد انضافت إلى تلك المكاتب البريدية مكاتب أُخرى أنشأتها مؤسسات خصوصية ألمانية وإيطالية، وحتى مستوطنون آخرون أجانب ! بل ورد حديث بتاريخ 9 شوال 1297 = 2 شتنبر 1880 عن وصول الأخبار من الخارج بالسلك (أي بالتلغراف) إلى شارل أكَاز.!

ولمّا بلغ إلى السلطان مولاي الحسن أن بعض الأجانب يعتزم فتح مكتب بريدي لربط الصلة بين الجديدة ومراكش اتخذ مبادرته الحاسمة (1891 = 1308) بفتح مكاتب بريدية عصرية في ثلاث عشرة مدينة وذلك بعد نجاح تجربةٍ أُولى قام بها أُمناء المرسى والمستفادات بين ثغر الجديدة ومدينة مراكش...

وهكذا بعث العاهل برسائل لأُمناء المراسي وأُمناء المستفاد في كل المدن بتاريخ 2 جمادى الأُولى 1310 = 22 نونبر 1892 باستثناء فاس فقد أرسلت الرسالة للمكلف بتسيير البريد بها سابقاً الحاج عثمان بن جلون... وقد حدّدت أسعار البريد في هذه المكاتب.

وتجدر الإشارة إلى أن إصدارات البريد المغربي لم يكن معترفاً بها من طرف الاتحاد العالمي للبريد... وهكذا كنا نلاحظ أن المغرب يسلم البريد الموجه لخارج المغرب للمكاتب الأجنبية لتُضيف إليه طوابعها..!!

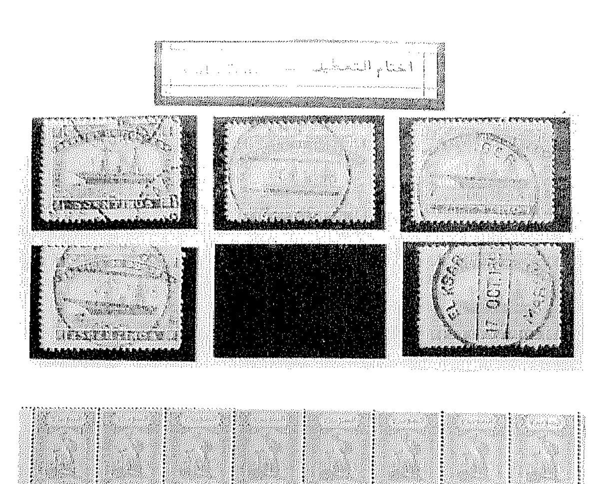
ومن هنا تبعت خطوةَ تنظيم المكاتب البريدية في الداخل خطوة ثانية وهي تنظيم انطلاق البريد إلى خارج المغرب حيث نجد السلطان المولى الحسن يأمر نائبه بمفاتحة نواب الدّول الأجنبية التي لها مكاتب بريدية في أمر تنسيق العمل معها. وكان هذا بتاريخ 10 رمضان 1310 = وتاريخ 16 شوّال 1310.

وقد استعملت الإدارة المغربية أختاماً إلى عام 1911 حيث نظم البريد المغربي تنظيماً شاملاً، وصدرت في أوائل سنة 1911 أول مجموعة لطوابع البريد طُبعت في باريس، وهي مجموعة مكونة من ستة طوابع استعملت للمراسلات الخارجية إذ أصبح معترفاً بها من الاتحاد البريدي العالمي...

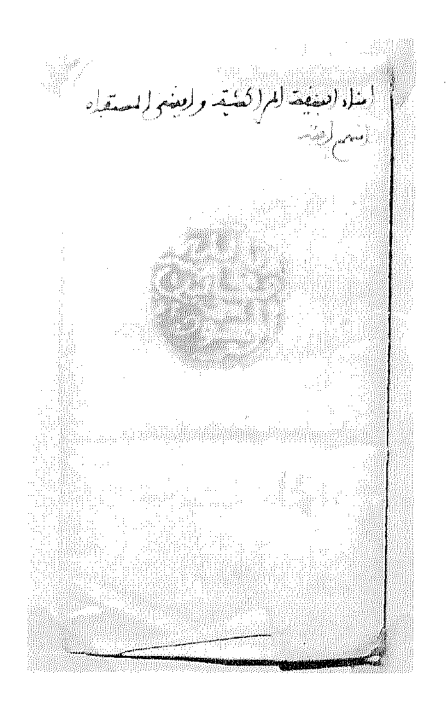
وقد كان الرسم الذي صدرت به هذه الطوابع، يمثل واجهة زاوية (عيساوة) بطنجة، وقد استمر العمل بها في كل أنحاء المغرب إلى نصب الحماية الفرنسية 1912.

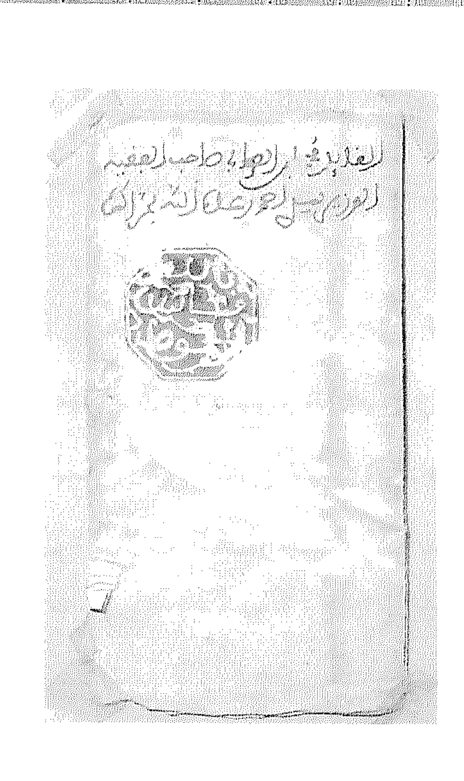
وهكذا نرى أن المغرب كما لاحظ ذلك الأجانب الذين كتبوا عنه، أصبح يتمتع بشبكة بريدية ما انفكت تتطور حسب الظروف وتتحدى مختلف الصروف بالرغم مما كانت تتعرض له أحياناً من متاعب.

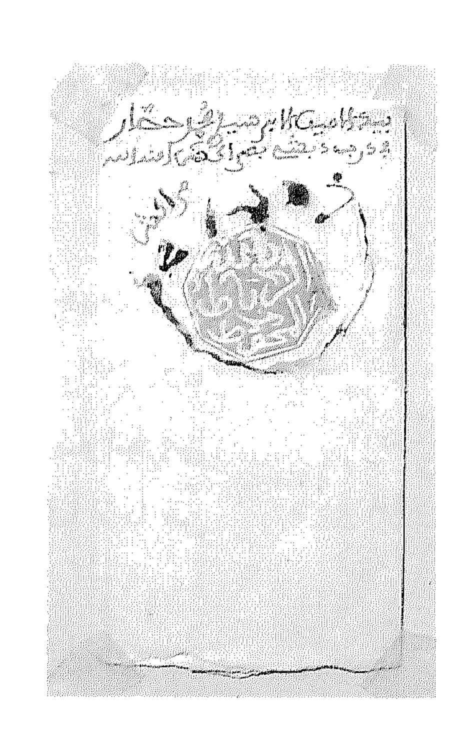


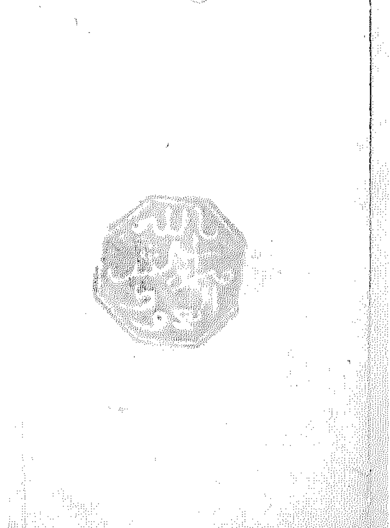




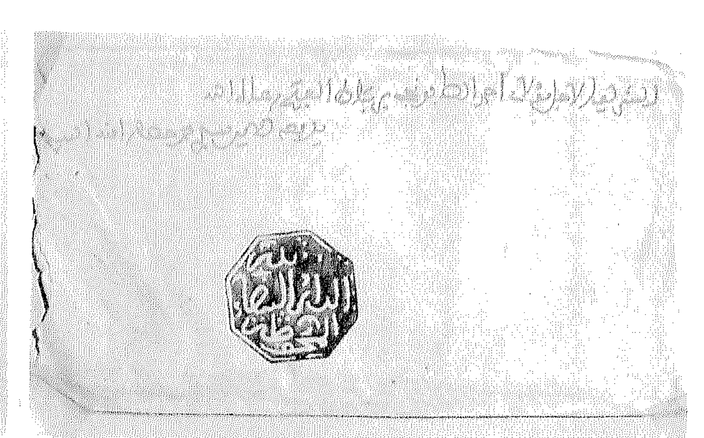


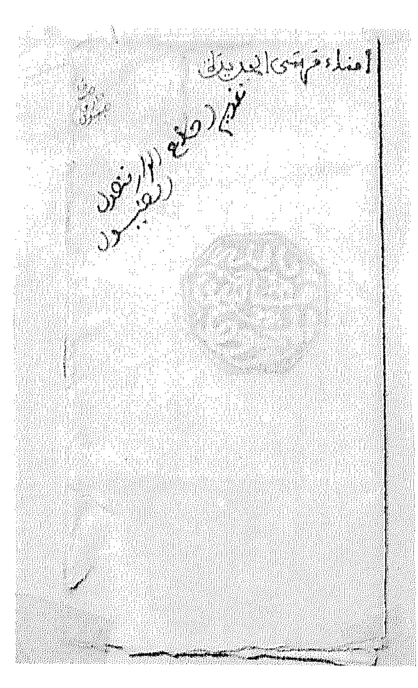






نماذج من الطوابع البريدية والأختام...





الصحافة في المغرب والنشاط الدبلوماسي

- □ دور البرّاح في الحياة الاجتماعية المغربية ـ أول محاولة لإصدار نشرة إخبارية.
- □ مقام المراسلين الأجانب بالمغرب.
- □ صدور عددٍ من الجرائد باللغات الأجنبية ـ جريدة المتحرر الإفريقي ـ جريدة صدى تطوان ـ جريدة تحت إشراف الحلف الإسرائيلي.
- □ تغطية الصحافة لأعمال مؤتمر مدريد 1297 = 1880.
- □ إنشاء مطبعة طنجة وإصدار مجلة المغرب الأقصى ـ جريدة انبعاث المغرب ـ جريدة أوقات المغرب ـ ميكين مراسل جريدة مانشيستر ـ هاريس مراسل التايمس ـ لامارتينيير مراسل لوطان ـ نشر الاسترعاءات المغربية في الصحف الأجنبية ـ مقاومة اختلاق الصحف الأجنبية التي تصدر بطنجة ـ ملخّصات للصحف المصرية ـ ملخصات للصحف الأوربية.
- □ علي زكي مراسل جريدة (المؤيد) يغطي أخبار مؤتمر الجزيرة الخضراء.
- □ عزم الحكومة على إنشاء صحيفة وطنية...

الصحافة والنشاط الدبلوماسي

وهنـاك جـانبٌ من الجـوانب التي استرعت انتبـاه الـذين اهتمـوا بتاريخ المغرب الـدولي، وهو الجـانب الإعلامي، هل كـانت هنـاك وسـائل إعلام تعني بما يتجدد من أخبار، وما يراد نشره من أفكار ؟ وكيف كـان المغرب يتصل بالرأي العام داخل المغرب وخارجه ؟

علاوة على ما عرفناه سابقاً عن الرسـائل التي كـان الملوك يبعثون بها للشعب عن طريق منابر الجوامع، فلقد قرأنـا عن أول محـاولـة لجمع نشرة إخبارية بالمغرب سنـة 852 = 1448 عنـدمـا قـام الشيخ ابن غـازي المكنـاسي بنشر محـاولتـه الخطيـة التي كـان يجمعهـا (ويـأمر أصحـابـه وتلامذته أن يأتوه بالطّرف واللطـائف من الأَنبـاء والنكت، حتى إذا كـان يوم الأَربعاء أبرز لهم مجلته الخطية اللطيفـة)، ولكنّـا لا نقصـد هنـا إلى هـذا النوع من المـذكّرات والأَنبـاء، وإنمـا نقصـد إلى الجريـدة التي تهتم بإشاعة الخبر بين الناس وتوجيه الناس نحو رأي من الآراء...

وإننا إذ لا نغفل الإشـارة في هـذا الصـدد إلى دور الشعر في تصوير الأَحداث... لابد أن لا ننسى الوسيلة الإعلامية التي كانت الحكومـة أيضـاً تعتمدها، ويتعلّق الأَمر بعادة «التَّبريح» في الأَسواق والأَماكن العامـة بمـا حـدث، ولابـد أن يكـون (البرَّاح) ـ وهـو الـذي يقـوم بـإخبـار الجمهـور بطريقـة علنيـة ـ موثـوقـا معتمـداً محترمـاً ومجـازاً من طرف المحتسب ضرورة انها عمل دقيق...

وقد عرفت هذه العادة منذ قدم التاريخ في المغرب، كما عرفت في أُروبا أيضا. وهكذا نجد إحدى رسائل الملوك السعديين للولايات العامة تحمل تاريخ 27 محرم 1033 = 20 نونبر 1623 وهي تتحدث عن «التَّبريح» في الأَراضي الواطئة ولاهاي، وانه يقوم مقام الإعلان في الصحف..!

وقد عرفت بلاد المغرب عدداً من المراسلين الأَجانب، كانوا يزودون صحفهم بأخبار البلاد، وكانوا يقيمون ببعض الثغور المغربية منذ عهد السلطان المولى إسماعيل، حيث نجد الكونط دوكاستري يتحدث عن جريدة لويز بيرمُّوند (Luis Permond) حول الأَخبار التي كان يبعث بها مراسل الجريدة من مدينة سلا... فنجد مثلاً الحديث عن الهجوم على مدينة سلا من قبل الإنجليز...

ولكن المغرب لم يبق بعيداً عن جو الصحافة والصحفيين وخاصة بعد أن أصبح محاطا من جهتين على الأَقل بقوى أجنبية، وأصبحت عاصمته الدبلوماسية تحتضن عدداً من البعثات الأَجنبية، يهمها جدّاً تتبع أحوال المغرب. ويهم بعضها أن تجد لها قبل غيرها مركزاً بهذه الديار التي كانت تسير ـ بتواطؤ بعض الدول الكبرى ـ نحو العزلة ونحو الضعف ونحو الانهيار.

وهكذا فعلاوةً على عدد من المراسلين الصحفيين الذين كانوا يقومون بنقل أخبار المغرب إلى جرائدهم لاحظنا ظهور بعض الصحف الأُسبوعية في سبتة المحتلة أولاً، حيث صدرت جريدة (المتحرر الإفريقي) (EL liberal Africano) منذ 18 رجب 1235 أول مايه 1820.

وفي سنة 1276 = 1860 ظهرت جريدة أُخرى مطبوعة تحمل اسم المدينة المحررة : تطوان، ونعني بها جريدة (صدى تطوان) (EL Eco De Tetuan) ولكن باللغة الإسبانية أيضا.

ولم تلبث طنجـة أن عرفت هي الأُخرى جريـدة صـدرت عـام 1287 = 1870 تحت إشراف الحلف الإسرائيلي في باريـز الـذي كـان يزودها بالمواد الضرورية للنشر... وقد كان انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1297 = 1880 المتعلق بمعالجة الحدّ من الحمايات القنصلية الممنوحة للمواطنين المغاربة فرصة لإلفات النظر إلى المملكة المغربية بواسطة الصحافة، ونحن نعلم أن سكان طنجة، من الجالية الأُوربية، أصبح يناهز ستة آلاف نسمة، ومن هنا جاءت فكرة إنشاء مطبعة في طنجة عام 1297 = 1880 وإصدار مجلة أُسبوعية (المغرب الأَقصى) (Al moghreb Al aksa) بالإسبانية من طرف أبرينيس (Abrines) كانت تظهر كلّ أحد.

ثم ظهرت من بين الجرائد أيضا جريدة (انبعاث المغرب) (Le Réveil Du Maroc) في صيف 1300 = 1883 محررة بالفرنسية ولو أَن صاحبها يهودي من جنسية انجليزية.

وكانت جريدة أُخرى تحمل اسم «أوقات المغرب» (The Times Of Morocco) التي صدرت عام 1301 = 1884 باللغة الإنجليزية. وبهذه الجريدة أمست طنجة تتوفر على عدد من الصحف بمختلف اللغات، وأمسى كل منها يمثل وجهة نظر معينة للمفوضيات الأَجنبية ومصالحها...

وقد كان من بين المراسلين الصحفيين المعروفين بطنجة (بوذْجِيتْ مِكّين) (Budgett Meakin) مراسل مانشيستر الذي صدرت له كتب عديدة بالإنجليزية حول المغرب... ومن خلالها يظهر تضلعه من الإطلاع على أحوال البلاد، هذا إلى (هاريس) مراسل التايْمس (Times) و(لامارتينيير) مراسل الأَزمان (Temps).

وإدراكاً من الحكومة المغربية لدور الصحافة، عمدت منذ تاريخ 15 ـ حجة 1298 = 8 ـ 11 ـ 1881 وتاريخ 26 ربيع الأَول 1299 = 15 ـ 2 ـ 1882 وتاريخ 15 جمادى الثانية 1300 ـ 23 ـ 4 ـ 1883 إلى الاتصال في

EL ECO DE TETUAN.

PERIODICO ESPAÑOL.

Número 1.°

INTRODUCCION.

No lo ocultaremos. Al coger hoy ...para redactar las primeras líneas ...milde periódico, la mas dulce en ...larga nuestro ánimo y un inefable ...ento de orgullo y de alegría nos ...ramar lágrimas de entusiasmo y ...

¡Sea, sea en el nombre de Dios y en ...nuestra cara España; sea en el insig... ...losa castellano; sea bajo la bandera trin... ...ie de Jesucristo como nazca á la luz pú... ...a el primer periódico del Imperio d... ...ruecos, y regocíjese en su tumba el in... ...tal Guttemberg al ver volar por estos ...zontes la palabra impresa, pálida estre... ...hoy, como nacida de nuestro pobre en... ...dimiento, pero que algun dia llegará á ...claro sol de verdad, que esparza resplan... ...s de amor y de justicia en la tenebrosa ...te de los africanos!

Mas no somos nosotros, agentes ciegos ...tiles del espíritu sublime que hoy ani... ...á nuestra Madre Patria; no somos ...otros los' que debemos envanecernos de ...nueva conquista que realiza la civiliza... ...n de Europa al plantar su cátedra (la ...losa) sobre el territorio que ayer era ...anquí: es España la que debe ceñir á ...frente tan inmarcesible lauro; España, ...e, en brevísimos dias, ha hecho pasar el ...recho de Gibraltar, en me lio de sus le... ...nes armadas, y avanzar de campamen...

EL ECO MAURITANO

PERIODICO COMERCIAL, DE INTERESES GENERALES Y DE ANUNCIOS.

SE PUBLICA ...

COSAS DE MARRUECOS.

TEATRO RAFAEL CALVO.

NOTICIAS GENERALES.



LA CRONIC

Al-moghreb A.

PERIÓDICO INTERNACIONAL DE INTERESES MATERIALES, MERCAN...

SE PUBLICA TODOS LOS DOMINGOS.

AÑO I. TANGER, 28 DE ENERO, 1888.

A LA PRENSA UNIVERSAL.

...o cumpliríamos con un deber de ...aternal cortesía si, al aparecer hoy ...estra publicacion, no dedicásemos ...de las columnas de el "Al-Mogh... ...l-Aksa" un cariñoso saludo á la ...ensa de todos los países sin distin... ...n de matices, ni opiniones.

...Recíbalo pues, como la franca ...presion de nuestro afecto.

La Redaccion.

NUESTRO PROGRAMA.

Siguiendo una costumbre de muy an... ...igua establecida y por lo mismo de todos ...spetada, colocamos hoy al frente de ...estra modesta publicacion, con bre... ...simas pero sinceras palabras, todo lo ...ue nos proponemos realizar, todo lo que ...eseamos establecer en este suelo y todo ...o que para conseguirlo pondremos en ...ráctica.

Introducir en nuestra localidad los ...eneficios de la prensa moderna, *ha sido* ...uestro mas constante deseo: para que ...*tos beneficios* sean una verdad, nos ...cuparemos con singular preferencia de ...s asuntos comerciales, estableciendo ...laciones directas entre este y los de... ...s puntos de la costa, donde contamos ...*on activos é inteligentes corresponsales*, ...ondiendo ademas esas relaciones con ...as capitales Europeas tales como Lón... ...res, Marsella, Barcelona, Lisboa, etc.

Pero como una revista puramente co... ...ercial, aunque de suyo importante no ...enaria el objeto de una publicacion tal ...omo la que tenemos el honor de presen... ...ros, tendremos que ocuparnos tambien ...e los intereses materiales de esta pobla... ...n, si bien no se nos ocultan las excep... ...ionales condiciones á que se halla sujeta ...administracion, obrando siempre con ...reglo al mas imparcial criterio en este ...unto, toda vez que, nada podemos ...perar y todo lo debemos esperar.

Ademas, abriremos una seccion espe... ...donde nuestros colaboradores cien... ...os y literarios puedan colocar, entre ...ridas cuestiones comerciales y loca... ...las flores de la fantasía y las luca...

...pues, encomendamos nuestra obra, bie... ...seguros de qué, juzgará nuestra co... ...prensa, *fruto de los mayores esfuerzos* ...con la bondad que esperamos y dispen... ...sará benévola acogida á la única publi... ...cacion de Marruecos.

La Redaccion.

LA CUESTION DE AGUAS

Un problema de difícil pero impor... ...tantísima resolucion, tócanos present... ...hoy á la consideracion ilustrada de tod... ...nuestras respectivas autoridades.

Este problema es la cuestion de agua...

Tánger de dia en dia siente acrecer... ...tarse las necesidades de la vida moder... ...na: la colonia Europea se aumenta si... ...cesar, trayéndonos ese afan civilizado... ...de las demás naciones, y con tendencia ...abandonar los medios primitivos de ase... ...gurar la subsistencia que hasta aquí mu... ...en su lugar estuvieron.

De todos es conocida la falta de agu... ...que en esta poblacion nos aflige: todo... ...conocen que el mal, lejos de disminuir ...se aumenta; pero no todos habrán e... ...tudiado esta cuestion bajo sus dos im... ...portantísimos aspectos.

Bajo el punto de vista económico, ...puede ser mas deplorable esta extenci...

Con efecto; el gasto que produce ...agua, no baja seguramente de la can... ...tidad que para cada vecino, como ren... ...de la casa que habita, lo cual supo... ...una presion horrible sobre el jefe... ...al contrario de lo que pasaria habien... ...agua en abundancia, tiene que rest... ...cirse hasta lo inverosimil y buscar h... ...bitaciones que no llenan ni con much... ...las pocas necesidades con que se co... ...tenta.

En la misma relacion aflige á las f... ...milias acomodadas esta falta.

Pero si bajo el punto de vista eco... ...nómico resulta deplorable, lo es sin dud... ...mucho mas, bajo el punto de vista h... ...giénico.

A nadie se le oculta que la pobrez... ...de los manantiales, unida á la continu... ...extraccion que en ellos se verifica, da ...por resultado que, léjos de estar en la ...condiciones higiénicas requeridas, mues... ...tras el líquido sucio y amarillento, im... ...pregnado de materias extrañas, que n... ...han de favorecer de seguro las funcio... ...nes de nuestro organismo.

Además, como los pozos de dond...

Le Réveil du Maroc.

JOURNAL POLITIQUE, COMMERCIAL ET AGRICOLE, PARAISSANT TOUS LES MERCREDIS.

P... abonnements et annonces, s'adresser à l'Agence Havas, Place de la Bourse 8 Paris et à toutes les Succursales en France, Algérie et Colonies ...

3e Année. TANGER, 28 JANVIER 1885. No. 81.

SOMMAIRE.

AVIS IMPORTANT.

Le Réveil du Maroc est envoyé à titre ... à toute personne que le journal peut intéresser.

Les trois premiers numéros sont absolument gratis.

Toute personne qui ne renverra pas le quatrième numéro, sera considérée comme abonnée.

une grave infraction aux traités en nous imposant ces règlements.

Malheureusement, ces infractions sont facilement encouragées par les Représentants Étrangers, qui ont pour mission de défendre nos droits. Les nombreuses réclamations présentées à chaque instant par les victimes des vols et des meurtres commis sur les grandes routes, sont généralement étouffées par ces messieurs, qui ne se départent de leur apathie ordinaire, que quand il s'agit de certains protégés indigènes, satellites du pouvoir, et jouissent par cela même, des privilèges dont sont privés les sujets des nations qu'ils représentent.

Les arguments captieux ne manquent pas pour rejeter, avec une apparence de justice, nos légitimes réclamations; on nous demande si les sujets marocains, au préjudice desquels on aurait commis des vols à l'étranger, sont dédommagés par les gouvernements européens, si nous étions escortés d'un *mghazni* du sultan au moment du vol, si nous sommes à même de produire une ... en conséquence (déclaration notariée de douze témoins) si les agents consulaires avaient pris note avant le départ, du nom du chancelier qui allait porter les marchandises, et d'autres raisonnements qui tout en ayant l'air d'éviter les abus qui pourraient se commettre, ne sont en réalité que des faux-fuyants, inspirés à ces messieurs par la crainte de se déranger de leur *dolce farniente*.

Si au lieu d'accepter toutes les absurdités que l'ignorance et la mauvaise foi inspirent au gouvernement marocain, on l'obligeait à faire des routes et à organiser une police, qui ne fit pas cause commune avec les malfaiteurs, si au lieu d'encourager et de défendre un système qui rend impossible toute entreprise profitable au pays et aux émigrants, on exigeait le strict exécution des conventions conclues avec lui, il est évident que malgré les lacunes de ces traités, la situation des résidants étrangers serait bien moins précaire qu'elle ne l'est actuellement.

Quant au droit d'avoir un *cimetière pour y enterrer les morts*, personne ne peut prétendre qu'une procession funèbre puisse ...

Ainsi, un ministre ou un consul pourront avoir autant de soldats, de commis, ou de domestiques protégés qu'ils voudront sans que le gouvernement marocain y trouve à redire, tandis que les maisons de commerce, qui ont besoin de succursales dans presque tous les ports et du nombreux personnel qu'elles comportent, ne peuvent avoir qu'à deux agents dans tout le Maroc. Il s'ensuit que sous le titre d'interprète (qui ne connaît pas un seul mot de la langue qu'il est appelé à traduire) sous le titre d'écrivain (qui ne sait pas signer) en qualité de domestique (qui n'a jamais servi), un grand nombre de négociants indigènes se soustraient à la juridiction locale, pour jouir des immunités que leur assurent les représentants étrangers auxquels ils s'attachent, immunités dont sont privés les sujets, grâce aux restrictions du traité.

Une maison de commerce qui fait l'exportation et l'importation sur une grande échelle, peut avoir des agents protégés, tandis qu'une maison de banque est exclue de ce privilège; un commerçant qui voudrait entreprendre des affaires entre les ports de mer et les villes intérieures, ne peut pas non plus avoir un censal. Celui qui s'adonne à l'agriculture doit se résigner sans protester, à toutes les avanies des gouverneurs, qui peuvent impunément incarcérer ses agents et s'emparer de ses récoltes et de son bétail. Encore la maison de commerce qui est dans les conditions voulues, ne peut pas avoir plus de deux agents. Que fera donc un négociant qui voudrait étendre ses relations à Fez, Mequinez, Alcasar etc, en présence de ces obstacles? Comment encore un commerçant qui habite une ville de l'intérieur et qui fait faire ses opérations de douane par un agent de transit, peut il réclamer la protection, pour les intérêts qu'il aurait confiés à ses agents?

... qu'il faudrait examiner, car si les censaux ont été créés pour sauvegarder les intérêts des étrangers, ce n'est pas le nombre des colis passés à la douane qui doivent les qualifier comme tels, mais bien l'importance des intérêts qu'ils ont en mains, de quelque ...

II SABADO 3 DE OCTUBRE DE 1891

DIARIO DE TANGER

TELEFONO NO. 55

NOTICIERO DEL IMPERIO DE MARRUECOS.

Para anuncios y suscriciones, dirijanse á L'AGENCE HAVAS, Place de la Bourse No. 8, Paris.

EL "DIARIO DE TANGER" ES EL PRIMER PERIODICO QUE EN SU CLASE VE LA LUZ EN MARRUECOS

TODA LA CORRESPONDENCIA AL ADMINISTRADOR.

...DE SUSCRICION.	
...	Ptas. 1.00
...ultar ...	" 4.00
...año ...	" 25.00

...ANTICIPADO

...ueltos 15 Céntimos.

ANUNCIOS Y REMITIDOS

Los precios serán convencionales, y el pago fuera ... calidad deberá hacerse en órdenes postales, letras de g... por órdenes de fácil cobro contra casas de esta locali...

No se publica los dias festivos.

(لندن) بالتاجر البريطاني (فليمينك) عن طريق النائب السلطاني بركَاش، من أجل إبلاغ رغبة الملك الحسن الأول في نشر استرعاء ضد جيمس كورتيس (James Curtis) الذي حاول أن يفتح مركزاً تجارياً له على الساحل المغربي في الجنوب..!

وان هذا التوجه إلى جريدة خارج البلاد ليكشف عن الرؤية التي كان يرى بها المغرب إلى الصحف الصادرة في طنجة، والتي لم يكن يهمها غير النقد الهدام والحملات المغرضة وتتبع الهنات، وبالحرى الدعوة إلى التدخل في شؤون المغرب. وهذا هو ما يفسر لنا موقف النائب السلطاني الحاج محمد الطريس الذي قام منذ رجب 1302 = أبريل 1885 بتقديم مطلب إلى السلك الدبلوماسي، يهدف إلى (ابطال الجوازيط !) أي منع الجرائد التي تطبع بالإيالة دفعاً لإذايتها وحدّاً من فضولها) ! وهو الطلب الذي تجدد بتاريخ 18 شوال 1303 = 21 يوليه 1886 إلى الوزير الفرنسي.

وقد انقسم السلك السياسي على نفسه حول الموقف، نظراً لاختلاف مطامعه ومطامحه، وهكذا لم يسفر اجتماع 25 شوال 1303 = 27 يوليه 1886 عن نتيجة تذكر...

وبين هذا وذاك، كنا نعثر بين الفترة والأُخرى على قصاصات صحفية كانت تصل المخزن من مختلف جهات الدنيا مما يمس الظروف السياسية للمغرب على نحو ما نجده فيما صدر في جورنال (المؤيد) المطبوعة بمصر بتاريخ 15 ربيع الأول 1310 = 7 اكتوبر 1892 عن أخبار المملكة الشريفة الحَسَنية... وقد كان مما ورد في جريدة (المؤيد) انتقاد الجَرَائد الأُروبية التي تعودت إذاعة ما يسوء سماعه عن هذه المملكة الشريفة المحميّة بالله، كما جاء فيها أن بعض الحكومات الأُروبية ساعية في التحيل لاحتلال جانب من الأَراضي التابعة للمملكة الشريفة الحسنية.

كما عثرنا من جهة أُخرى على تعقيبات من الحكومة ضد ما نشر في الصحافة الأَجنبية الصادرة بالبلاد الأُوربية...

وقد وقفنا على «قصاصةٍ» نقلها الصحافي ميكين (Meakin) إلى النائب الطريس حول ما يتردد من أصداء عن الصدر الأَعظم بّاحماد بتاريخ يناير رجب 1312 = 1895... كما أن الصحافة استقبلت بارتياح نبأ نصْب التلغراف بين طنجة وجبل طارق ربيع الأَول 1313 = خريف 1895 بالرغم من أن الحكومة المغربية كانت ترى في ذلك تعدياً على اختصاصها... وقد وجدنا من جهة أُخرى أن الحكومة المغربية تصدر تكذيباً قاطعاً لخبر نشرته الصحف الفرنسية بتاريخ 15 ربيع الأَول 1317 = 24 يوليوز 1899 حول وُجود بّاحماد رئيس الحكومة المغربية ضمن لائحة الذين تشملهم الحماية الفرنسية ! الأَمر الذي كان يعني إغراء باقي المواطنين بطلب الحماية..!

ومن المهم أن نعرف أن بعض أعضاء الحكومة المغربية، كانوا يفكرون في إنشاء صحيفة وطنية تقوم بتقديم المسألة المغربية على ما هي، وقد رأينا بالفعل عدداً من المغاربة، يقومون من تلقاء أنفسهم بتبيين وجهة نظر أو بيان حقيقة، ولكن أمر (الصحف الوطنية) ظل في الواقع مجرد أمنية، وقد كان بعض المغاربة يقرأون جريدة (الأَهرام) عندما قامت البعثة الفرنسية بإصدار جريدة (السعادة) منذ سنة 1904.

ولقد تجلّى من خلال التقارير التي كان يرفعها السلك الدبلوماسي إلى بلاده أن طائفة من المغاربة كانوا يتتبعون قراءة الصحف التي تصدر خارج المغرب باللسان العربي من أمثال «المؤيد» السالفة الذكر وقد كانت تحرر فصولاً عنيفةً ضد السياسة الفرنسية في المغرب، تعتمد فيها على التقارير التي كانت تكتبها البعثة العسكرية التركية ضد البعثة العسكرية الفرنسية... لقد كان للمؤيد زهاء خمسين مشتركا من بين

أعضاء المخزن، كان منهم الكَبَّاص والمقري، وقد كان مراسلها بالمغرب - لبعض الوقت - الشيخ علي زكي، وكان من الصحف كذلك «المقطم» وكانت مؤسسةً تابعة للحكومة البريطانية ولذلك فقد كانت تتعاطف مع السياسة الفرنسية، ومن هنا رأيناها تعلق على الفصول التي تكتبها جريدة «السعادة» ولكن المقطم لم تكن مقروءةً بالمغرب على نحو ما كانت جريدة المؤيد...

وبالإضافة إلى جريدة الأهرام السالفة الذكر ظهرت بالمغرب جريدة اللواء والمنار والهلال والشرق والصاعقة والحجاز وطبيب العائلة...

ومع هذا ظهرت صحف بيروتية مثل الوطن ولسان الحال والمفيد والرأي العام والنصير ومجلة الزهور، والبشير والشرق والمقتبس، وتأتي مع كل هذا صحف تونس مثل (الحاضرة) و (إظهار الحق) والتقدم، والرشيدية، وحبيب العلماء...[1]



1) PERETIE : ARCH. MAR. VOL. XVIII PARIS 1912 P.369 .مجلة الأنوار التطوانية عدد أبريل 1946

صدى اليهود المغاربة
في الحقل الدبلوماسي والسياسي

- اليهودية بالمغرب ـ مواطنون يهود يشغلون مناصب سامية في الدولة.
- واجبات المواطنة : الزكاة ـ الجزية ـ
- اليهود على عهد الأدارسة وعهد المرابطين ـ أسباب القرار على عهد الموحدين بالتّمييز بين المسلمين واليهود في الملبس.
- تدخّل من الموحدين لدى حاكم بيزة لصالح رفع الظلم عن اليهود.
- إنشاء حارة خاصة باليهود في عهد بني مرين تسمى (الملاّح).
- سفير مغربي إلى مصر يتحدث عن وضع اليهود في المغرب.
- رأي ابن عبد الكريم المغبلي في اليهود على عهد الوطاسيين وردود الفعل على الصعيد الشعبي والرسمي.
- اليهود في عهد السعديين، يؤدون صلاة الشكر بمناسبة انتصار المغاربة في وقعة وادي المخازن.
- سفارة المغرب المقيمة في هولاندا برئاسة أُسرة يهودية.
- اليهود في عهد العلويين ـ مولاي الرشيد وابن مشعل...
- حديث السفير ابن عثمان عن محرقة اليهود في إسبانيا ـ تورط بعض اليهود في مشكلة الحمايات القنصلية ـ البيان التاريخي للسلطان مولاي عبد الرحمن 1257 = 1842 ـ المرسوم الملكي عام 1280 = 1864 وردود الفعل ـ الفتوى بإنشاء محاكم خاصة بهم ـ بين تعلق اليهود بهُويتهم المغربية وإسهامهم في الحركة الوطنية المغربية.

صدى اليهود في الحقل الدبلوماسي والسياسي

وان المتتبع لغضون تاريخنا السياسي سيقف على عددٍ من السفراء والمبعوثين مِمن كانوا على دينٍ غير الدين الرسمي للدولة، وهذا أيضاً يدلّ في نظرنا على ترفُّع المغرب عن التعصب والفكر الضيق وعلى ثقة الدولة بنفسها وعدم شعورها بأيّ مركب أو أية عقدة، ألم نسمع عن نبي الإسلام اعتماده على غلام يهودي إسمه عبد القدوس كان يخدمه، أو لم نسمع عن عيادته لهذا الغلام عندما تغيَّب مريضاً ذات يوم...! ؟

سنقف على طائفة من اليهود ممن كانوا - باعتبارهم مواطنين - يشغلون مناصب سامية في الدولة من وزراء وسفراء وتراجمة ومساعدين ومستشارين اقتصاديين.

وهذا يستدعي إعطاء فكرة عن الوجود اليهودي بالمغرب وعن تعايشهم إلى جانب بقية المغاربة في الإطار الذي حدّده الإسلام من أداء (الجزية) بالنسبة لأَهل الذمة في مقابلة خدمتهم، على نحو أداء (الزكاة) بالنسبة لأَهل الإسلام في تلك المقابلة أيضا، اختلاف في المصطلح ولكن النتيجة واحدة،[1] وقد حدث ذات مرة أَن عجزت الحكومة في إحدى المدن عن حماية الذميين فأرجعت إليهم الجزية اقتناعاً منها بأَن الجزية لا تعني شيئا غير واجب حماية الذمة !!

---

1) كثيراً ما نجد رسائل صادرة عن العاهل إلى عماله يطلب إليهم فيها متابعة المسلمين في (الزكاة) على نحو ما نجده بالنسبة لمتابعة اليهود في (الجزية)...

وهكذا كان اليهود ينعمون بنفس الحقوق التي ينعم بها المسلمون، انطلاقاً من قولة عمر ابن الخطاب وقد سأل عن فقيرٍ معدم منهم : «والله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته وخذلناه عند الهَرَم».

ومن المعلوم أن اليهودية عرفت طريقها إلى المغرب منذ القرن الثالث قبل الميلاد أي قبل المسيحية والإسلام معاً وخاصة عندما تزايد الشعور ضدهم عندما غزوا فلسطين في الألف الثاني قبل الميلاد.

وقد لوحظت هجرات أُخرى سنة 6 هجرية = 628 للميلاد عندما غادر اليمنَ يهودُ خيبر في اتجاه إفريقية والمغرب متّخذين من الجبال مقرّاً لهم بعيداً عن الناس وهذا أمر تؤكده سائر البحوث التي عالجت موضوع الأُصول القديمة للإسرائليين بالمغرب[2].

وقد سمعنا عن اليهود بمدينة فاس على العهد الإدريسي يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين دون ما تمييز... يشتركون في المتجر والمصنع، كما يشتركون في الملبس والحمّام... لا تختلف النساء اليهوديات عن المسلمات في ذلك، بل رأينا وقوف المسلمين إلى جانب اليهود في بعض الحالات التي تعرض فيها حريم اليهود للاعتداء بل رأينا عملهم على إسقاط أميرٍ من الأُمراء تعزيزاً لجانب العدل وحماية للخُلُق... وقد أكد البكري أن اليهود في فاس العاصمة كانوا أكثر نسبةً من أي مدينة أُخرى بالمغرب..!

وعلى عهد حكم المرابطين شاهدنا أن مساكن اليهود كانت تجاورُ أقدم جامع أسس بعدوة القَرويين من فاس، وأن الدولة عندما قررت توسعة الجامع أرضت اليهود، بسَخاء، من أجل التحول إلى جهة أخرى،

2) يقال بأن أقدم وثيقةٍ حول اليهود بالمغرب هي قبر يوسف بن ميمون الموجود بمقبرة إيفران بالأطلس والذي يرجع تاريخه إلى السنة الرابعة قبل الميلاد. وقد نشرت وثيقة بالعبرية تزعم أن أول مملكة قامت بإفريقيا الشمالية كانت يهودية وجدت بالريف...

وأن الانحراف الواقع في قبلة هذا المسجد الأَعظم يُعْزَى لعدم قبول أَحد اليهود تحويل سكناه !

ونتساءل هنا عن حارة (فندق اليهودي) التي توجد بعدوة القرويين وهل كانت تعويضاً بَدَل تلك المنازل القريبة من مسجد القرويين ؟

وبظهور الدولة الموحدية اختلطت - أكثر من أي وقت مضى - العناصر المغربية بمن فيهم المسلمون واليهود بالعنصر الأَندلسي بمن فيهم أيضاً المسلمون واليهود إضافةً إلى المسيحيين وهو الأَمر الذي تفسره المجالس العلمية التي كانت تُعْطَى منذ سنة 553 هـ = 1158 م في الأَندلس بحضور رجال الديانات الثلاث، ومع أن هذا الاختلاط محمود ما في ذلك شك، لكنه من ناحية أُخرى كان يتعداه إلى مجالس أُنْس تضم أيضا العناصر الثلاث !

ولم تكن هذه المجالس تخلو مما تحتضنه عادَةً من لهو ومجون... وإذا ما عرفنا أن دولة الموحدين قامت على أَساس مقاومة كل أنواع اللهو والتحلّل والمجون، وأن المهدي بن تومرت هو الذي كسَّر آلات اللهو والطرب، إذا عرفنا كلّ هذا سهل علينا إذن أن نتصور كيف أن اليهوَد كانوا ضمن تلك الحملات، وخاصة مع ما كان يبلغ، دون ريب - عن ضلع بعضهم. وإذا ما عرفنا من جهة أُخرى أن الموحدين كانوا يلقون بكل ثقلهم في الساحة الأندلسية للتصدي للصليبية المتعصبة، وأَنهم كانوا يلقون بثقلهم في شمال إفريقيا لمواجهة تسرب النورمانديين... وانهم كانوا بحاجة ملحة إلى مواطنين إيجابيين يشاركون في الحروب ويبذلون الأَموال دون مواربة... سهل علينا إذن أن نعرف سر قرار المنصور أوائل سنة 595 = 1199 الرامي للضغط على طائفة من اليهود كانت تكتفي بالتمول والتجارة دون أَن تستجيب للواجبات الأُخرى للمواطنة !



ابن ميمون كما تخيله رسام

عن مجلة (الثقافة العالمية)
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت

ابن ميمون بفاس

اقترن مقام أُسرة ابن ميمون في فاس (555 ـ 560 = 1160 ـ 1165) بطائفة من الأَخبار التي ضاعف من ابتكارها عدم وجود مصادر قديمة تهتم بأمر ذلك المقام، وهكذا سمعنا عن اتصاله برجال جامعة القَرويين... بل وسمعنا عن أن الدار التي كان يسكنها هي دار المكَانة، بالطالعة، حيث كان يتخذها لمعرفة الأوقات، وسمعنا كذلك عن أن سبب مغادرة الأُسرة للمغرب هو «الاضطهاد» الذي استهدف له اليهود...

وإذا لم يكن هناك إطلاقاً ما يمنع اتّصال ابن ميمون بعلماء فاس الذين سبق لهم أن اتصلوا بعددٍ من العلماء المسيحيين واليهود. فإن القول بأنه كان يسكن في دار المكَانة عارٍ عن الصحة، فإن سائر المصادر تُجمع على أن الساعةَ المذكورة هي من إنشاء السلطان أبي عنان عام 758 = 1357 أي بعد مائتي سنة من مقام ابن ميمون بفاس !

أما فيما يتصل بـ «الاضطهاد» الذي قيل إنه سبب المغادرة فقد علمنا أن الأُسرة توجهت للمشرق عام 560 = 1165 أي قبل موقف المنصور الموحدي من اليهود بخمسٍ وثلاثين سنة !!

د. التازي : ابن ميمون بفاس
الدورة الثانية لأكاديمية المملكة المغربية
أكَادير ـ نونبر 1985

وهكذا فإن التدابير المتخذة إزاء سائر الرعية... نالت آثارها أيضا الطائفة اليهودية على شكل آخر يتجلى في تمييزهم بالكسوة تطويقاً للاتصال المشبوه[3]، وفي فرض الزيادة في الأَتاوة حملاً لهم على الشعور بحق تلك المواطنة...

إننا نعلم أن الحكومة هي وحدها التي تعرف مصلحة البلاد فيما تفرضه من تشريعات وإلاّ فكيف نفسر اليوم فرض النص في بطاقات التعريف على تعيين النحلة والدين ؟ وهكذا فإن الذين شجبوا قرار الموحدين كانوا يتحدثون من منطلق عاطفي مجرد أو تعصُّبٍ مغرض دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في الأَسباب التي حدت ببعض قادة الدول لاتخاذ مثل ذلك القرار.. وبالتالي دون دراسة للسياسة القيادية بكاملها وللموقف المغربي من جميع جهاته ومناحيه... وهكذا فإن رسالة جاكوب إلى بَابْلو (Pablo) باضطهاد اليهود على عهد الموحدين وتهديم بِيَعِهم وإحراق كتبهم ومنعهم الاحتفاء بأيام السبت والأَعياد واضطرارهم إزاء ذلك إلى اعتناق الإسلام أو الانقطاع في الكهوف أو مغادرتهم الأَراضي الموحدية... يحتاج إلى المزيد من التقصي عما كان وراء ذلك القرار... لقد أصبح على اليهود فعلاً أن يلبسوا الأَردية الطويلة الداكنة ذات الأَكمام المفرطة في السَّعة، وأَن يجعلوا على رؤوسهم قلنسوة زرقاء تصل إلى الأُذنين[4]... لكن تلك الحالة لم تلبث أن تغيرت إلى اختيار الأَلوان الصفراء ليعطل قرار التمييز نهائيا أَيام الخليفة المأمون أبي

---

3) تدل النصوص المشرقية القديمة على ارتباط موضوع الزي الخاص لأَهل الذمة بموضوع حسم المناكر والملاهي : فتميّزهم كان تسهيلاً على والي المظالم حتى لا يعترض طريق المتزيين منهم ويمنعهم من أشياء مرخَّص فيها لأَهل الذمة بما لهم من عهد في حريتهم الدينية...

4) لقد نظم ابن نغرالة زعيم اليهود المغاربة آنذاك قصيدة باللسان العربي ينتقد فيها قرار الموحدين وهو من جهة آخرى دليل على حرية التعبير التي كان اليهود يتمتعون بها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارة فافهموا ياقوم هذى الإشارة !

العلاء إدريس بن يعقوب المنصور (624 ـ 629 = 1226 ـ 1231) على نحو ما تغيرت مراسيم أُخرى تمس باقي المغاربة من المسلمين...

ولابدّ أن نسجل هنا للتاريخ أن المغاربة كانوا يتدخلون في هذا العهد لدى ممالك أُروبا من أجل إنصاف اليهود ورفع الظلم عنهم وهو ما تكشف عنه رسالة تحمل تاريخ 20 شوال 624 = 7 أكتوبر 1227 موجهة من عمر بن أبي بكر إلى بِسكُونت (Visconti) صاحب بيش (Pise) يطلب إليه أن يرفع الظلم اللاحق بيعمر بن أبي الجيد الإسرائيلي من طرف صهره المتنصر بيتوره «نحبكم أن تنصفوه وهذه الحاجة أول حاجة خاطبتكم فيها...» على حد تعبير الرسالة...

☆ ☆ ☆

وفي أوائل دولة بني مرين شبت حادثة بين طائفة من المسلمين وأُخرى من اليهود كانت تؤوي بعض المُخمرين من المسلمين المتساهلين غداة عيد الفطر سنة 674 = مارس 1276 فثارت العامة وقتل عدد من اليهود، وقد تدخل العاهل أبو يوسف يعقوب بنفسه لإرجاع الأَمن إلى نصابه...

وإذا ما قارنا مثل هذه الحوادث المنعزلة بالطرد الجماعي لليهود الذي كانت تقوم به الدول المسيحية في إيطاليا وهولاندا وإسبانيا وفرنسا تصورنا قلة أهمية تلك الحوادث...

وقد قام السلطان أبو يوسف ـ استجابة لمطلب اليهود أنفسهم، فخطط لليهود حارة بكاملها على نحو الغيتو (Ghetto)... وذلك في المنطقة التي خصصها لسكنى بني مرين من مدينة فاس، حيث نجدهم يبنون ـ إلى جانب «المدينة البيضاء» المعدة لسكنى الأُسرة المالكة ـ مدينة أُخرى لليهود في مكان كان يحمل أصلا اسم «الملاّح» بينما

خصصوا دائرة في منطقة الملاح أيضا خاصّة بالمسيحيين العاملين في البلاط عرفت بربض النصارى[5].

وقد كان اليهود يكلفون إلى جانب المعاهَدين من النَّصارى بمهماتٍ حساسة وخطيرة عليها مدار النصر أو الهزيمة كالتجسس والتطلع على نحو ما كان بالأندلس أيام أبي يوسف يعقوب...

وهكذا بالرغم مما نقله صاحب صبح الأعشى من أن مبعوث أبي يعقوب يوسف بن يعقوب إلى الناصر محمد بن قلاوون والأمير بيبرس سنة 700 = 1301 ذكَرَ أن اليهود لا يعملون في الدواوين السلطانية وأن أمراء مصر تأثروا بهذا القول فميزوا اليهود بالعمائم الصفر... فإن تاريخ بني مرين يسجل أنهم أي اليهود كانوا على العكس من ذلك يتمتعون دوماً بالحماية والرعاية...

وقد ورد في ترجمة السلطان أبي يعقوب يوسف أنَّ بني وقاصة من يهود ملاح فاس كانوا يتولون قهرمة دار السلطان وانهم كانوا ندامى بعضهم في مجلس أنسه، وقد فاقوا أحيانا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة وتعدد فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة ابن وقاصة وأخوه إبراهيم، وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغير هؤلاء... ولا نحتاج مع هذه الحظوة الكبرى ـ لدليل حتى نتصوَّر مدى نشوة بني وقاصة بالحكم ومدى المنافسات والوشايات التي تجري أحياناً في القصور حتى ولو كان الأمر يتعلق بعكاشة وليس بوقاصة ! ومن هنا رأينا سعاية الوزير عبد الله بن أبي مدين، ومن هنا شاهدنا مصرع معظم تلك الجماعة في شعبان 701 = أبريل 1302 حيث لم يبق منها إلا

---

5) يفهم من الاستقصا 80,3 أن (الملاح) كان موجودا منذ أيام أبي يعقوب يوسف بينما يؤخذ من صبح الأعشى (154,5) أنه من بناء أبي سعيد عثمان. هذا وقد أصبحت كلمة (الملاح) في فاس منذ هذا التاريخ تعني حارة اليهود، وعمَّ استعمالها في سائر جهات المغرب.

خليفة بن وقاصة الأصغر الذي ظلّ يتربص الفرصة بابن أبي مدين إلى أن كانت أيام السلطان سليمان بن عبد الله 708 ـ 710 = 1309 ـ 1311 حيث تمكن من إشعَال الفتيل ضد الوزير الذي لقي حتفه بدوره... ولكن لتتجدد مؤامرة أُخرى ضد (خليفة) وحاشيته حيث لقو مصيرهم !!

ومن جهة أُخرى فقد لاحظ الشعراني أن العلامة الآبِلى التلمساني العبدري (تـ 757 = 1356) كان ينزل على خلوف المغيلي اليهودي شيخ التعاليم بفاس قبل أن يرحَل الآبِلي إلى ابن البناء في مراكش للأخذ عنه وقبل أن ينتقل أيضا إلى مصر والشام والحجاز والعراق...

وبالرغم من أحداث المنافسات والوشايات التي أشرنا إليها فقد عاد اليهود إلى احتلال المناصب السياسية السامية في الدولة فكان منهم على الخصوص هرون وشاويل وزيرا السلطان عبد الحق بن أبي سعيد (823 ـ 869 = 1420 ـ 1464) إلى أن تجاوزا الحد في الاستبداد وأمعنا في إذلال الأشراف والفقهاء، الأمر الذي أدى إلى الثورة التي كان يقودها ضد اليهود أحد علماء جامعة القرويين الشيخ عبد العزيز الورياكَلي فالهب أحاسيس الناس، وكانت تصفية اليهوديين المذكورين بل وإسقاط دولة بني مرين في رمضان سنة 869 = مايه 1465 !

وقد خلفت هذه الحادثة ردود فعل مختلفة في أواسط المثقفين والفقهاء، فمنهم من كان يرى أن التعامل مع اليهود جملةً يجب أن يحظر... ولكن منهم من كان يميز بين المتطاولين والمسالمين منهم، وهكذا على نحو ما نراه في كل القضايا المشابهة، كان هناك فريق يوالي التعايش معهم وفريق يقول بطردهم من البلاد !

وتدخل في إطار هذا النزاع الرسائل التي ألفها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى بتوات أول العشرة الثانية والتي تتلخص في «أنه لا ذمة لليهود» وأن نقض بعضهم للعهد لازم لكلهم ! وقد قوبلت

٣٣٥ 335

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الوثيقة تحمل تاريخ العشر الأوسط من شهر ذي القعدة الحرام من شهور خمس وتسعين وسبعمائة = أكتوبر 1393.

وهي تحقيقٌ لشكوى كان قد رفعها شيخ المغاربة بالقدس محمد بن عبد الوارث المالكي إلى كافل السلطنة في دمشق... في أعقاب التجاء اليهود إليه ليتدخل لصالحهم في رفع الحجز الذي فرضه والي المدينة على تركة أحد اليهود.. وتدل الوثيقة على مدى الحرص على حماية أهل الذمة..

د. محمد عيسى صالحية : من وثائق الحرم القدسي الشريف.

حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت الحولية السادسة : (1405 = 1985)

آراؤه بردود مختلفة من علماء آخرين كالشيخ محمد ابن زكري الذي يحتج بأن السلف الصّالح عايشَ اليهود عبْر التاريخ وأنه لا معنى لأَخذ البرئ منهم بجناية المذنب، وقد نسب لابن زكري تأليف على نهج الشعوبيين حول تفضيل بني إسرائيل على العرب الأَمر الذي أدى إلى تشنيع الشيخ محمد بن الطيب القادري... لكن الزّاياني يثبت أنه وقف على مخطوطة ابن زكري فلم يجد فيها أثراً لذلك وكل ما ذكره إيراد ما قاله المفسرون في الآية الشريفة : ﴿وإني فضّلتكم على العالمين﴾.

ولما اختلف الفقهاء على الشيخ المغيلي نزل بظاهر فاس وخرج الفقهاء إلى لقائه، وكان له ستة مماليك وموالي من السودان كلهم من الحفاظ والفقهاء، وحينئذ عهد إلى أحد المماليك بمفاتحة فقهاء فاس في الموضوع الأَمر الذي اعتبره علماء فاس تجافياً وتعاظماً... فأبلغوا الأَمر لأَبي زكرياء الوطاسي سيّد البلاد الذي لم يتردد في الاجتماع بالشيخ المغيلي... وهكذا تطور اللقاء إلى خناق اضطر معه المغيلي إلى الالتجاء إلى الصحراء..! فاستقر ببلاد توات حيث لازم نشر أفكاره التي بلغت إلى بلاد السودان فتأثروا بها ومنعوا اليهود من دخول بلادهم...[6] وقد أدرك ابن عسكر عدداً ممن يرون رأى المغيلي في اليهود من أمثال عمر بن عبد الوهاب وأبي القاسم خجُّو...

كما ويدخل في إطار هذا النزاع أيضا رفض الشيخ زروق للصلاة وراء الشيخ الورياكَلي الذي حرك الناس للثورة ضد اليهود وبالتالي ضدّ بني مرين، ونعتقد أن هجرة الشيخ زروق من فاس إلى تلمسان ثم مصراته كان نتيجة لهذا الصراع بين العلماء وخاصة بعد تغيُّر شيخه الزيتوني عليه !

---

6) شاع من أمثال المغرب «ما كاين حتى يهودي كحل» أي لا يوجد يهودي أسود ! وهذا يؤكد أنهم كانوا بعيدين عن السودان في تلك الأَحيان.

وقد جرَّ هذا الصراع إلى فتح موضوع آخر... ذلك موضوع (البلَدِيين) أي اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، وهل أنهم أيضا يدخلون في دائرة المشبوهين فيحرمون من الكسب والاتجار، لقد تجاوز عدد الفتاوي خمسين فتوى ما بين مؤيد وغيره...

وقد عاش اليهود أيام السعديين ـ وخاصة الذين وردوا منهم ضمن المطرودين من اسبانيا ـ عاشوا كسائر المواطنين، وكانوا يشعرون ـ هم كذلك ـ بالأهوال التي كانوا يتعرَّضون لها وهم يعيشون بين الممالك الأُروبية، وهكذا نجدهم يقومون بأداء صلاة الشكر عندما انتصر الجيش المغربي على الجيش البرتغالي بما صحبه من مرتزقة ومتطوعين في وقعة وادي المخازن لأنهم كانوا يعرفون أنهم سيكونون الهدف الأول للجيوش الغازية، ولا ننسى رسالة البابا بولس الثالث إلى يوحنا الثالث ملك البرتغال بتاريخ 8 نونبر 1541 (19 رجب 948) يأمره بهدم البيع والكنائس التي يضطر للجلاء عنها بالمغرب..!

وقد اتخذ السعديون من اليهود مستشارين اقتصاديين في المؤسسات وخاصة في مصافي السكَّر... بل وسفراء مترددين على مختلف البلاد الأُروبية حتى اكتُشف ذات يوم أن بعض اليهود كان يهرب الذهب إلى أنجلترا عن طريق تغليف القطع الذهبية بقشرة من السكر... حينما اتفق أن تسربت المياه إلى السفينة فذاب السكر وظهر الذهب !...

وباستثناء العِقاب الذي حل بالمهرِّبين... نجد وضع اليهود جيِّداً في سائر نواحي المغرب... ويكفي أن نستعرض التاريخ الدولي للعهد السعدي لنقف على عدد من سفراء المغرب بالخارج كانوا ينتمون إلى أصل يهودي من أمثال أسرة بالآش التي تعدد فيها السفراء والمبعوثون...

وقد اقترنت فترة انتقال الحكم من السعديين إلى العلويين بما كان يصحبها من تفكك واضطراب، بحركة يهودي يحمل في «الأُسطورة» اسم ابن مشعل، حاول أن يستقل بإقليم له شمال المغرب معتمداً على ما كَنَزه من مال وما جمعه من عتاد، وقد كانت نهايته على يد السلطان المولى الرشيد ابن الشريف... والجدير بالذكر أن هذا العاهل لم يكن ينطلق من شعور معاد لليهود ولكن مبادرته كانت حفاظاً على الملامح الحقيقية للبلاد بدليل أنه منح ثقته لأَحدهم في مليلية وهو يعقوب باريانط (Pariente) الذي كان وسيطاً بينه وبين البعثة الفرنسية، والذي كان يمت بقرابة إلى شالوم باريانط رئيس اليهود في طنجة...

هذا علاوة على أسماء أُخرى عرفت بعملها في فترة هذا العاهل من أمثال هارون كَرْسني (Carsnet) الصيرفي للعاهل المذكور، ويوسف ممران الذي كان مكلفا بمصالح البلاط على عهد السلطان المولى إسماعيل، وقد قال عنه القنصل هيّبندّورب (Heppendorp) في رسالة لهولاندا : إنه يتمتع لدى السلطان بنفس حظوة كُولبير (Colbert) بفرنسا ! ولقد منح السلطان المذكور لليهودي ممران حق التمتع بواحد في المائة ثم واحد في المايتين في مقابلة سمسرة البضائع المصدرة أو المجلوبة إلى المغرب عن طريق المراسي...

ولابدّ أن نسجل هنا أن عدداً من اليهود كانوا لسبب أواخر يعتنقون الإسلام بل إنّ فيهم من المثقفين من ألّف رسائل حول هذا الموضوع، ونذكر على سبيل المثال مخطوطة في مكتبة الأَمير مولاي عبد الله رحمه الله لأَحدهم سمى نفسه عبد الحق الإسلامي السبتي كتبها بتاريخ 19 جمادى الثانية عام 1129 = 31 مايه 1717 وأهداها إلى السلطان المولى إسماعيل، ولم يتردد مؤلفها في الاعتراف بما «أحدث في التعاليم اليهودية من الحديث الغير الصحيح، ولابد أن نشير هنا إلى دعوة السلطان مولاي اسماعيل عام 1110 = 1698 لعلماء فاس للاستشارة حول

«ظهير» مزوّر أدلى به بعض اليهود أملاً في التخلص من أداء الجزية على نحو ما حاولوه في بغداد عام 463 = 1071 وحاولوه كذلك في أيام بني مرين والسعديين[7]...

ومع ذلك فقد استمر اليهود الأبرياء من هذا التزوير في مزاولة الوظائف الهامة أيام السلطان المولى عبد الله إلى أن ضبط أحد اليهود التجار في مدينة سلا متلبساً بحمل رسالة من أحد القناصل الإنجليز تسيء إلى السياسة المغربية.

وقد عاملهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله أيضا معاملة محترمة حيث نجده يعهد إلى أحدهم وهو شامويل سومبيل (Samwel Sumbel) بالقيام بدور الوسيط ذات مرة بينه وبين السلك الدبلوماسي.

وإذا ما عرفنا إلى جانب هذا أن اليهود كانوا يتوفرون في كل مراحل التاريخ على بِيَع يقومون فيها بشعائر دينهم دون معارض وحتى في الأماكن النائية عن عاصمة الحكم على نحو ما نجده في إيليغ مثلا، أدركنا مدى استغراب سفيرنا في إسبانيا آنذاك محمد ابن عثمان المكناسي عندما كان يحكي عن القصبة المعدة لإحراق الذين يعتنقون اليهودية، كما يحكي عن حظر الدّخول لإسبانيا على اليهود الأجانب..!

وبوفاة السلطان العظيم سيدي محمد بن عبد الله مرت البلاد بأزمات حكومية هددت أمن طائفة من المواطنين بمن فيهم اليهود وخاصة أيام السلطان اليزيد الذي لم ينس مواقف بعض اليهود إزاءه أيام كان يعيش أزمة طموحه ! وبهذا نفسر تصرفاته حيالهم، تلك التصرفات التي لقيت طبعا اعتراضا شديدا من باقي المواطنين، الأمر الذي كان أحد أسباب فشله واضطراره لترك الحكم بسرعة لأخيه المولى هشام...

---

7) الاستقصا ج 6,5,I.

وهكذا عادت الطمأنينة إلى النفوس عندما تولى زمام الحكم السلطان المولى سليمان الذي تجلى عدله في السيرة المثلى التي كان ينهجها إزاء المواطنين من غير تفريق بينهم.

ورغبة منه في ضمان حمايةٍ أكثر لليهود رأيناه يقوم عام 1222 = 1807 بتبديل مركز الملاّح القديم في سلا والرباط إلى مركز آخر بظاهر المدينة، وهكذا عيَّن ليهود الرباط (الجنانات) التي كانت بحومة وقّاصة حيث خطط لهم المعلم الحسن السوداني «ملاّحاً» سكنوه في السنة الموالية على ما يقوله الضُّعَيف مؤرخ الرباط.

وبانتزاع فرنسا للجزائر من يد الأَتراك واتساع مطامعها في المغرب وقيام بعض الدّول الأُخرى بمنافستها في تلك المطامع برزت مشكلة من أخطر المشاكل التي واجهت المغرب، تلك مشكلة منح (الحماية القنصلية) من بعض الدول الأَجنبية لطائفةٍ من المغاربة من الذين يساعدونها، وذلك بمقتضى قانون صادق عليه المغرب عن حُسْن نية، حيث إنه أي المغرب كان يهدف إلى تسهيل عمل القنصليات والممثليات، ولم يكن يدر بخلده ان العدد المحدود المرخص بحصانته سيزداد مع الأَيام ليتناول أقرباء المساعدين وأصدقاء الأَقرباء ! وكانت (الحماية) الممنوحة تعني تحرير المحمي من سائر واجباته أمام الدولة، فهو لا يؤدي زكاة ولا جزية وهو لا يخضع لضريبة أو أتاوة !

ومن الصَّراحة القول بأن أكثر المواطنين تعلقا بنيل تلك الحمايات كانوا من اليهود الذين وجدوا في ذلك خلاصاً لهم وملاذاً يلتجئون إليه ! وهكذا أصبح قسمٌ من المواطنين لايؤدي واجب المواطنة !

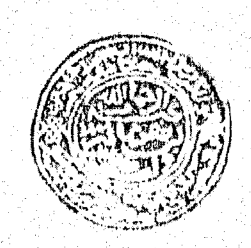
لكن الأَخطر من هذا والأَدهى أن الدول المتنافسة على المغرب وجدت في بعض اليهود استعداداً لتصور أَن لهم ((هُويةً خاصة)) غير هوية بقية المغاربة وبذلك أخذت كل دولة تجذب إليها طائفة من اليهود

تستعملها أيضا في نقل الأَخبار وإشاعة البلبلة والتدليل على العورات والوقيعة بين الأَطراف.

ولابد أن نلاحظ أن الذين أثاروا قضية (الهُوية) كان يربطون بين يهود المغرب ويهود أُوربا وكانوا ينقلون إلى أُولئك صورة مشوهة عما يوجد عليه (سائر) يهود المملكة من (ظلم وعسف وإرهاق) بينما كانوا يبلغون هؤلاء بالمغرب أن وراءهم جمعياتٍ وشخصيات قوية تحميهم، الأَمر الذي كان يعني التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد، ويخلق حالات تشنُّج وتعنت وتطاول لدى بعض اليهود. وكأَن قضايا حدودنا مع فرنسا واحتلال ثغورنا من قبل إسبانيا وتهديد مواقعنا في الجنوب من طرف أنجلترا وغيرها، كأن ذلك لم يكن كافياً..! وهكذا نجد القنصل الفرنسي يكتب للسلطان المولى عبد الرحمان في شأن بعض هؤلاء اليهود الفرنسيين الذين التحقوا بالمغرب وارتكبوا بعض المخالفات فأجلاهم المغرب... وسنسوق فقرات من جواب العاهل المغربي نستشف منها موضوع هدف التدخل والموقف المغربي الأصيل. كان الجواب بتاريخ 20 ذي الحجة 1257 = 2 يبراير 1842 وهو يقول :

«إن اليهود في إيالتنا السعيدة معاهدون على شروط أهل الذمة التي أثبتها شرعنا الكريم وعمل عليها أهل ملتنا في القديم والحديث، فإنْ وقف أهل الذمة عندما شرط عليهم وجب في شرعنا حقْن دمائهم وحفظ أموالهم... وتضيف الرسالة قائلة : «فإن كانوا عندكم متساوين معكم في كلّ شيء ومن جملتكم فليكن ذلك في أرضكم لا في أرضنا ! إذْ ليس حكمكم عندنا كحكمهم، فأنتم مصالحون وهم معاهدون، فمن أراد منهم أن يقدم للتجارة في ايالتنا السعيدة فلْيسلكْ مسلك أهل الذمة الذين عندنا ومن لم يرد ذلك فليبق في أرضه ولا حاجة لنا بتجارته على وجهٍ يخالف شرعنا العزيز، وهذا اليهودي خرج عن شروط الذمة بالاستطالة

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



الحبيب الذي له حرمة جانبنا العالي بالله كمال الاعتناء والاهتمام فلان قونصو جنس الفرنصيص [illegible]
أما بعد فقد وصلنا كتابك مراجعا في شأن اليهودي فلان حسبما أمركم بذلك عظيم جنسكم المحب في جانبنا العالي بالله
وطلب بيان أمره زيادة على ما قدمنا وليس بعد البيان بيان فإن اليهود في إيالتنا السعيدة معاهدون على شروط أهل الذمة
التي أثبتها شرعنا الكريم وعمل عليها أهل ملتنا في الحديث والقديم فإن وفى أهل الذمة عندنا بما شرط عليهم وجب في شرعنا حفظ
دمائهم وحفظ أموالهم وإن نقضوا ولو شرطا واحدا حل في شرعنا العزيز دمهم ومالهم وليس لهم في ديننا الكريم إلا شعار
الذلة والصغار حتى إن الواحد منهم إذا رفع مديته على المسلم فقد نقض الذمة فإن كانوا عندكم متساوين معكم في كل شيء
ومخالطين لكم فليكن ذلك في أرضكم لا في أرضنا إذ ليس حكمكم عندنا كحكمهم فأنتم مصالحون وهم معاهدون فمن أراد منهم أن يقدم للتجارة في إيالتنا
السعيدة فليسلك مسلك أهل الذمة الذين عندنا ويلبس شعارهم ومن لم يرد ذلك فليبق بأرضه فلا حاجة لنا بتجارته على وجه يخالف
شرعنا العزيز وهذا اليهودي الذي خرج عن شروط الذمة بالاستطالة على المسلمين وارتكب بالقول والفعل ما يحل به دمه وماله
فأمرنا بكفه وإبعاده ولم يضع له شيء مما ادعى به وقد قدمنا الكلام على إباحة قتله بدون الثابتة شرعا وحيازة متاعه ممن
هو موضوع عنده فإنه لم يتعد له أحد على شيء وإنما عجلنا بإبعاده خشية الزيادة في فساده وإعانة الانسان به الشكر وأما
قولكم على تعطيل تجارته مدة فإن عطل نفسه فلا علينا فيه ومثل هذا مما لا يدعي به عاقل فلو دفع أو بيع له ما ادعى هذا
وأما كونه مالك أمر نفسه ويدعي الخسارة فلا ينبغي لعاقل أن يصغي إليه وقد لحق تجار الصويرة الذين بعدائه في إنما فيهم
مرفقهم وذلك أن تجارتهم تعطلت من إقامة فصائلكم بمرساها لرجوع سفنهم بعد بيعها وقلعها ودفعهم أيديهم فلم يسأل عنهم
على ذلك رفعا للهمة وإيثارا لحفظ أسباب المودة وعلى كتابكم أولا انتهى في 20 ذي الحجة الحرام متم عام 1257

بسم الله الرحمن الرحيم   ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم

الخديم الذي له بخدمة جانبنا العالي بالله كمال الاعتناء والاهتمام فلان قونص جنس الفرنصيص بمحروسة طنجة أمّا بعد فقد وصلنا كتابك، مراجعا في شأن اليهودي فلان حسبما أمركم بذلك عظيم جنسكم المحب في جانبنا العالي بالله وطلب بيان أمره زيادة على ما قدمنا وليس بعد البيان بيان فإن اليهود في إيالتنا السعيدة معاهدون على شروط أهل الذمة التي أثبتها شرعنا الكريم وعمل عليها أهل ملتنا في الحديث والقديم فإن وقف أهل الذمة عندما شرط عليهم وجب في شرعنا حقن دمائهم وحفظ أموالهم وإن نقضوا ولو شرطا واحدا حل في شرعنا العزيز دمهم ومالهم وليس لهم في ديننا الكريم إلا شعار الذلة والصغار حتى إن الواحد منهم إذا رفع صوته على المسلم فقد نقض الذمة فإن كانوا عندكم متساويين معكم في كل شيء شيء ومن حملتكم فليكن ذلا في أرضكم لا في أرضنا إذ ليس حكمكم عندنا كحكمهم فأنتم مصالحون وهم معاهدون فمن أراد منهم أن يقدم للتجارة بإيالتنا السعيدة فليسلك مسلك أهل الذمة الذين عندنا ويلبس شعارهم ومن لم يرد ذلك فليبق بأرضه فلا حاجة لنا بتجارته على وجه يخالف شرعنا العزيز وهذا اليهودي الذي خرج عن شروط الذمة بالاستطالة على المسلمين وارتكب بالقول والفعل ما يحل به دمه وماله فأمرنا بطرده وإبعاده ولم يضع له شيء مما ادعى به وقد قدمنا لكم النص على إباحة قبض ديونه الثابتة شرعا وحيازة متاعه ممن هو موضوع عنده فإنه لم يتعرض له أحد على شيء وإنما عملنا بإبعاده خشية الزيادة في فساده مراعاة لانتسابه إليكم وأمّا قولكم على تعطيل تجارته مدة فإن عطل نفسه فلا علينا فيه ومثل هذا مما لا يدّعِي به عاقل فلو ثقف أو سجن لرما ادعى هذا وأما كونه مالك أمر نفسه ويدعي الخسارة فلا ينبغي لعاقل أن يصغي إليه وقد ألح تجار الصويرة المرّة بعد المرة في إنصافهم من حقهم وذلك أن تجارتهم تعطلت مدة إقامة قرمانكم بمرساها لرجوع سفنهم بعد سفرها وتأخير وسقهم أيديهم فلم نساعدهم على ذلك رفعا للهمة وإيثاراً لحفظ أسباب المودة وهذه كتلك أو أكبر، انتهى في 20 ذي الحجة الحرام متم عام 1257 هـ.

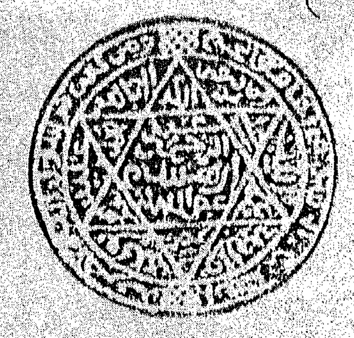
على المسلمين، وارتكب بالقول والفعل ما يحلّ به دمه وماله... وإنما عجلنا بأبعاده خشية الزيادة في فساده مراعاةً لانتسابه إليكم...».

ولابد أن نشير هنا إلى الوفد الذي قدم من لندن خصيصا لمقابلة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان من أجل (تحْسين) وضعية اليهود في المغرب ومع أن مبدأ تدخلٍ من هذا النوكان غير مقبول، فقد رأينا العاهل المغربي يفتح صدره لاستقبال البعثة التي كان وراءها اللورد جوهن روسيل (J. Russell) حيث[8] كتب إليه السير موسى مونتفيُور (M. Montefiore) نقيب اليهود في لندن أوائل أبريل 1861 (20 رمضان 1277) حول وضعية اليهود بالمغرب طالبا إليه التوسط، فكتب اللورد إلى القنصل البريطاني بالمغرب (هي) (Hay)... وأخيرا قرر السير مونتفيور أن يأتي بنفسه حيث وصل إلى طنجة يوم 11 دجنبر 1863 = 29 جمادى الثانية 1280 والتحق بمراكش حيث تم استقباله من طرف العاهل يوم 5 يبراير 1864 = 26 شعبان 1280 حيث صدر ظهير بهذا التاريخ يؤكد أن اليهود يجب أن يعاملوا بما أوجبه الله من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الاحكام حتى لا يلحق أحداً منهم مثقالُ ذرة من الظلم ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عند طيب أنفسهم، وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هذا المسطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً في حق

---

8) حرف الاسم في الاستقصا إلى (روشابيل).

بسم الله الرحمن الرحيم   ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه
المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا
اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية
بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا
يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا
في أنفسهم ولا في أموالهم وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم
وعلى شرط توفيتهم بما يستحقون على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن
لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا
في الحق سواء ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله
وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا
هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم وتشديدا ليزيد
اليهود أمنا إلى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفا على خوفهم صدر به أمرنا
المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا، والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا ومحرّراً لكن زدناه هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم وتشديدا ليزيد اليهود أمنا إلى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفا على خوفهم.

صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف.

من يريد ظلمهم وتشديداً ليزيد اليهود أمناً إلى أمنهم، ومن يريد التعدي عليهم خوفاً إلى خوفهم...».

وعوض أن تقابل هذه المبادرة الكريمة بما كانت تستحق من احترام المواطنة اعتبر بعض اليهود ذلك وخاصة منهم «المحميين» من طرف الدول الأروبية، خضوعاً للأمر الذي صدر عن الجمعيات اليهودية في الخارج وهكذا ظنوا أنهم أخذو الاستقلال !! وشاهدنا سلسلة من التجاوزات لم يتردد معها القنصل البريطاني (هي) في رفع تقريرٍ يذكر فيه أن أكثر الدعاوي المرفوعة من جانب اليهود مبالغ فيها بل إن بعضها كان يخالف الحقيقة ويناهض البلاد..!

وهذا هو الذي دعا العاهل إلى إصدار ظهير جديد يحدّد موقف الحكومة من اليهود المتطاولين على الأبرياء والخائضين فيما لا يعني...

وإدراكا من الملك الحسن الأول لما جرته الحمايات القنصلية قام بحملة دبلوماسية في دول أروبا للدعوة إلى مؤتمر مدريد بقصد الحد من تلك الحمايات التي كانت تهدد كيان البلاد... وفي أثناء إقامة البعثة المغربية في لندن في صيف 1292 = 1876 قام «وكلاء عصبة الطائفة الإسرائلية في سائر البلاد الانكليزية» بتقديم رسالة للسفير الزبدي حول مطالبها المتعلقة بيهود المغرب !.

وفي أثناء انعقاد مؤتمر مدريد بعث اليهود في أروبا إلى العاصمة الاسبانية وفادةً للتشغيب على السفير بركاش رئيس الوفد المغربي في المؤتمر..!

لقد وجدت دول أروبا التي كانت تشرئب بأعناقها إلى المغرب، في بعض اليهود أداة للتشويش على الحكومة المغربية.

لقد ظهرت بالفعل جماعة تعمل على إشعال نار الفتنة بين الناس، وهكذا سمعنا عن أحد المحميين اليهود تجاهره أمام العامة بالنّيل من قضاة المسلمين ! ورأينا محميا يهوديا آخر يقوم باغتصاب سيدة في رائعة النّهار وعلى مرأى من حريمها !! الأمر الذي أثار إشفاق بعض السفراء الأجانب أنفسهم !!.

ومع ذلك نرى العاهل المغربي يحرص على تفويت الفرصة للتدخل الأجنبي عن هذا الطريق... فنراه يصدر ظهيرا - بعد استشارة العلماء - بالسماح لليهود بانشاء محكمة خاصة بهم تحت اشراف حزّانهم (حاخامهم) وكان هذا أيضا مثار صعوبات لما شب من خلاف بين اليهود أنفسهم حول من يرشحونه لهذه المهمة !

كما رأينا العاهل يصدر ظهائر توقير واحترام بالنسبة لبعض كبار اليهود الذين برهنوا عن تعلّقهم بالمغرب وعملهم على التعايش مع المواطنين الآخرين...

مئات من الرسائل وعشرات من الظهائر التي تترجم عن روح العدل والإنصاف التي كانت تهيمن على الحكم المغربي في معاملته لليهود بالرغم مما كان يصدر من بعض العناصر اللاّمسؤولة منهم...

وإنه إذا ما قمنا - مع ذلك - بإحصاء للأيام التي شاهدت بعض الاصطدامات وقارنّاها بالأعوام والقرون الطوال التي قضاها المواطنون المغاربة جميعهم في أمن وسلام لأدركنا إذن حكمة السياسة الشرعية التي كانت تنهجها الحكومة المغربية.

وبالرغم من أن وثيقة المطالبة بالإستقلال عام 1944 لا تتضمن توقيعا لأحدهم، فإن معظمهم ظلوا - بعد إنشاء إسرائيل 1948 - متشبثين بمغربيتهم ولو أنهم ظلوا يصانعون نظام الحماية... وقد أصبحت مجموعة من شبابهم على حوار مع رجال الحركة الوطنية، مظهرين

مساندتهم للمساعي التي يقوم بها السياسون معبّرين باستمرار عن تعلقهم بالعرش المغربي الأمر الذي كان يفسره وجود وزير منهم في أول حكومة وطنية بعد استقلال المملكة المغربية.

«لست يهوديا ولكنه لو قدّر لي - يقول البروفيسور رُوم لاندو، أحد الكتاب الانجليز المعاصرين - أن أكونه لما اخترت غير المسلمين حليفاً وجاراً وصديقاً لقد ظلّ المسلمون عبر التاريخ الطويل الذي جمعهم باليهود وحتى في أعزّ الأيام مثلاً أعلى في إيواء اليهود والحدب عليهم والتغاضي عن متاعبهم، لقد عملوا ذلك بشهامة، وكانوا في مركز قوة، معرضين عن الإلتفات لكل الذين كانوا ينظرون إلى اليهود على أنهم حقائب غَدْر ومعادن نِفاق..! لا أختار ذلك فقط لقضية وفاء أو برور أو ردّ جميل، ولكن لأثبت لأعداء اليهودية - ويا ما أكثرهم ! أن اليهود أوفياء وأنهم معترفون بالجميل... إن التسامح يجب أن يقابل بما ينبغي...»



الجالية المسيحية في خدمة الدولة المغربية على الصعيدين الداخلي والخارجي

- استقدام المغرب لبعض الافرنج للإستفادة من مساعدتهم ـ علي بن يوسف بن تاشفين أول من استعان بالموظفين الأجانب ـ الموحدون يعرضون الإسلام على من يريد البقاء تحت سماء المغرب ـ اعتناق الإسلام من طرف عدد من القواد المسيحيين ـ الكتائب المسيحية بالمغرب في عهد الرشيد الموحدى ـ بناء الكنيسة بمراكش ـ بنو مرين يعتمدون على الخبرة الأجنبية ـ بيرنيس قائد الحامية الفرنجية التابعة ليغمرا سن في تلمسان ـ كاليكوص سفير أبي يوسف ـ قزمان سفير ملك قشتالة إلى المغرب يعرض خدماته على العاهل قبل أن يعود إلى اسبانيا.

- أمير برتُغالي بطنجة ـ رعايا من أراغون في المغرب ـ دولة الوطاسيين والسعديين تشهد طائفة من الزوار المسيحيين للمغرب ـ عدد من النصارى يكلّفون بمهمات مختلفة في الخارج من طرف الملوك العلويين ـ التجار المسيحيون بالمغرب ـ لماذا لا يوجد مواطنون مغاربة يعتنقون النصرانية ؟ متابعة المبشّرين ـ مصرع عدد من المغامرين الذين لم يراعوا الشعور المغربي ـ بعثات المجاملة إلى البابا اقتداء بالاسلاف المتقدمين.

الجالية المسيحية في خدمة الدولة المغربية على الصعيدين الداخلي والخارجي

المسيحيون بالمغرب

لم يكن اليهود وحدهم ممن كان (المخزن) يعتمد عليهم في بعض المهمات، ولكن المغرب كان يعتمد ـ كما نقرأ من خلال هذا التاريخ ـ على بعض المعاهدين من المسيحيين ممن يؤدون بدورهم الجزية، وعلى بعض الخبراء الاقتصاديين والعسكريين وعلى بعض المتجولين والوكلاء وأهل الصناعة والجيولوجيين ممن كان المغرب يرى في الأخذ برأيهم فائدة. وهكذا نجد دليلاً آخر على تفتّح المغرب على سائر المواهب من أجل إسعاد البلاد...

وهذا يتطلب إعطاء عرض مقتضب عن الوجود المسيحي بالمملكة المغربية طيلة تاريخنا الطويل بما كان يتبعه من إنشاء أُسْقُفِيات بل ومن مصاهرات وعلاقات اجتماعية.

وقد ورد في كتاب (الحلل الموشية) أن السلطان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (500 ـ 537 = 1106 ـ 1142) ـ وأمه جارية مسيحية ـ كان أول من استخدم الفرسان المسيحيين حيث عهد إليهم

بجباية المكوس وتحصيل الضرائب في عهد المرابطين، ويستفاد من كتاب (المعيار) وجود عدد من المسيحيين بمكناسة منذ هذا العهد.

ويذكر مؤلف (تاريخ الامبراطور ألفونسو) أن تاشفين أمير الأندلس من طرف أبيه عاد إلى المغرب بعد حملة سنة 532 = 1138 ومعه كثير من الأسرى في البلاد التي دانت له بطاعتها حيث أنزلهم - وعددهم ستة آلاف - المدنَ والحصون مع الأفواج الأخرى من المسيحيين على ما يؤكد صاحب الاستقصا.

وكان من بين أسرى علي بن يوسف نبيل من برشلونة يدعى الروبيرتر (Reverter) قلّده العاهل المركز الأعلى في الجيش، واستمر كذلك يؤدي واجبه أيام حكم تاشفين بن علي (537 - 539 = 1142 - 1144) إلى أن خضعت مراكش لحصار الموحدين.

وقد سمعنا عن وجود كنيسة بمراكش منذ سنة 550 = 1155 تحت اسم سانت أولالي (SAINTE EULALIE) المحرّفة في المصادر المغربية إلى (شنطلولية).

☆ ☆ ☆

وقد رأى الموحدون في بداية الأمر أن من الأصلح فرضّ الإسلام على كلّ من يسكن تحت سماء المغرب، وهكذا نشهد عودة جماعة من المسيحيين إلى ديارهم، بينما نجد اعتناق طائفةٍ أخرى منهم لدين الإسلام وعلى رأسهم ابن الروبيرتر الذي تبوأ منصباً سامياً في الدولة حيث أرسله الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور إلى ميورقة ليتولى الحكم باسمه.

ومن الذين اعتنقوا الإسلام وعملوا تحت راية الموحدين شخصية من أسرة ملكية اسبانية تحمل اسم أبي زكريا يحيى بن كونسالفو (Consalvo) وقد نصب قائداً لفرسان الدولة وأصبح في عداد المسلمين الذين يرتدون الزّي المعروف عند الموحدين...

وعندما بويع أبو العلاء ادريس المأمون بن المنصور الموحدي الذي عرف قصره عدداً من المنتمين للدّين المسيحي لم يعبر البوغاز إلى المغرب إلا بعد أن حصل من (سان فرناندو) على كتيبة مؤلفة من اثنى عشر ألف رجل حيث بقي هؤلاء في خدمة الدولة، وسمح لهم بتشييد كنيسة في مراكش، وخول إليهم قرع الأجراس على صومعتها إلى أن ثار الأمير يحيى بن الناصر بن المنصور فهدم الكنيسة وأجهز على عدد من جنود الإفرنج...

إلا أن الأمور لم تستمر على هذا الحال حيث نجد الرشيد بن المأمون بن المنصور يعود إلى الحكم بمساعدة والدته الأميرة حباب (وهي فرنجية الأصل أيضا) وهنا تعود الكتائب الأجنبية إلى ما كانت عليه من الاعتماد عليها سواء في إسكات المتمردين داخل المغرب أو قمع الانفصاليين في تلمسان أو المتطلعين من أمراء بني مرين...

ولابد أن نشير إلى الرسالة التي بعثها البابا كريكوار التاسع بتاريخ 15 شعبان 630 = 27 ماي 1233 إلى عبد الواحد الرشيد لما أظهره من عطف على الأسقف ورجال الدين في مراكش. إن البابا يقدر باسم الكنيسة صنيع الرشيد ويأمل أن يأتي اليوم الذي يفتح فيه عينه للنور الصادق ! ويضيف البابا إلى ذلك قائلا : «فإذا كنت تريد أن تصبح عدوّاً للمسيح لا صديقاً له فليس في وسعنا أن نسمح للمسيحيين بالعمل في صفوفكم» !.

ولا مراء أن عدد هؤلاء كان عظيماً في مراكش حيث أغراهم التسامح الديني بل والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها على نحو ما نراه في رسالة بعثٍ بها البابا إينّوصانت الرابع إلى عليٍّ بن المامون الملقب بالسعيد يقول له فيها :

((أهنئكم كثيراً على اقتفائكم لأثر أجدادكم الذين منحوا الكنيسة في مراكش كثيراً من الامتيازات، فأنت لم تحم الكنيسة من هجمات

أعداء الديانة المسيحية فحسب بل إنك ضاعفت امتياز المسيحيين ونأمل أن تزداد حمايتك للرعايا المسيحيين المقيمين في ولايتك.

ثم يطلب البابا من السعيد أن يحتلّ النصارى بعض الحصون ليحتموا بها مع أسرهم ضد الغارات... «ولقد ثبت المسيحيون وأفلحوا في الدفاع عن دينك وعن مملكتك... وتعلمون جيّداً أن عدداً كثيراً منهم سقطوا صرعى في ميدان القتال أكثر من مرة، ونطلب منكم أن تعهدوا إليهم بحراسة بعض القواعد البحرية ليسهل عليهم ـ عندما تستدعي الضرورة ـ الخروج لطلب نجدة جديدة لمساعدتكم» !.

ومع أن تفكير البابا كان يتجه إلى أن هذه القواعد البحرية لا يجب أن تنفصل عن حكم السلطان وإنما سيقوم النصارى بأعباء الدفاع عنها ليس غير، فإن المعارضة المغربية كانت تنتقد على الموحدين هذه السياسة. ومن المعلوم أن الاسقفية (L'Evêque) الوحيدة المشرفة على الحركة المسيحية بإفريقيا الشمالية إنما كانت توجد بمراكش الأمر الذي كان باعثاً على إرسال خطابات التقدير والشكر إلى العاهل المغربي[1] !.

ومن المعروف عن المرتضى اعتماده أيضاً على الخبرة الأروبية في الشؤون العسكرية، ومراسلاته السياسية مع البابا إنوصانت الرابع. وفي عهد المرتضى هذا تجددت اتصالات البابا إينوصانت حول المواضيع التي طرقها البابا مع السعيد حيث نجد هنا مبعوثا باباوياً يحمل إسم (Lope F D'Ayn) وحيث نجد المرتضى يبعث برسالته المشهورة إلى البابا بتاريخ 18 ربيع الأول 648 = 20 يوليوز 1250 يطلب إليه «أن يتخيَّر سفراءه من أهل العقل الراجح والسمت الحسن».

وبتاريخ 11 ذي الحجة 647 = 17 مارس 1250 ألَح البابا إينُوصانت على المرتضى في إنجاز المطالب المتقدمة مضيفا إلى ذلك أنه

1) De Mas Latrie : l'Afrique Septentrionale P. 132.

سيمنع المسيحيين من الدخول إلى مراكش إن لم يقبل تلك المطالب وأنه سوف يخاطب أسقف هذه المدينة في وقف مساعدة الجند للسلطان !!.

ومع أن المرتضى لم يستجب لمطالب البابا فقد كف هذا عن الاستمرار في مثل تلك المطالبات واستمر المسيحيون ـ بقيادة دون لوب (Donlope)[2] يعملون في جيش الموحدين بالمغرب، وأيضا ومع الاميرين المنفصلين عن الحكم المغربي، سواء في تونس أو تلمسان !!.

☆ ☆ ☆

وعندما طرق بنومرين أبواب مدينة فاس كانت بها طائفة من المسيحيين تقدر بثلاثمائة، وبتمكنهم من الحكم عمد أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق إلى إعداد جيش منظم شمل فلول جند الفرنج لمواصلة عملياته ضد الحركة الانفصالية في تلمسان، حيث أسر سنة 670 =1271 برنيس (BERNES) قائد الحامية الفرنجية التي كانت أيضا وراء يغمراسن ـ بعد بدنجيل، لاضعاف السلطة المركزية...! وفي عهد بني مرين سمعنا عن تخصيص معسكر (الملاّح) لسكنى الجالية المسيحية[3]، ولا ننسى أن السلطان أبا يوسف، وقد انصرف إلى إرجاع سيادة المغرب على سبتة، واستخلاصها من سيطرة ملك غرناطة ـ تقدم إلى خايمى الأول صاحب برشلونة سنة 1274 حيث أمضيت اتفاقية بتاريخ 8 ،ونبر تنص على أن ملك أراغون يعير السلطان عشر سفن وخمسمائة رجل في مقابلة تعويض مالي مناسب... وفي مقابلة تشييد كنيسة للقيام بالشعائر على ما ينقله دوماص لاتري.

2) يظهر أن لهذا القائد المسيحي صلة بقائد النصارى المعروف بذى اللب الذي ورد ذكره في ابن عذاري في معرض التوجه إلى السوس في حملة حربية سنة 660 = 1262، البيان المغرب، القسم الثالث ص 435.

3) (الملاح) كما نرى حارة كان يسكنها اللفيف الأجنبي إلى جانب اليهود ثم أصبحت كلّها سكنى لليهود.

وقد كان رئيس الجند الفرنج على عهد أبي يوسف، يحمل اسم كارسي مارتينيز دي كَاليكَوس (Garci Martinez de Gallegoz) وهو أحد السفراء الذين أرسلهم السلطان إلى الأندلس سنة 1278 ليطلب إلى الاسبان فك الحصار على الجزيرة الخضراء.

وقد كان أحد سفراء ملك قشتالة إلى أبي يوسف هو الفونسو بيريز دي قُزمان (A.P. de Guzmãn) الذي لم يلبث أن التحق ببلاط العاهل المغربي صحبة خمسين من أصدقائه وعشرة من خدمه يعرضون خدماتهم على أبي يوسف حيث أصبح قزمان قائدا لحرس القصر قبل أن يؤلف من الأسرى المسيحيين جيشا قوامه ألف وستمائة رجل ميزهم بوضع علامة الصليب الأبيض والأحمر على أسلحتهم في الصدر والظهر..!

وعندما ارتأى الفونسو العاشر سنة 681 =1282 أن يفتح إشبيلية استنجد بأبي يوسف يعقوبب بن عبد الحق، بواسطة رسالةٍ يقول عنها بارّانْفيس مالُدونادو (Barranfes Maldonado) : إنه رآها بين مخطوطات الدوق دي مدينة، وقد ورد السفراء الاسبان على فاس وقدّمهم قُزمان إلى أبي يوسف حيث أنجدهم العاهل وأقرضهم ستين ألف مثقال في مقابلة رهن التاج الموروث عن سلفه ! ولم يلبث العاهل أن خف لنجدة الفونسو ضد ابنه شانصو بمعية القائد قزمان، وبتولي يوسف بن يعقوب الذي لم يكن على اقتناع من اطلاق اليد كاملة للكتائب الأجنبية، وجدنا قزمان يلتحق باسبانيا عام 690 = 1291، ومع ذلك فقد تبقّى من جند النصارى بالمغرب عدد غير قليل يعمل ضمن الحدود التي أقرها العاهل الجديد بالرغم من الانتقاد الموجّه من بعض الناس. ولدى سنة 693 = 1294 ألجأت العواصف البحرية الامير دون خوان، وقد كان غادر البرتغال إلى فرنسا، إلى الرسو في مدينة طنجة حيث رأيناه يعرض رغبته في الدخول في طاعة العاهل الذي لم يتردد في إرسال المؤونة والجياد، وهناك اتفق معه على محاصرة طريف.

وفي سنة 708 = 1308 قدم إلى مملكة أراغون أبو العباس صحبة برناردوسيكي (Bernardo Segui) من قبل السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله ليعرضا على أراغون مشروعا لطرد ابن الأحمر ملك غرناطة من سبتة.

وسقطت سبتة سنة 709 = 1309 بمساعدة الأسطول والفرسان الأرغونيين تحت إمرة الفيسكوند دي كاسْتِلْنو (Gastelnou) وولّى بيرناردوسيكي (Segui) عليها وقد استمر رعايا ملك اراغون ممن جاءوا بقصد احتلال سبتة يعملون تحت رعاية العاهل المغربي... وهكذا نرى أن الجنود النصارى دأبوا يعملون في المغرب خلال حكم أبي سعيد عثمان وابنه أبي الحسن عليّ، بل إن الأمر استمر على ذلك أثناء القرن الرابع عشر وجزءاً من القرن الخامس عشر، وقد تحدثت كتب التاريخ عن وجود زهاء خمسين قشتاليا بالمغرب حوالي سنة 788 = 1386 حيث نجدهم يتوسلون لسلطان المغرب أبي العباس بن أبي سالم لكي يسمح لهم بزيارة بلادهم وعوائلهم ثم نجد العاهل المغربي يرضي طلبهم...

☆ ☆ ☆

وقد استمر الحال على ما هو عليه أيام دولة الوطاسيين حيث شاهدنا القسيس نِيكُولاَ كلينار N. Clénard يقيم بفاس متصلاً برجال الفكر فيها وحيث شاهدنا مناظرةً فلسفية ساخنة بين أحد رجال الكنيسة أندري وبين علماء فاس...

واستمر الحال على هذا المنوال على عهد السعديين حيث نراهم لا يحجمون عن الاستفادة من الأجانب الذين يوجدون بديارهم، ويكفي أن نستعرض تاريخهم الدولي بتفصيل لنرى عدد الأسماء الأجنبية التي كانت تظهر في المذكرات والسجلات، وقد قرأنا عن اقتران الأمير محمد الحران ابن محمد الشيخ بالأميرة البرتغالية دونا فانسيا، وسمعنا عن درجة الحرية التي كان يتمتع بها الأسرى المسيحيون والتي يفسرها تمكنهم من وضع كمين للمصلين بجامع المنصور بمراكش سنة 981 = 1573 !.

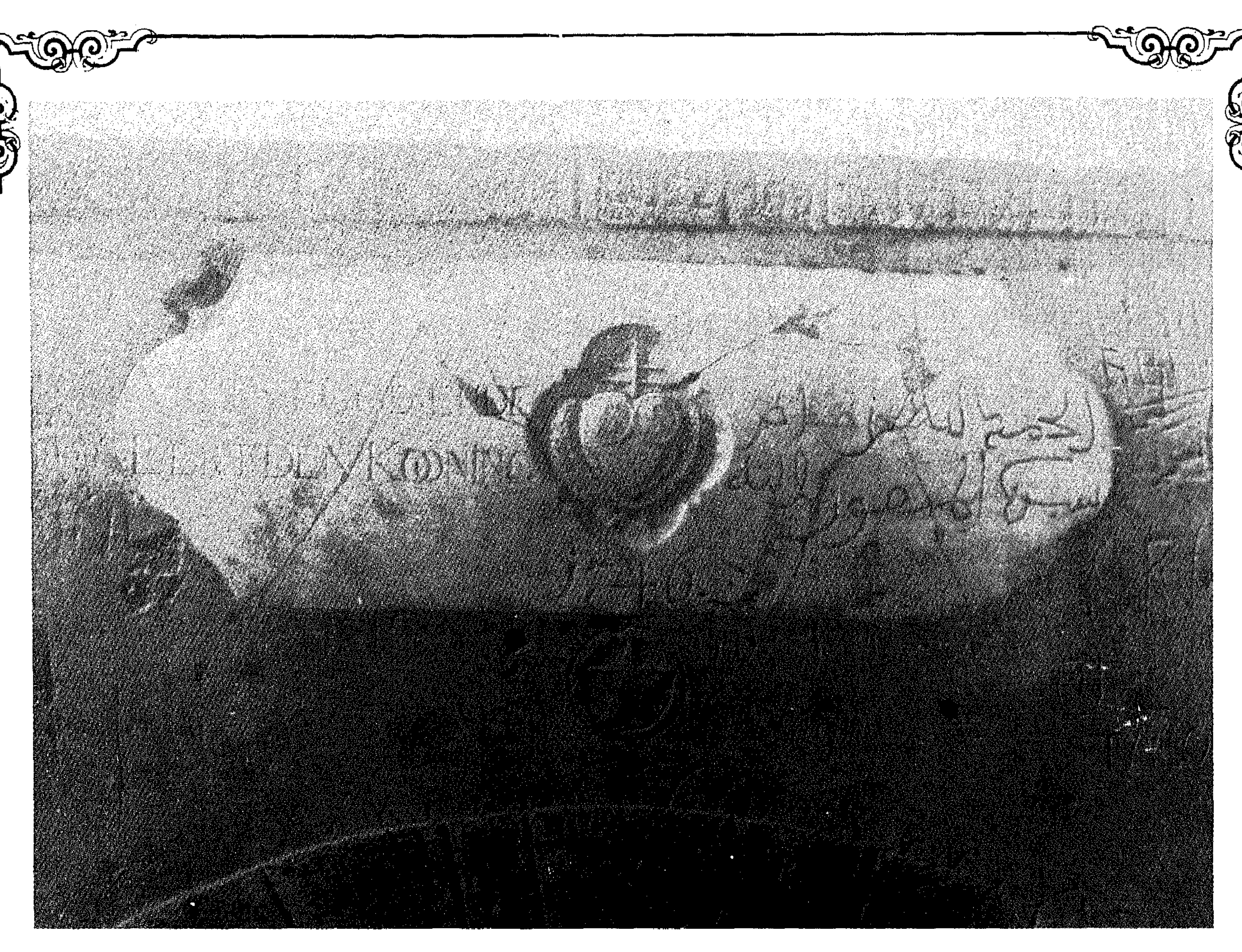
وقد كانت «المليشيات المسيحية» في عهد المولى زيدان - وفيها من الإنجليز مائتان - خاضعةً لقيادة القابطان الإنجليزي جوهن جيفار الذي كان يساعده القابطان سميث وهو من ألمع مهندسي أوربا على عهده.

وقد كان الأمر كذلك بالنسبة للدولة العلوية التي رأينا اعتمادها على استشارة بعض الخبراء في قطاعات الجيش والأسطول والهندسة والشؤون الدبلوماسية، علاوة على بعض الذين كانوا يقيمون بكثرة في المغرب من مختلف جهات أوربا أطباء وعلماء...

وقد قرأنا عن اعتماد الملوك العلويين على طائفة من الفرايلية المسيحيين، في أمر الوساطات مع البلاطات الكاثوليكية، وفيهم عدد من رجال الدّين الذين كانوا يبلغون الرسائل المتعلقة بافتكاك الأسرى أو علاج المشاكل الطارئة.

وعلى عهد السلطان المولى إسماعيل الذي أثرت عنه دعوته لبعض ملوك أوربا لاعتناق الإسلام، شاهدنا كنائس بمكناس وفاس وتطوان وآسفي وأكَادير، كان المسيحيون يمارسون فيها شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية بمن فيهم الأسرى، وكان هناك عدد من البعثات البروتيستانية في مختلف جهات المغرب، وعدد من التجار المسيحيين الذين كانوا مستشارين في البلاط من أمثال إتيان ري (ETIENNE Rey) الذي كان يحظى مع زميله اليهودي جوزيف بوزاكلو بعطف العاهل المغربي محمد الثالث... كما عرفنا عدداً من الأطباء والقواد العسكريين بأسمائهم من مختلف الجنسيات ممن كانوا رهن إشارة البلاط العلوي، وممن كانوا أو بعضهم على الأقل يستفيدون من مقامهم بالمغرب ليحسنوا من معلوماتهم في اللغة العَربية.

وقد استمر الموقف على هذا النحو طيلة تاريخ العلويين... وهكذا نرى أن المغرب ظل يفتح صدره لكل من يريد العيش في ظل نظام الدولة وقوانينها...



المنقوشة الفلامنكية الوحيدة التي توجد بالمغرب على باب (أكَادير إيغير) ـ القصبة ـ لقد نقشت إلى جهة اليمين هذه العبارة باللغة العربية : «الحمد الله، على خاطر / سيدنا المنصور بالله» بينما كتبت إلى جهة اليسار هذه الكلمات في سطرين كذلك : Konig VREEST Godende / DEN «خف ربك وعظم ملكك».

ويفصل بين الجملتين شكل شبه بيضي محفور وسط الرخامة المذكورة وبداخله صورة قلب رسم في أعلاه بالحرف اللاتيني : حرف السين مرتين هكذا. S.S، وقد ارتبط بالقلب من أعلى خط عمودي يقاطعه خطان أفقيان يشبهان صليب (اللُّورين)، وقد نقشت تحت الحرفين المذكورين نجمة صغيرة سداسية، وحيط بالقلب ذات اليمين وذات اليسار رسم سنبلتين على نحو ما نرى اليوم في شعار الأُمم المتحدة. والرسم ـ حسب الدكتور صلوت Slot (هولاندا) رمزٌ تجاريّ على ذلك العهد.

وتحت هذا الشكل مباشرة، تاريخ 1746 أي ما يوافق سنة 1158 ـ 1159 وهو التاريخ الذي أسند فيه السلطان مولاي عبد الله الخلافة لولده الأمير سيدي محمد، على مراكش والجنوب المغربي.

د. التازي : أكَادير إيغير من خلال الرخامة المنقوشة على باب القصبة.
محاضرة بكلية الآداب، أكَادير ـ يوم 10 ـ 4 ـ 1986.

ولا ننسى بهذا الصدد أن العلاقات بين المغرب وبين البابا تعرضت أحيانا للتدهور بسبب إقدام البابا على مخاطبة عاهل البلاد بما يشبه أن يكون دعوة لاعتناق المسيحية في مقابلة تقديم المساعدة العسكرية، غير مكتفٍ بإنشاء الكنائس المستقلة التي تضرب عليها الأجراس.

وبهذا نفسر حادثة الفرانسيسكان الخمسة الذين أرسلوا من طرف البابا فرانسوا لغرض تمسيح المغاربة فلقوا حتفهم يوم الخميس تاسع ذي القعدة 616 = 16 يناير 1220، لقد كانوا يقومون في أزقة مراكش بالتبشير عَلَناً وبقذف نبي الإسلام...! كما نفسر مصرع سبعة آخرين بعد بضع سنوات من الحادث الأول، لقد اقتنع بعض الأساقفة بأنّ من السهل تحويلَ المغاربة عن دينهم !!

وهكذا، ففي كل حركة ضد المسيحية نجد أن الأمر يتعلق بإثارة مشاعر السكان من طرف بعض المغالين الذين لم يخل منهم زمان ولا مكان ! ومع هذا نلاحظ أن الحكومة كانت تعمل جاهدة على مقاومة التطرف أيّاً كان مصدره مما تشهد به الرسائل المتبادلة بين البابا والعاهل المغربي وما يشهد به أنواع العقاب الصارم الذي كان العاهل المغربي ينزله بالمتعصبين العشوائيين... وقد ظل المغرب بالرغم من استفزاز بعض المبشرين المتعنتين محترِما للديانة المسيحية، الأمر الذي يتجلى بصفة بارزة في أن الملوك المغاربة، وعلى رأسهم العاهل العظيم المولى اسماعيل، المعروف بدعوته ملوك أوربا لاعتناق الإسلام ـ كانوا يوافقون «الاسيرات المسيحيات» على البقاء على دينهم متى رغبن في ذلك... وكانوا يمنحون الفرانسيسكان امتيازات لم يجرأوا على المطالبة بها... وقد شاهدنا البعثة الهامة التي أرسل بها الملك الحسن الأول إلى البابا ليون الثالث ابتهاجاً باليوبيل الكهنوتي «لتجديد المحبة والمودة التي كانت بين أسلافنا المقدسين وبين الرهبان ورؤسائهم...» على حد تعبير الرسالة الملكية إلى البابا :

((إن أسلاف مولانا - تقول الرسالة الملكية - كان بينهم وبين أسلافكم ما لا يزيد عليه من المحبة والصحبة حتى أنهم كانوا يعطونهم الحرية وكانوا يعاملونهم ويعينونهم على أمور دينهم، ولذلك اقتضى نظر مولانا أن يقتدي بأسلافه الكرام وأن يوجه سفيراً لرئيس أساقفة الملة النصرانية، الجالس على كرسي الحوارية مصحوبا بكتابٍ شريف وهدايا وتحف مرفوعة إلى البابا...)).

وهكذا فإن الموقف المغربي كان يتلخص في الترحيب بإقامة المساعدين المسيحيين في بلاده مع توفير الحرية لهم في ممارسة شعائرهم، ومن جهة ثانية فإنه كان يحظر النشاطات التبشيرية وبخاصة في الجهات النائية من البلاد، ومن جهة ثالثة فقد كان يشترط اعتناق الإسلام على من يريد الحصول على الجنسية المغربية من المسيحيين.

ومن أجل كل هذا نلاحظ أنه لم يبق هناك ما يستدعي المكث في بلاد المغرب لمن لا يخضع لمقتضيات المواطنة... يضاف إلى هذا أن موطن السيد المسيح يوجد في بلاد الشام على مقربة من العواصم المشرقية، القاهرة ودمشق وبغداد وليس على مقربة من ديار المغرب.

ومن هنا اختار المسيحيون من تلقائهم ترك بلاد المغرب، وبذلك ضمنت البلاد وحدتها الدينية التي وفرت عليها كثيراً من المصاعب والمتاعب.



الأَمثال والتعابير في الاستعمال السياسي

1) أُتركوا الترك ما تركوكم.
2) إذا تخاووا الجنوس، مابقى في الغرب جلوس !
3) التجار أَلسنة الزمان !
4) حالته كحالة فيرناندو !
5) رامي تلمسان جاء يضرب الباكورة أخطأ الجنان !
6) الراس اللي ما يدور كدية !
7) الله يخرّج من كل بلاد جوادها.
8) فعايل الكَريكَ !
9) العدول من السماط والسلاطين من البلاط !
10) القاعد على الجرف محسنٌ للسباحة !
11) قطران بلادي ولا عسل البرّاني.
12) قيّدْني نبُوشيك !
13) صحبة العلوج حرثة المروج !
14) السلطنة لها أسرار.
15) شروط الخُزَيرات...

الأَمثال والتعابير في الاستعمال السياسي

وكما غزا المثل العربي والشعبي الميادين الصناعية والتجارية والفلاحية والعسكرية والتربوية... فقد وجدناه كذلك يقتحم البيئة السياسية والأُسرة الدبلوماسية، وهكذا وقفنا على منجم غني بالأَمثال الحكيمة والتعابير الجميلة مما ظهر من استقرائنا لمجريات الأَحداث بالمغرب.

ولقد ضبطنا أكثر من مائتي مثل وتعبير من خلال ما مر بنا من نصوص، فيها ما كان مقتبسا من آية كريمة أو حديث شريف أو حكمة سائرة، كان منها على سبيل المثال العبارات التالية، وهي مرتبة على الحروف الهجائية :

ونشير إلى المثل الذي يصور علاقتنا بالأَتراك المجاورين، وكانت مبنية على المسالمة والحذر :

1) «أتركوا الترك ما تركوكم».

وفي معرض تصنيف الدول، الذي كان في كثير من الأَحيان نتيجة تتبع ومراقبة واختبار، سنقرأ عن المثل الذي يقول :

2) «أدهى الناس ثلاثة : الأَنجليز وصياد القرب ومولاي العربي الدرقاوي[1]» !

---

1) د. التازي : دهاة العالم ثلاثة مجلة اللقاء المغربية يوليه 1970.

والقُرب نوع قوي من السمك (Le maigre ?) يكون على صياده، بعد أن يشعر به وقع في الشص، أن يمدد له في الحبل ساعات طويلة حتى حتى يُتعِبه قبل أن يحاول إخراجه، أَما الشيخ الدرقاوي فهو شخصية صوفية بلغت شأواً عظيماً في وسائل استمالة المريدين إليها، حيث يذكرون عدداً من الأَمثلة على ذلك...

وكذا نشير إلى المثل الذي يفيد أن السر في عدم احتلال المغرب فور احتلال الجزائر يرجع لتضارب مصالح الدول الاستعمارية وهو المثل الذي يقول :

3) «إذا تخاووا الجنوس ما بقى في الغرب جلوس» !

يعني لو كانت الأَجناس (أي الدول) أمكنها أن تتآخى فيما بينها لما استقر للحكومة المغربية جلوس بالبلاد !.

4) «إذا طلعت بسلّم فكسره» !

حكمةٌ جرت على لسان أَحد السياسيين المغاربة، يعني إذا وصلت إلى هدفك فاقطع الطريق على غيرك !

5) «إذا كذب السفير بطل التدبير».

6) «إذا كنت فضولي فكن في جهة المخزن» !

7) «إذا مشى الوجه ما بقت للقفا حرمة».

ورد في رسالة إلى مبعوث نمساوي. وهو يعني أنه إذا غاب المسؤول الرئيسي سقط أتباعه !

8) «الألمان إذا دبر، والأنجليز إذا بحر، والفرانسيس إذا جذّر»

كـان يضرب مثـلاً لتفكير الألمـان وأُسطـول الإنجليـز، وتمكن الفرانسيس.

9) «إن الحديث جانبٌ من القِرَى...»

أي إن ملاطفة الناس بالمحادثة يعتبر نوعاً من إكرامهم إن لم يكن أفضل وسيلة للإكرام.

10) «إن للمصالحة وقتاً ينبغي للمرء حفظه !»

ورد على لسان أحد القادة المغاربة في الأندلس.

11) «أصيلة صغيرة ومحاينها كبار !»

للمثل صلة بالعدوان البرتغالي على المدينة أيام الوطاسيين.

12) «إنما يخاف الفيل من الفار !»

وردت في مذكرات السفير ابن عثمـان... يعني أن على الرئيس أن لا يتهاون بتشغيب صغار مرءوسيه، على نحو الفيل الذي يحتاط من دخول الفار إلى خرطومه أو أذنه !!

13) «أهل مكة أدرى بشعابها...»

أورده السلطان زيدان السعدي في خطابه الهامّ لأحد زعماء المعارضة من الذين كانوا يطمحون للحكم ويتسترون وراء التبرع بالنصائح !

14) «باتْ في الحَبْس ولا تباتْ في الكاغيط»

الكاغيط : الورق والقصد هنا العقد أَو الاتفاقية، والمثل يحذر من الالتزام أو التوقيع على عقد قبل إعمال الروية والتفكير، أي إن من الأَفضل لك أن تقضي ليلتك في السجن دون أن تقضيها وقد وقعت على كاغيط قد يلزمك ما لاترضاه.!

15) «بينهم ما بين موسى بن العافية وأولاد مولاي إدريس !»

يشير المثل لما مرَّ بين الفريقين من حروب طاحنة !

16) «التجار أَلسنة الزمان»

ورد في رسالةٍ لأَحد الملوك السعديين إلى ملك في أُروبا...

17) «تعرَّت الحُسَينيَة...»

هذا مثل له صلة بالعلاقات بين السنة والشيعة فإن (الحسينية) تعني تمثيلية كانت تنظم بمناسبة عاشوراء إحياء لذكرى استشهاد الحسين رضي الله عنه، ومعنى المثل : اتضحت الأُمور !

18) «تيخيّط بينهم بخيط أبيض !»

19) «تيلاقي الحوت في قاع البحر مع النسر في رأس السما !»

يضرب للسفير الناجح الذي يصلح ذات البين بالرغم من الفروق الواسعة بين الطرفين، وردت في رسالة دبلوماسي.

20) «جاء يطبّه أعماه !»

ورد هذا المثل في بعض الرسائل التوجيهية لأحد السفراء المغاربة عندما كان الملك يحذره أن يقع في حبالة المفاوضين الأجانب ويعود إلى البلاد بالحلول الأكثر سوءا.

21) «حالته كحالة فيرناندو !»

الأمير البرتغالي الذي توفى أسيراً بفاس بعد محاولته احتلال طنجة !

22) «حج وجاز على برقة»

برقة شرق طرابلس الغرب، وكان المرور بها - إلى الحج - من الصعوبة بمكان، إذا أراد الناس أن يعبروا عن حكمة شخصٍ مّا وخبرته وتجربته قالوا : إنه حج، وليس فقط ذلك، ولكنه وصل إلى الحجاز عبْر برقة !!

23) «حصدناهم بالمناجل.!»

المثل يشير إلى الأُهزوجة التي سارت على كل لسان عندما استعمل المغاربة منا جلهم في طرد الغزاة النمساويين من ثغر العرائش... حيث كانت الطليعة من المتظاهرين تقول : «حصدناهم بالمناجل» فتردد المؤخرة : وبالمناجل حصدناهم !

24) «الخدمة مع النصارى ولا الجلوس خسارة !»

25) «ذهب الحمار يطلب قرنين فراح بلا أذنين !»

رددت هذا المثل رسالة ملكية، وهي تحذر أحد المبعوثين المغاربة من أن يغتر بدسائس الطرف الآخر فيحمله هذا أعباء أكثر من التي راح المبعوث المغربي لغرض التخلص منها... لقد ضربت الرسالة مثل الحمار الذي ذهب إلى الغاب ليبحث عن قرنين يزيّن بهما رأسه فصادف أن تعرض لهجوم أحد الحيوانات المفترسة فقطع له أذنيه... فعاد بلا أذنين !!

26) «رامي تلمسان جا يضرب الباكورة فأخطأ الجنان !»

يشير المثل للتنافس المستمر الذي كان ذات يوم بين مملكة تلمسان ومملكة فاس حيث نجد هذه تنعت تلك ببعض الأوصاف على غرار هذا المثل الذي يعني : حاول أن يرمي شجرة الباكور فأخطأ البستان كله يعني أنه لا يحسن الرماية !

27) «الرأس اللي ما يدور كدية !»

يعني أن السياسة تقتضي من القائد أن يغير موقفه من بعض القضايا حسب الظروف، فإن الرأس الذي لا يلتفت يمينا وشمالا معدود في الكديات أو الصخرات التي لاتتحرك !!

28) «رأي الشيخ خير من جَلّد الغلام...!»

لأن القوة ليست هي كل شيء.

29) «طلانا بالعسل وخلاّنا للذباب !»

الإشارة إلى أحد السياسيين المغاربة وقد تورط في إبرام اتفاقية جائرة، أي إنه موّه علينا الحقيقة وعرّضنا للأطماع !

30) «لا تترك حاضرا لغائب»

من مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين.

31) «لا تكونشي روسي !»

يضرب مثلا للمعاند الذي لا يلين.

32) «لا محبة إلا بعد عراك»

ورد هذا المثل على لسان أحد رجالنا السياسيين عندما تطورت العلاقات بين المغرب وبين دولة ثانية إلى حالٍ من التحسن بعد أن اصطدم الجانبان وراشق احدهما الآخر.!

33) «الله يخّرج من كل بلاد جوادها»

وعندما يردد المغرب هذا المثل فإنه يعني أن الذين يعهد إليهم بمهمات في الخارج ينبغي أن يكونوا من أجواد الناس وعقلائهم حتى يعطوا المثل لمن يتصلون به، عن بلد كريم عظيم !

34) «الله يعبيك لمالطة لا فراش، لا غطا !»

له أصل طريف يذكر عند الحديث عن علاقة المغرب البحرية مع دُوبْرُوفنيك (يوغوسلافيا).

35) «لسان مالطي ما هو عربي ما هو عجمي»

يدل على تردد المغاربة على مالطة ومعرفتهم بأحوالها.

36) «اللي ما عندوش العسل في أركانه، يديرو في لسانه..!»

يضرب للمكايسة في القول خاصة عندما تكون الوسائل المادية محدودة.

37) «اللي غلبك وخلاّك حي، عمل فيك خير !»

يتردد عند نهاية الحروب ومضاعفاتها...

38) «ليست تملك الأَقطار إلا بالبنيان والسيف !»

وردت على لسان أمير مرابطي في الأَندلس.

39) «ليس الشفيع الذي ياتيك مؤتزراً
مثل الشفيع الذي ياتيك عُريانا !»

استشهد به السفير ابن عثمان عندما توسل بزوجة ملكٍ من أُوربا ليقضي مهمته السياسية.

40) «مات سيدنا ! الله ينضر سيدنا !»

وقد دأبت التقاليد المغربية على عدم دفن عاهل راحل إلا مع الإعلان عن اسم السلطان الجديد، وهكذا فلا يذكر السابق إلا مقرونا باسم اللاحق، تعبيراً عن الاستمرار وتأكيداً للاستقرار.

41) «ما أشبه اليوم بالأَمس !!؟»

42) «ما قدوش الفيل زادوه الفيلة !»

ضرب عندما اهدى لملك المغرب فيل من أحد ملوك إفريقيا، ثم أتبعه بفيلة في الوقت الذي كان فيه علف الفيل يسبب بعض الكلفة !

43) «مثل خصية العود ما تيوصلها لا مهماز ولا مشحط !»

العود : الفرس، والمشحط : السوط، يعني أنه صعب المنال !

44) «المخزن تيريّب الجبال بثقيب الإبرة !»

أي الحكومة الرشيدة هي التي تستطيع أن تهد الجبال تدريجياً عن طريق إبرة !

45) «المُلك رحِم...»

وردت في رسالة لملك من المغرب إلى ملك آخر...

46) «من طنجة لبر الكلب...»

أي لبلاد الإسكيمو، ويقال إن للمثل علاقةً برحلة ابن بطوطة.

47) «ومن لم يصانع في أُمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم !»

48) «من علامة الإذن التيسير»

وقد ورد في بعض الرسائل المخزنية إلى أحد السفراء هذا التعبير الحكيم الوارد في هذا المثل : أي أن مما يتفاءل به في الإقدام على أَمر من الأُمور أن تتيسر أَسباب الأَخذ به، فإن ذلك يكون بمثابة إشعارٍ بسلامة المنطلق.

49) «الناس على دين ملوكهم»

يقال في معْرض التجاوب بين الشعوب وقادتها... ويقولون أيضا «السلطان على دين الرعية» فكلٌّ يعكس شعور الآخر صلاحاً وطلاحاً !

50) «صحبة العلوج حرثة المروج !»

يعني أن مخالطة الأجانب في التجارة مفيدة مثمرة كحرث المروج !

51) «فلوس النصارى تيمشيوا في الضد والعناد - وفلوس اليهود في السبت والأعياد - وفلوس المسلمين في الحج والجهاد»

52) «فقيه حميان، قرأ في البراءة سبعة أيام، وقال لهم : هذا الخط عيان !»

حميان : قبيلة على الحدود بين المغرب والجزائر، والمثل يعني أن مثقف حميان، قضى سبعة أيام يحاول قراءة رسالة، ولما عجز قال لهم : إن هذا الخط ليس على ما يرام !! وهو من الأمثال المعبرة عن التنافس بين المغرب الأقصى والأوسط.

53) «فعايلوا فعايل الكَريكَ !»

أي اليونان، وللمثل صلة بالصراع العثماني اليوناني...

54) «العداوة، ثابتة والصواب يكون»

تردد هذا المثل على لسان أحد الملوك في باب ما يجب من مجاملات ومصانعات بالنسبة للغير مهما كانت الظروف والصروف، يعني أنه مهما بلغت درجة العداوة بين طرف وآخر، فإن (الصواب) - ويعني بالتعبير المغربي المجاملة والأدب - لا بد أن يكون...

55) «العَزْمُ له بركات»

في القرن الثامن عشر جاء في رسالة لوزير مغربي إلى وزير فرنسي ترديد هذه الحكمة، أي إن الإرادة القوية من شأنها أن تولد طاقات يبهر عطاؤها الرجل العادي.

56) «علّقَ البنديرة !»

الراية، والمعنى أنه استسلم أَو انتصر حسب الأَحوال.

57) «العدول من السماط والسلاطين من البلاط !»

يضرب في أن لكل مركزه ورتبته.

58) «القادم يزور»

ردد هذه الحكمة بعض الدبلوماسيين المغاربة وهو يزور بلادا أُخرى، أَي إن على القادم أن يقوم بزيارة رجال البلد قبل أن ينتظر منهم هو زيارته عملا بالحكمة المعاكسة «القادم يزار»، فإن هذا مقام وذاك مقام... ولكل مقام مقال !

59) «القاعد على الجرف محسن للسباحة !»

يعني أن البعيد عن موضع المسؤولية يكثر انتقاده ويتبرع بنصائحه !!

60) «قطران بلادي ولا عسل البراني !»

يضرب مثلا لحب الوطن مهما كان !

61) «القليل مع العزم الصادق كثير»

من رسالة اعتماد ابن منقذ لدى المنصور الموحدي.

62) «وقولوا للناس حسنا...»

63) «قيّدْني نبُوشيك»

«أي انعتني بالقائد انعتك بالباشا» ! يعبّر عن المجامنة التي اعتاد أصحاب السعادة : الدبلوماسيون، تبادلها فيما بينهم عندما يلتقون في مناسبة من المناسبات !!

64) «السلطنة لها أسرار لابد منها وسياسة ينكر ظاهرها»

من الخطاب الهام الذي وجهه زيدان لبعض رجال المعارضة...

65) «شروط الخزيرات»

هذه الكلمة القصيرة عبرت بها الجماهير الشعبية عند امتعاضها من نتائج مؤتمر الجزيرة الخضراء، نتيجة للظروف القاسية لهذه الاتفاقيةالدولية، وأصبحت الكلمة تعني دلالات الشطط والحيف والظلم، فإذا سمعنا : فلان شرط على فلان شروطا الخُزَيرات، فإن ذلك يعني أن الأول لم ينصف الثاني !!

إن هذه الأمثلة الواردة لتمثل بعضا مما يكونه ملف الأمثال والتعابير الذي نجعله أحد ملحقات هذا التاريخ الدولي...

المائدة المغربية في حديث الواردين...

- □ المطبخ المغربي كمظهرٍ من المظاهر الحضارية ـ المغرب بلاد المائدة المستديرة ـ تناول الطعام بأطراف الأصابع الثلاثة.
- □ المؤلفات المغربية القديمة عن الطبيخ المغربي :
- □ صحون معروفة : الكسكس ـ الحريرة ـ البسطيلة.
- □ صحن الكامل ـ التفايا ـ البورانية ـ المروزية ـ الصنهاجي
- □ اللّمتونية ـ الاسفنج ـ الفواكه.
- □ المشروبات : الرب ـ أنواع الحلويات ـ كعْب الغزال
- □ المجبنات ـ المغاربة والتوابل.
- □ طريقة (البوفي) في الاستعمَال المغربي القديم.
- □ أتَاي كمشروب وطني ـ مبدأ ظهوره ـ الطقوس والأدوات الخاصة بالشاي.
- □ أدب الشاي ـ آراء الاطباء في النعناع.
- □ العطور في الحياة المغربية ـ قطّارات الورد والزهر ـ استهلاك المغاربة للعود القُماري... وحَصَى لبان أرض عُمان.

المائدة المغربية في حديث الواردين

وإن في أبرز ما استحق من الزائرين الاهتمام، المائدةَ المغربية بما تضمنَتْهُ من أصناف وأشكال وألوان، وبما يتخللها من المقبْلات والمشروبات والحلويات والمعاجين مما لا يتوفر في الموائد العربية الأخرى التي استهدفت للتغيير والتدهور في أعقاب المدّ العثماني والاستعمار الأروبي...

وقد قيل «أرني مطبخ أية أمة أحدثْك عن حضارتها»، ومن هذا المنطلق رأينا أن الذين استطابوا المائدة المغربية وتقديمها وأدواتها كانوا فعلاً يتحدثون عن ظاهرة حضارية معبرة عن الأصالة...

لقد وصفوا جلوس المغاربة حول المائدة المستديرة ذات الأرجل القصيرة، وتحدثوا عن خديم السماط وعملية تقديم الطّاس لغسل الأيدي وتنشيفها بالمناديل المعطَّرة، واحضار الأقراص المستديرة للخبز، وتقديم الحُساء المغربي الذي يعرف باسم (الحريرة)[1] والذي تتنوع أشكاله وألوانه... وهناك أكلة تعتبر عند المغاربة من المقبّلات مع أنها صحن كاف وحده أن يكون الأول والآخر، نظراً لما يحتوي عليه من

---

1) يشير الشيخ أحمد بن المامون البلغيثي إلى (الحريرة) و (ألكسكس) مداعباً :

أَحبُّ الحريرة والكسكسا ... وحبّهما في الفؤاد رسا

فأمّا الحريرةُ فالحرُّ منها ... ونصف الأخير مُحَلي النِّسا !!

ألوان وأنواع، وبهارات، وهذا الصحن يعرف عندهم باسم «البسطيلة»[2] التي يقال إن أصلها أندلسي (PASTELLA) وإنها كانت الأكلة المحببة التي كانت تقدم للفاتحين في الأندلس ! وقد تحدث عنها بعض السفراء الأنجليز منذ أيام العهد السعدي وقال عنها إنها كانت محشوة بفراخ الحمام واللوز المطحون... وتأتي أنواع الطعام الأخرى من المبخّرات والمطبوخات والمحشوات والمقليات مما يبرع فيه الطباخون الماهرون الذين يُختارون عادة من كبريات المدن المغربية... وقد كان مما أثار انتباههم تناول المغاربة للأكل بأطراف أصابعهم الثلاث : «الإبهام والسبابة والوسطى..!

ويعتبر الكسكس الوجبة المألوفة في كلّ بيت مغربي بما فيه من أنواع تتجاوز العشرة، فيه الذي يحضّر بأصناف الخضر على مختلف ألوانها ومذاقها «كسكس سبع خضار»، وفيه المصحوب باللحم... أو الدجاج أو السمك... وفيها (المدفون) أي الذي تدفن فيه قطع اللحم أو حبّات التمر الرفيع... وكان الكسكس يقدم عند الحفلات الكبرى في (مخافي) : صحون كبيرة يتضافر على حملها الخدم بواسطة عُرًى بجوانب المخْفية، ويعتبر (الكسكس) من الأطعمة المغربية التي نجد أثرها في معظم بلاد حوض المتوسط، وقد نقل أيضا إلى بلاد المشرق

---

2) تعتبر (البسطيلة من الاكلا ، الدقيقة التي تحتاج لاستعداد طويل وقد كان الأُدباء يتراهنون بتقديمها لمنافسيهم عند الغلبة في مشكلٍ أو لغز :

وجَعَلوا عليه في المشاكل ... بسطيلتين لانْتِفَا المشاكل !

وكما هي العادة في التنافس بين الجنوب والشمال فقد قرأنا من طريف شعر أحد أُدباء سوس مفضّلاً أُكلة (أملُّو) على البسطيلة :

وما البساطيلُ بهذا الباب ... إزاءَها إلاّ من السّراب !

وقرأنا كذلك لشيخنا المرحوم المختار السوسي مفَضّلاً (العصيدة) :

فإن يطعم الفالوذج الحُلْوفتية ... وبسطيلة جمّاعة ما يفرق

فإني بحمد الله عندي عصيدة ... من الذرة الغراء أولى وأوفق !

فقد برئت من كلّ زور ولم يطف ... على وجهها الوضاء طاهٍ يزوق !

المائدة المغربية في حديث لاجيء سياسي

ورد في وصف ابن الخطيب لإحدى الولائم المغربية التي قال فيها عن عبد العزيز الهنتاتي شيخ القبيلة :

«...فرحّب وأسهل، وارتاح واغتبط، وألْطَفَ وقدّمَ، وصعدنا الجبل إلى حَلَّة سكناه... وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كل سامي العماد، بعيد الطُّنُب، سويّ القامة، مقدَّر التفاصيل، بديع النقش والصنعة، ظاهر الجدة، مصون عن البذلة، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع، ولحق الحرر ومَساند الوشي، وأنطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجَّبة والأبهاء المنضّدة، ولم يكد يقر القرار ولا تنزع الخِفاف حتى غمر من الطعام والبحر، وطما الموج، ووقع البَهْت، وأمّل الطَّحو،[1] ما بين قطاع الشِيزي[2] وأفْعمها الثُّرد وهيل بها السمن، وتراكبتْ عليها لِسمان الحُملانِ الأعجاز، وأخْونة تنوء بالعُصبة أولي القوة، غاصّة من الآنية بالمُذْهب والمُحْكم مُهدِيةً كل مختلف الشكل لذيذ الطعم، مُهانٌ فيه عزيز التّابل ! محترم عنده سيدة الأحامرة الثلاثة،[3] إلى السمك الرضراض، والدجاج فاضل أصناف الطَّيار، ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على طعامٍ خاصٍ من الطير والكُبّاب واللّقالق،[4] يقع منها ـ بعد الفراغ ـ إلمامٌ ذلك الرئيس في نفرٍ من خاصته بما يدلّ على اختصاص ذلك بنفسه، ويتلو ذلك من أصناف الحَلْواء بين مستبطن لِلُباب البُر ومعالج بالقَلْو، وأطباق مدَّخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخُلْق، المشتملة على مُجاج الشهيد، وقد قام السِّماط من خدام وأساودة أخذتْهم الآداب وهذّبتْهم الدّربة، فخفَّت منهم الحركة، وسكنت الأصوات، واستمرت الأذيال، وقد اعتمّ من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة، فاضل أجناسه في الطيب والإحكام والفخامة...

ولم يكد يفرغ من الأكل إلا وقد جنّ الليل، وتلاحق من الطعام السيل، مُربياً على ما تقدّم بالروية وانفساح زمن الاحتفال، وتفنن أصناف الحلواء، وتعدي عسليّها إلى السكر، وكان السَّمر والمجالسة في كنف لألاء الشموع الضحّاكة فوق المنصّات النحاسية والأنوار اللّاطونية[5]...»

عن نفاضة الجراب تحقيق د. أحمد مختار العبادي

طبع القاهرة 1967 ص 46 ـ 47

---

1) الطحو : الانبساط والامتلاء.
2) الشيزي : خشب الأبنوس تصنع منه القصاع.
3) عبارة يقصد بها أصلاً : اللحم والمسك والخمر.
4) أعتقد أن القصد إلى الحُبار وهو من لذيذ الصّيد.
5) لعلها مشتقة من الكلمة القشتالية Laton النحاس الأصفر.

فعرف عند بعض البلاد هناك بكلمة (المغربية) أو «المضاعف» تجنّبا للفظة الكسكس التي يجدون فيها معنى لا نلتفت إليه نحن في المغرب[3]، وقد ورد في ترجمة أبي العباس أحمد المقري التلمساني الذي زار القدس مرتين وذلك عند ذكر (الرباط) الذي أوقف عليه من قبل أمير البلد إنّ زوار الأمير اعتادوا ان يتناولوا الكسكس عند المقري !.

كما ورد في مذكرات السفير الزياني لدى وفادته على تركيا أنه زاره ذات مساء في (ازمير) كاتب الدولة سليمان أفندي الذي كان لا يصلي المغرب حتى يتناول عشاءه، فأحضر له الزّياني الكسكس الذي كان قد صحبه معه، فاعتذر الوزير بأنه قد تعشى وأنه يخاف أن لا ينام إذا تناول عشاء ثانياً ! فألحّ عليه الزّياني ليذوق من الكسكس قائلا : لا خوف عليك ببركة سيّدنا سليمان ! فاستفسر الوزير عن صلة سليمان بالكسكس ! فأجابه الزّياني : إن الكسكس اخترعه طبيب جانّ للنبي المذكور لمّا حصل له السهر... فكان ذلك سبب نومه..! فجرب الوزير ذلك وأمست مائدته لا تخلوا من الكسكس كل ليلة !!

وقد ورد عن أبي علي اليوسي في محاضراته : «إنه لو عرف أرسطو البرنس والكسكس وحلق الرؤوس لاعترف لنا بحكمة التدبير الدنيوي» !!.

وقد تحدث كل الذين وردوا على بلادنا عما تحتضنه تربة المغرب من خيرات ونعم... ولكنهم، وفي صدرهم ابن فضل الله العمرى، لا حظ أن المغاربة قليلوا الاستهلاك للأرز وأنهم لا يقدمونه إلا لغريب اعتاد أكله أو لمريض يشكو من الإسهال !! وأنه (أى ابن العمري) لم يشهد (الفستق) في بلاد المغرب لأنهم أي المغاربة يتوفرون على كميات كبيرة من اللوز الرفيع...

---

3) الكُسّ : فرج المرأة فكأنّ الكلمة مضاعف !

هذا ولم يغفل الزائرون الحديث عن أنواع الحلوى المقدمة على اختلاف أنواعها وأصناف الفواكه الطّرية واليابسة، وقد عرفنا أن المغرب غني جداً بمختلف أنواع الفواكه العجيبة والغريبة طيلة الفصول الأربعة على نحو ما عالجته الكتب بمختلف اللغات بل وتعالجه الرسائل على مستوى عالمي مما يعبر وحده عن قيمة هذا المظهر من مظاهر الترف والبذخ...

والواقع أنَّ التأليف في موضوع المطبخ المغربي يعود إلى العصور القديمة وقد قرأنا مؤلّفا لمجهول عن (الطبيخ في المغرب والأندلس) منذ العهد الموحدي ويعتبر من أمتع الكتب وأغربها وأطرفها، وقد نشره معهد الدّراسات الإسلامية بمدريد[4] وهو يعاصر (كتاب الطبيخ الذي وضعه في المشرق شمس الدين محمد بن الحسن بن محمد ابن الكريم الكاتب البغدادي في حدود سنة 623 هـ[5].

وقد تحدث (كتاب الطّبيخ في المغرب والأندلس) عن أكلة تحمل اسم «الكامل» صنعت لأمير الأسطول المغربي أبي العلاء أخي يوسف بن عبد المؤمن وهي عبارة عن عجل مشوي محشو بوزة مشوية محشوة بدجاجة مشوية محشوة بدورها بحمامة مشوية محشوة بزرزور مشوي محشو بعصفورٍ مشوي... وتذكر مقرونة بصحن قائد الأسطول[6] وهي مما يدل على أن المحشوات طبيخ مغربي أصيل، وبالتالي يدل على أن (البسطيلة) ـ السابقة الذكر ـ وهي من أنواع المحشوات، عملٌ مغربي وليس من أصلٍ تركي...

---

4) مجلّد 9 ـ 10 ـ 1961 ـ 1962.

5) ترجمه إلى الإنجليزية : A.J.ARBERRY : A Baghdad – Cookery book. ISLAMIC CULTURE XIII 1939 P. : 189 – 214.

6) د. عبد الهادي التازي : الأسطول المغربي. (البحث العلمي) عدد 33 محرم 1403 = نونبر 1982.

وبالإضافة إلى صحن (الكامل) نجد أطباقاً معروفة إلى الآن بأسمائها القديمة كالتفايا : عبارة عن طبيخ اللحم باللوز والقزبرة[7] وتعتبر من الطعام الذي يحضّر لعلية الضيوف، والبُورانية نسبة إلى بوران بنت الحسن بن سهل التي يقال إنها أول من استنبط هذا اللون من الطعام المؤلف من الباذنجان، و (المروزية) وهي من الصحون التي تحضّر في أيام عيد الأضحى... له علاقة بمدينة مرو (بلاد فارس) : ملوج الضأن[8] بزبيب وعسل... وكذلك الصحن االمعروف بالصنهاجي وهو عبارة عن صنف يجمع بين لحم العجل والغنم والدجاج معاً وعليه اللوز والقسطل وقد يسمى (المخلّط)..! وأكلة «اللمتونية» التي تجمع بين أنواع سائر الطير مثل الدجاج والأوز والحمام وغيرها... هذا إلى «الاسفنج» الذي ما نزال إلى اليوم نرى دكاكينه منتشرة عبر المدن المغربية، وفيه يقول الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد من أهل القرن الخامس :

أخذي كذا بركاب الضيف أنزله   ألذّ عندي من الأسفنج بالعسل !

وما يزال شطر البيت الثاني يضرب مثلاً في سائر المحبّبات التي تكتمل محاسنها : «كالسفنج بالعسل» !!

هذا إلى مختلف أنواع المشروبات الذي نذكر منها الرّب (بضم الراء) وكان يتخذ من عصير السفرجل والرمان والتوت ويقدم في القصور الموحدية لكبار الزّوار قبل أن يثير العلماء الشبهات حول النّشوة التي يُحدثها ! وما يزال إلى الآن باب من أبواب مدينة مراكش يحمل اسم (باب الرّب). وفي هذه المشروبات ما كان يقدم للضيوف مبرداً، وقد

---

7) إليها يشير ابن عمار صاحب المعتمد بن عباد :
سئمت المثلثَ بالزّعفران   وملتُ إلى خُضْرةٍ في التفايا !!

8) ملوج : جمع ملج الأطراف من الخروف.

من تأثير المطبخ المشرقي على المغرب..

ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب مَوْلَى أمير المؤمنين المهدي العباسي... مضى إلى المغرب فأم أمير الأندلس الحَكَم المباين لمَواليه بالمشرق وخاطبه وذكر له اختياره إياه مُعلماً بمكانه من الصناعة وسأله الاذن في الوصول إليه، فسُرَّ الحكم بكتابه وبعث إليه برسول هو منصور اليهودي المغني يظهر له عن الرغبة فيه والتطلع إليه... فسار زرياب نحو الأمير بعياله وولده وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحَكَم فهمَّ بالرجوع إلى العدوة لكن منصوراً ثناه عن ذلك ورغبه في أن يقصد القائم مقام الحَكَم : عبد الرحمن ولده، وكتب منصورٌ إليه بخبر زرياب وجاءه كتاب عبد الرحمن يذكّره بتطلعه إليه وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصّلوه إلى قرطبة...

فلما قضى له سؤله وعلم أن أرضاه وملك نفسه استدعاه فبدأ لمجالسته على النبيذ وسماع غنائه، فما هو إلا أن سمعه فاطَّرح كل غناء سواه واحبّه حباً شديداً... حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوةً فيما سنه لهم من آدابه وما استحسنه من أطعمته، فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين عامّاً للصدغين والحاجبين. فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه، هو وولده ونساؤه، لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها إلى آذانهم وأسدا لها إلى أصداغهم هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه...

ومما سنه لهم استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم ولا شيء يقوم مقامه، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَضَر فدلَّهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها فلما جرَّبوه أحمدوه جدا.

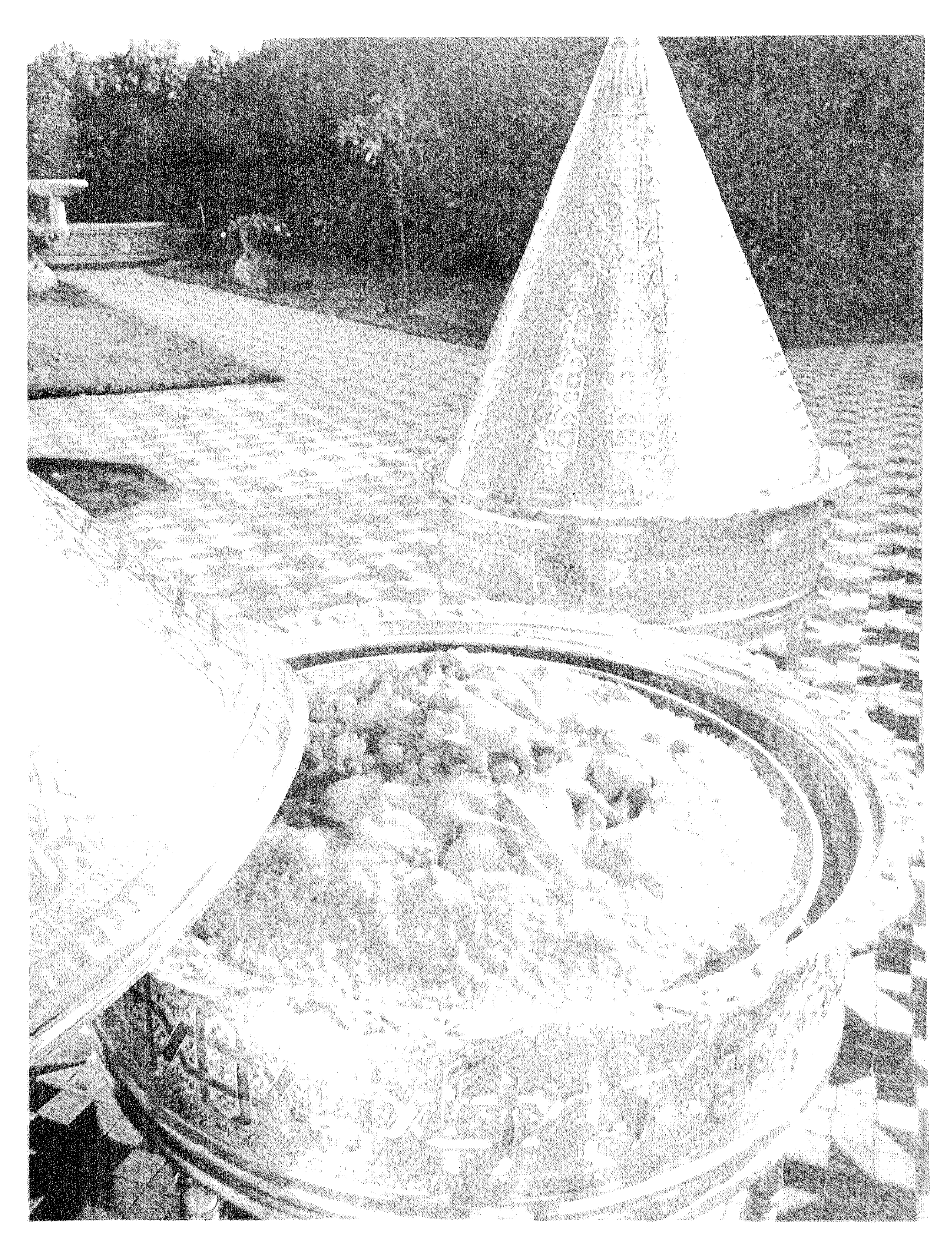
وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج (ASPERGE) ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله... ومما اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا وهو المصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب(9).

---

(9) يستعمل الأسفراج لتزيين المائدة جلْباً للشهية، وفي هذه البقلة يقول كَشاجم كبير الطهاة في قصر سيف الدّولة :

فلو رآها عابدٌ أو مجتهد　　أفْطَر ممّا يشتهيها وسجد !

هذا، ويطلق الفول (الزُّريابي) على ما قُلِي منه وملح Hespe. 1931 p.13



عن كتاب «الطبخ المغربي» تأليف لطيفة بناني ـ سميرس



عن كتاب «المطبخ المغربي الجديد» تأليف فطومة بن كيران

تعرفنا على الطرق الخاصة بالمغاربة في تلطيف الجو وتكييف الهواء في الجهات التي تشتد فيها الحرارة عندهم[10]...

وفي باب الحلويات تتكاثر الأنواع وتتعدد حتى ليجد الزوار أنفسهم أمام حيرة الاختيار. فلكلٍّ طعم، ولكلٍّ لون، ويوجد في أشهرها الزلابية (الشّباكية) تحريفا للزريابية نسبة إلى الموسيقي المشهور زرياب الذي أحضرها ـ كما قلنا ـ إلى المغرب، على أن هناك من أنواع الحلويات أنواعاً يحمل اسم (تارفست) أو (الرغيفة) وهو نوع من الحلوى المهروسة، تجعل عليه عند التناول كرة من الزبد الطّري... وكثيرا ما كان يصحب القوافل (المخزنية) في تحركاتها الطويلة على نحو البشماط[11]، لأنه يعتبر من المدخّرات التي تحتفظ بمذاقها عبر الشهور... هذا إلى (كعب الغزال) الذي يصاحب تناول الشاي عادة...

والمغرب أرض غنية بثروتها الحيوانية، ولهذا نجد أنواعا عديدة من المجبنات : فيها الطري وفيها المدّخر، وكان المغرب أجدر بالمثل الأندلسي الذي يقول عن مجبنات شريش : «من دخل شريش ولم يذق من مجبّناتها فهو محروم»، ! ومما قال فيها أبو البركات البلفيقي شيخ ابن الخطيب :

حوامل وهي أبكار عذارى ... تزفّ إلى الأكف مع البكور
كبرد الطلّ حين تذاق طعماً ... وفي أحشائها وهج الحرور !

---

10) إقرأ عن المظلاّت التي كانت تنصب على صحن الجامع الأعظم في فاس، د. التازي : جامع القرويين I.، 74 ـ 85 طبعة بيروت 1972.

11) د. خليل الساحلي : وثائق عن المغرب العثماني، المجلّة التاريخية المغربية (تونس) يناير 1977.

ومن أشهر المجبّنات النّوع الذي يمزج بالبيض وهي التي كانت تصنع لأبي سعيد بن جامع وأصحابه، وكانت من استنباط موسى ابن الحاج يعيش محتسب مدينة مراكش[12]..

وإذا كان الناس يقولون : «إن الأكل من صنع الله وإن البهارات من صنع الشيطان» فإن الأطباء المغاربة على العكس من ذلك يعتبرون البهارات من كمال تكريم اللّه للإنسان !! وأنها من المواد التي تساعد صحياً على عمليات الهضم علاوة على ما فيها من تنبيه للحواس..! ولذلك نجد جل مئاكل المغاربة تعتمد على الأبازير التي ترد من مختلف جهات العالم إضافة إلى ما ينبت بالمغرب..

وقد كانت ـ وما تزال ـ الطريقة المغربية المثلى في تكريم الضيوف أن تقدم له الصحون واحداً تلو الآخر حتى إذا ما استوفى غرضه من صنفٍ قدم له شكل آخر على حدة، على أن هناك طريقةً أخرى وهي تجميع الأنواع كلها على السفرة، ما يسمى اليوم بالبُوفي (Buffet) ويقبل الناس على السفرة فيتناولون منها ما يشاءون، لكن المغاربة كانوا يعتبرون هذه الطريقة أبعد عن الصواب وأقل تعبيراً عن الكرم على ما تقول كتبهم القديمة... ومن أجل هذا رأينا حديث السفراء الأجانب يقتصرون على ذكر «أفلاك الموائد» المستديرة والأسمطة والطوافير والمخافي «وأفلاك الأطباق» التي تقدم على التتابع على حدّ تعبير ابن الخطيب !...



12) د. التازي : وظيفة المحتسب في المغرب عن المحاضرات التي قدمت للفوج الأول من المحتسبين المغاربة بعمالة الرباط وسلا، مايه ـ يونيه 1982.

أتاي كمشروب وطني

والحديث عن المائدة يستدعي الحديث عن الشاي الأخضر أو (أتاي) كما نسميه في المغرب[13]، وقد نال بدوره حظه في مذكرات الدبلوماسيين الذين كانوا يتقاطرون على المغرب... وبالرغم من أن (أتاي) لم يكن يستحق، فيما قد يبدو، كلّ تلك العناية، لكن الطرافة التي تحتف بهذا الشراب الوطني تجعل من الممتع تخصيص بعض الحديث عنه

وقد أشار الذين اهتموا به من الكتاب الأجانب إلى أنه كان يعوض فعلاً المشروبات الكحولية المعروفة في أُروبا..! والواقع أن لعادة (أتاي) في المغرب صلّةً بهذا التفسير، فإن ظهوره أيام عبد الله الغالب (964 ـ 981 = 1551 ـ 1573) أوائل الدولة السعدية، وفي الظروف التي كثر فيها ورود اللاجئين الأندلسيين على المغرب بما يحمله بعضهم من عادات أروبية استحكمت فيهم بالمساكنة والمخالطة، جعلت الدولة المغربية تفكر في جعل «بديل» لتلك العادات التي لا تتناسب والوسط المغربي المحافظ، وقد قرأنا عن السفير الأندلسي الذي ورد على المغرب أيام بني مرين، فأحدث ضجة كبرى بفاس بسبب معاقرته للخمور، كما سمعنا عن أثر اختلاط الحامية الأروبية بالمغاربة...

وهكذا ظهر الشاي الأخضر الذي جعلت له طقوس خاصة وأدوات مناسبة فيها المفضضات وفيها كؤوس البلور الملونة، وأوعز للأطباء بنشر وإذاعة منافع هذا المشروب، وبخاصة النعناع الذي يضاف غالبا إلى

---

13) كلمة الشاي آتية من الكلمة الأجنبية (Thè) وقد احتفظ بها المغاربة مضيفين إليها الألف (أتاي) على طريقتهم في إضافة الهمزة للألفاظ الممغربة، أبلح، بينما نجدهم في تونس ينطقون بها (تاي) وفي المشرق (شاي).

أتاي... واتجه الأدباء بدورهم إلى تدوين الأراجيز وغيرها حول هذا «المشروب الوطني».

وإذا ما تتبعنا تقارير الرَحّالة الأجانب فسنجد أن طوماس لوجاندر (Thomas Legendre) يلاحظ انتشار أتاي والقهوة منذ عام 1075 = 1665 أي في بداية الدولة العلوية على نحو ما لاحظه القناصلة الفرنسيون والدانماركيون.

وكلنا يعلم عن عاصمة العلويين : مكناس التي كانت وما تزال تشكل حقولا واسعة من «النعناع المكناسي» المعروف برائحته العطرية المفرجة، وكلنا نعلم أن السر في ذلك يرجع للطبيب الخاص للسلطان مولاي اسماعيل، الحكيم عبد الوهاب أدرّاق، الذي نظم قصيدةً طويلة حول النعناع.

وإذا ما صدقنا هذا الطبيب فإن «النعناع دواء لعدد كبير من الأمراض ذكر منها (37) ! بما فيها أزمات الصدر وأمراض العصب وصداع الرأس، وهو، إلى هذا، منبه للشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج !!.

إذا الشهوتان احتاجتا لموافقٍ	فليس سوى النعناع خذن موافق !
يسارع بالتسليم عَرْفاً على الذي	يمرُّ به في روضه ويسابق
يؤنس بالتفريج نفساً مشوقة	ويذكي حِجا مَن للمعارف عاشق
له في علاج الصدر سهم مفوق	وفي خفقان القلب سهمه بارق !
مداو لبول، للحصاة مفتت	منق لأنواع البلاغم فارق
وفي ألم القلب الضعيف بدتْ لنا	منافعه الجلّى فسوقه نافق[14]

14) د. التازي : الطبيب عبد الوهاب أدرّاق، محاضرة أمام أعضاء جامعة صيادلة المغرب العربي طنجة، 2 مايه 1986.

ولم يكن الدّراق وحده ممن تحدثوا عن تلك الفوائد، فقد كان لغيره من أمثال الحكيم الشيخ المهدي الكحاك نظريات مطابقة...

ولكثرة الاهتمام بتحضير الأتاي، نجد لأصحابه وظيفة خاصة بالقصور الملكية لا تختلف عن وظائف أصحاب الوضوء وأصحاب الشكّارة، سمعنا عن «أصحاب أتاي» على نحو ما هو معروف في نظام البلاط...

ولعل من الطريف أن نشير لأرجوزة الشيخ عبد السلام الزموري الفاسي حول الشاي وتعتبر آية في المتعة والطرافة، وهي تفسر الطقوس التي تحدثنا عنها آنفاً وتجعل لشرب أتاي أوقاتاً معينة حسب ما يصحبه من وجبات، فإذا كانت الأكلة شواءً أو كباباً فلا بدّ أن يقدم الشاي للضيف مصاحباً للأكل، وإذا كانت الأكلة كسكساً وجب أن يقدم قبل تناول الطعام :

خذْهُ، فدَتك النفس، منْ قبل الطعام	أو بعده فما عليك من ملام
إلا إذا كان الطعام كسكسا	فكل من أخره فقد أسا !
وقت الصباح عندهم مستحسنُ	لكنه بعد العشاء أحسن !
وشربُه على الشواء والكباب	يفتح للشّهوة منه ألف باب !
وقد جرى العملُ في الكؤوس	بأن تكون عدَد الرؤوس !

ولو أردنا أن نستعرض «أدب أتاي» لوجدنا أنفسنا أمام دواوين مسهبة عن هذا المشروب الطاهر المسالم المتواضع الذي يغزو الجبال والوهاد والمدن والقرى، وقد كان مما حفظناه بهذا الصدد ما نظمه القاضي الأديب الطيب بسّير الرباطي : وفيه معنى من التورية والدّعابة.

أتـــاني أتـــاني بحمـل أتـــاي شربتـــه صيفـــاً وزدت شتـــاي
قـــــــــــوالب سكّره عظمت إذا مـــا رأيتهـــا قلت : ألاي[15] !!

ونظراً لما أصبح يمثله (أتاي) من وسيلة للتسلية، نرى الملوك يوصون أساتذة أبنائهم بتعويدهم على الخشونة في المطعم والملبس وأن لا يمكنوهم من شرب أتاي إلا مرة أو مرتين في الأسبوع ! الأمر الذي يدل على منزلة أتاي بالنسبة للوسط المغربي..!

☆ ☆ ☆

وقد كان مما لفت نظر المبعوثين الأجانب إلى المغرب، هذه العطور الزكية التي تصحب التكريمات والتشريفات، ونحن نعرف أن من عوائد البيوت المغربية امتلاك قطّارات للزهور والورود والياسمين لتخزين مائها للمناسبات، ومن المعروف عن المغرب أنه من أوائل الممالك التي تستورد العود القماري من الهند واللُّبان من عُمان[16]... ويحكي أحد المبعوثين الدبلوماسيين أنه ـ وقد اقترب من القصر الملكي عندما هبت عليه أنفاس العطور ـ كان كلما ازداد توغلا في رحاب القصر ازداد نشوة ومتعة، وأن ذلك الأريج أخذ يبلغ قمته وهو يقترب من الردهة الملكية حتى لكان يتصور أنه في جنة رضوان !!!.

وقد ورد في وصف السفير التامجروتي لاحدى تلك المآدب قولُه : «وأوتي بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني

15) من المفارقات اللطيفة وجود وظيفة عند العثمانيين تحمل اسم قائد السَّبْسي، أي الذي يختص بتحضير الكيف للسلطان، وحيث إن الأتراك لم يصلوا للمغرب فإننا لانجد ذكرا لهذه الوظيفة ببلادنا... بينما نجد وظيفة «صاحب أتاي» أي الذي يسهر على تحضير الشاي...

16) كان مما أثر عن المغاربة معرفتهم بأنواع العود الجيد حتى لكانوا يراهنون العطارين في المشرق، وقد حفظ من الشعر الذي يميز صفات العود والعنبر :

ثـــلاثـــــةٌ في العُـــود محمـــودةٌ وتلــــــــك في العنبر لاتُحمـــــــــد
صـــلابـــــةٌ فيـــــه، وثقـــلٌ بِـــــهِ، ولــونُــــه الأســـودُ الحـــــالــــك !

التركيـة والهنـديـة، وأوتي بـالطسوس والاباريق، ونصبت مبـاخر العـود ورش ماء الورد والزهر...».

ويـلاحـظ من خـلال وصف التـامجروتي وجـود آثـار للـواردات من أروبا بل ومن أبعد الجهات، وسنضيف إلى هـذا مـا أثر في الشعر الشعبي الــذي تتغنّى بــه المــوسيقى الأنــدلسيـــة عنـــدمـــا ردّدت «الأواني البنـدقيـة»[17]... ومـا أثر في بعض مصـادر تـاريـخ المغرب من وجـود للخـزف المـايـورقى على نحـو مـا نقرأه في وصف إفريقيـا للحسن ابن الـوزان،[18] هـذا طبعـا إلى الصحـون الكبيرة المعروفـة في المغرب تحت اسم «الصّينيات» الواردة أصلاً من بلاد الصّين !.



17) ممّا يستعمل في قدام الماية هذا الزّجل الذي ذكرناه في المجلد الأوّل ص 88 :

والســاقـــي مــؤدّب   يسقى بأواني البندقية !!

مجموعة الحايك. نشر مكتبة الرشاد ـ البيضاء 1392 = 1972 صفحة 174.

18) ابن الوزان : وصف إفريقيـا : ترجمـة عبـد الرحمن حميـده، نشر جـامعـة الإمـام محمـد بن سعود الإسلامية 1399 صفحة 242.

هنا انتهى المجلد الثاني
ويليه المجلّد الثالث
ويبتدئ بموضوع : المغرب في حديث الأقدمين

فهرس الصور والرسوم

صفحة	الصور والرسوم

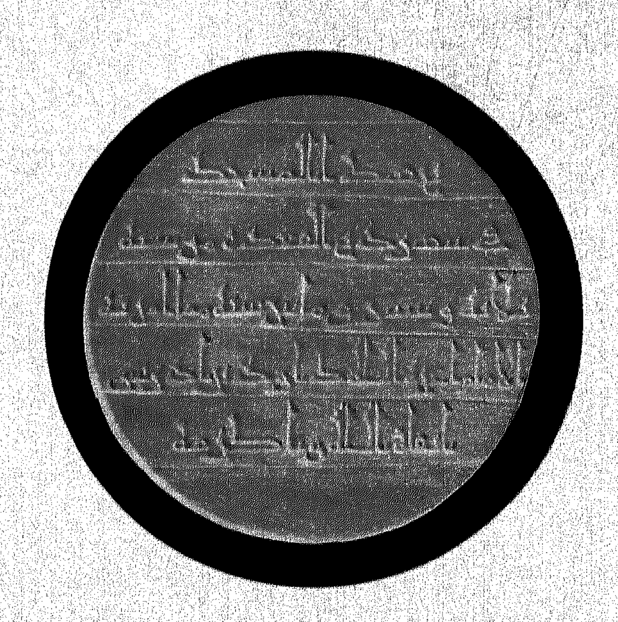
فهرس المجلد الثاني
من التاريخ الدِّبلوماسي للمغرب

رقم الإيداع القانوني : 1986/25

تم طبع هذا الكتاب بمطابع فضالة - المحمدية

HISTOIRE DIPLOMATIQUE DU MAROC

(DES ORIGINES À NOS JOURS)



Tome 2

Introduction 2

Par

ABDELHADI TAZI

MEMBRE DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

1986 - 1406